

سحق الطبع محفوظة للمؤلف
في النسخة الأولى ١٩٩٤

عيسى فتوح

أرويك حريتك

سير ودراسات

الجزء الأول

إهداء
إلى زوجتي أسماء عريبي
وبناتي

لينا وورنا ومايا وميرنا

اللواتي حققن لي أعلى

أمنياتي في الحياة.

عيسى

مقدمة

أحببت أدب السيرة وملت اليه منذ الصغر ، فكنت أبحث عن كل كتاب يضم سير العظماء من أدباء وشعراء وفلاسفة وقادة وفنانين وموسيقيين وعلماء ومفكرين ومخترعين . . . ثم دفعني هذا الميل إلى الاهتمام بسير الأديبات اللواتي تفوقن في الشرق والغرب ، وقد كتبت على مدى عدة سنوات عدة دراسات عن طائفة منهن ، نشرت بعضها في الصحف والمجلات السورية والعربية ، وبقي بعضها الآخر مخطوطاً ، ثم رأيت أن أجمع هذه الدراسات في كتاب ليكون في متناول أيدي المهتمين بأدب المرأة بشكل عام ، آملاً أن أوصل الكتابة في هذا المجال ، فأتحدث عن طائفة أخرى من الأديبات والشاعرات المتفوقات لأثبت أن المرأة لا تقل نبوغاً عن الرجل في ميدان الأدب والشعر . . . وان كان عدد من تفوق منهن أقل نسبياً إذا ما قيس بعدد الرجال .

عيسى فتوح

دمشق في ١٤ / ١ / ١٩٩٤

عيسى فتوح وكتاب أروبيك عربيت

تَقْرِع

كوليت الخوري

إنه واحد من هؤلاء المعدودين الذين أرغبُ في الكتابة عنهم .
لا لأنه رفيق على هذا الدرب الطويل الذي حفرنا عليه خطواتنا ، فسرق منا سنوات
عمرنا ومازلنا نشعر بأننا في أوله
هذا الدرب المزهرة الشائك درب الأدب
فأنا أعرف عيسى فتوح منذ أن نوينا ذات يوم بعيد بعيد أن نَعْمَر بالحروف والكلمات
عالمًا خاصًا بنا فسيحًا مضيئًا لا حدود له ولا سدود نُثَبَّت فيه عروشنا
ونُسَخَّر له المستقبل ونُظَلَّ منه على العالم
التقيت به في أول الدرب . في أوائل الستينات .
كنت أكتب في مجالات أدبية شتى .
وكان يكتب عن الذين يكتبون في شتى مجالات الأدب
ومرّت السنوات .
مرّ العمر
ومازلنا نسير على هذا الدرب الذي غرّسنا على جوانبه أصابعنا ، فسَمَقَتْ قناديل
ومنارات
نعم كل هذا العمر
ومازلنا أنا أكتب
وهو يكتب إنما عن الذين يكتبون

* * *

وأرغب في الكتابة عن عيسى فتوح ليس فحسب لكونه إنساناً يتمتع بأخلاق حميدة في زمن غدت فيه هذه الفئة من الناس أشبه بالقطع النادر |
 فعيسى فتوح شخصٌ صادق بكلِّ ما تحمل هذه الكلمة من معاني .
 بل إنه صريح أكثر من اللزوم - أكتب هذا وأنا أبتسم - فلطالما وجَّهت إليه أنا شخصياً ملاحظة بل عتاباً على صراحته الزائدة .
 لكن عيسى لا يعرف المواربة، لا يعرف الخبث . . . ولا يعرف حتى أن يخبيء رأيه ، أو أن يخفي عنك أمراً
 فهو أمامك كتابٌ مفتوح . . . لست في حاجة إلى قلب صفحاته والنبش بين سطوره ، لكشف الغموض وحل الألغاز
 وهذا ما يجعل منه إنساناً تطيب لك معاشرته
 فضلاً عن أن عيسى يتمتع بمزايا مشكورة
 فهو جدي في حياته منظم .
 مجتهد في عمله دؤوب .
 رب أسرة محب متفانٍ
 مخلص لأصدقائه ، صاحب لفة كما نقول
 وفي هذا الزمن الذي انقلبت فيه القيم والمفاهيم ، وغداً همُّنا أن نعرف كيف نتقي شرَّ من أحسننا إليه
 يبقى عيسى من هؤلاء القلائل الذين لا ينسون من يمدُّ لهم يداً وقت الحاجة

* * *

وأرغب في الكتابة عن عيسى
 ليس فحسب لكونه يتقن اللغة العربية .
 وأنا أتخيل كل من يلمَّ بهذه اللغة الغنية البديعة وقواعدها متفوقاً
 لأنه ، في رأبي ، يملك كنزاً لا كالكنوز
 كنزاً راسخاً فياضاً . . . قادراً وحده على أن يحمل صاحبه عبر التاريخ إلى عوالم المستقبل ، وأن يجعله يتنقل في أكوان سحرية . . . وأن يجد له ، حسب «القواعد» ، مكاناً في مصاف المرموقين
 وعيسى فتوح المحيط بالأدب العربي يتقن قواعد اللغة . . . بل من الممكن أن نعتبره في اللغة مرجعاً

* * *

نعم . . . أرغب في الكتابة عن عيسى فتوح ليس لأنه يتمتع بكل هذه الصفات - وهي مزايا تستحق أن نكتب عن صاحبها - وإنما لسبب آخر أثر في نفسي

وهو أنه قضى هذا العمر الطويل يكتب عن هؤلاء الذين اختاروا طريق الأدب . . .
وما كتب عنه حتى الآن واحد من هؤلاء . . .
حوالي الأربعين سنة
وعيسى يتقصّى أخبار الأدباء والأدبيات . . .
يبحث في الماضي عن أيامهم . . .
ينقب فيها . . .
يلتقط منها لحظاتهم الهاربة . . .
يرممها . . . يجدد صياغتها . . .
يعيد إليها الحياة . . .
ثم يُبثّها بين دفّتي كتاب . . . فيمنح هؤلاء شيئاً من الخلود . . .
أقول هذا لأنه ثبت حتى هذه اللحظة أنّ الكتاب هو - من الأحياء والأشياء - الأكثرُ بقاءً
في هذه الدنيا الفانية . . .
وقد أعطانا عيسى حتى الآن ثلاثة عشر كتاباً . وأكثر من مئة سيرة ودراسة . . . تنتظر
أن يضمّها غلاف . . .
وهاهم زملاؤنا الأحياء يتمرّون على صفحات مؤلفاته . . .
وأما الراحلون منهم ، فهم ما زالوا يتنفسون من خلال كتاباته ، ويعيشون بيننا بفضل
دأبه واجتهاده . . .

* * *

عندما سألتني عيسى فتوح إذا كنت أرغب في أن أكتب مقدمة لكتابه هذا «أدبيات
عربيات» . . . وافقت على الفور .
لكنني لم أخبره أن رغبتني هي أن أكتب عنه هو لا عن الكتاب . . .
فهذا الكتاب القيم الذي يقدّم لنا لمحة إلى حياة وآثار ثلاثٍ وثلاثين أديبة من نساءنا
العربيات . . .
والذي بإمكاننا أن نعتبره نواةً لأيّ بحث طويل يريد أي كاتب راغب الخوض
فيه . . .
هذا الكتاب سيجد من يكتب عنه .
بل كثيرون سيستعينون به في كتاباتهم ودراساتهم . . .
أما أنا
فقد أسعدني أن أتحدث عن الذي ألف هذا الكتاب . . .
هذا الذي يطمح لأن يكتب سيرة كل الأدبيات - كما فهمت منه - ولا يطمع في أن تكتب
عنه أديبة واحدة . . .
هذا الأديب الذي يصرّ على أن يمد بالأسطر أعمارنا . . . إلى ما بعد الرحيل . . .
الصديق عيسى فتوح .

- دمشق في ٣١ / ٥ / ١٩٩٤

أَسْمَى طُوبَى

١٩٨٣-١٩٠٥

ولدت أسمى طوي في مدينة الناصرة بفلسطين عام ١٩٠٥ ، ودرست في المدرسة الانكليزية اللغتين الانكليزية واليونانية ، أما اللغة العربية فقد أتقنتها على يدي والدها الذي كان شاعراً يقيم في منزله الأمسيات الشعرية والندوات الأدبية التي يلتقي فيها بعض شعراء الناصرة وضواحيها ، وكانت أسمى - التي ظهرت عليها علامات النجابة والذكاء منذ صغرها - تلقي أمام الضيوف مختارات من شعر عنتره العبسي ، مما جعلها تهوى الشعر ، وتكتسب الكثير من الطلاقة والثقة بالنفس ، ولما شبت عن الطوق أخذت تطالع دواوين الشعر العربي قديمها وحديثها ، وتكتب في عدد من الصحف والمجلات الفلسطينية ، وتذيع بعض الأحاديث التربوية والتوجيهية من محطة الاذاعة الفلسطينية (هنا القدس) حول الصدق والواجب والشرف ، وتربية الأطفال .

انتقلت بعد الانتهاء من دراستها إلى مدينة عكا حيث لعبت دوراً بارزاً في الحركة الوطنية الفلسطينية ، بعد أن أخذت هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة بالازدياد ، فقد أسست مع زميلتها رقية حقي زوجة الشاعر أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي) «الاتحاد النسائي العكي» عام ١٩٢٩ وأخذت تعمل جاهدة ليل نهار مع زميلاتها لتأمين الطعام والكساء لجرحي المعارك التي كانت تدور رحاها بين العرب واليهود الدخلاء ، حيث «مئات الأسر رجالها في الجبال يناضلون» .

كانت تؤلف المسرحيات المستمدة من تاريخ العرب البطولي ، أو الجهاد المشرف مثل «نساء وأسرار» و«شهيدة الاخلاص» لترفع بها من معنويات المواطنين ، ولتكسب بعض المال لصندوق الاتحاد كي يستطيع أن يقوم ببعض الخدمات .

تقول أسمى في كتابها «عبير ومجد» تحت عنوان «اتحاد عكا» : «كانت حفلات التمثيل تتحول إلى مهرجان وطني تلقى فيه الخطب الحماسية ، يقبل عليها المواطنون من حيفا والقرى المجاورة إقبالاً يتكفل بموزد أكثر من جيد للاتحاد . . . أما واضعة التمثيلية ومخرجتها (وهي أسمى) وزميلاتها اللواتي يعددن الملابس بأيديهن للممثلات بعد أن تنبش كتب التاريخ بحثاً عن صور لتلك الملابس ، فقد كان يعزيهن جميعاً أن الاتحاد يتموّل على قاعدة : «عرق جبينك تأكل خبزك» ، وإن كان هو لا يأكل هذا الخبز» .

كان منزلها يتحول إلى مسرح قائم قاعدت تمرن الشابات فيه على التمثيل حتى

يصلن إلى مستوى تردد معه الصحف أن هؤلاء الشابات لا يفوقهن مقدرة في الفن إلا
جوقة يوسف وهبي . . .

* * *

شغلت أسمى طويي أمانة سر الاتحاد النسائي العكي منذ تأسيسه ، ثم آلت إليها
رئاسة الاتحاد ، فسارت في المظاهرات وهي تنشُد الأناشيد الوطنية ، واشتركت في
المؤتمرات ، وأرسلت البرقيات الجريئة ، محتجة على وضع البلاد والتأمر عليها ،
وشكلت مع شاباتهما فرق الإسعاف التي نزلت إلى الميدان بجرأة المتطوعات
الباسلات ، واستمرت تكتب وتناضل ثمانية عشر عاماً حتى حدثت نكبة فلسطين
عام ١٩٤٨ ، فغادرت عكا وأقامت في بيروت ، لكنها لم تنس فلسطين الجريحة التي
ظلت هاجسها الدائم ، تهفو إليها بقلبها وفكرها وروحها ، وتناجيهما من بعيد ، إلى
أن أطفأ الموت عينها عام ١٩٨٣ إثر انفجار في الدماغ .

* * *

عاشت أسمى طويي طوال حياتها كتلة من النشاط الدائب ، والحركة المستمرة ،
لا يشغلها أي شاغل عن الكتابة والتأليف وتقديم الأحاديث الإذاعية في محطة الشرق
الأدنى والإذاعة اللبنانية ، وقد غذت العديد من الصحف والمجلات اللبنانية
بمقالاتها وترجماتها ، ولاسيما مجلة «صوت المرأة» ومجلة «دنيا المرأة» على مدى ثلاثة
عقود ونيف .

كانت تملأ فراغها بالكتابة ، وتسهم في النشاط الأدبي والاجتماعي والوطني ، وبما
أنها لم تنجب أولاداً فقد كرست حياتها لأعمال الخير والاحسان ومساعدة الآخرين
والتضحية في سبيلهم .

* * *

لأسمى طويي تسعة كتب هي على التوالي : الفتاة وكيف أريدها ١٩٤٣ ، على
مذبح التضحية ١٩٤٦ ، المرأة العربية في فلسطين ١٩٤٨ ، أحاديث من القلب
١٩٥٥ ، الدنيا حكايات (مترجم) ، في الطريق معه (مترجم) ١٩٦٠ ، عبير
ومجد ١٩٦٦ ، حبي الكبير (ديوان شعر) ١٩٧٢ نفحات عطر ١٩٧٥ وثماني
مسرحيات هي : أصل شجرة عيد الميلاد ، مصرع قيصر روسيا وعائلته ١٩٢٥ ،
صبر وفرج ١٩٤٣ ، نساء وأسرار ، شهيدة الاخلاص ، واحدة بواحدة ، القهار ،
الابن الضال .

يعد كتابها «عبير ومجد» الذي أهده إلى أمها الراقدة في تراب غريب تنتظر أن تعود إلى تراب الوطن ، أهم كتبها ، فقد تحدثت فيه عن بدايات العلم والمعاهد العلمية الوطنية في فلسطين ، وعن البعثات الأجنبية من فرنسية وانكليزية ، وألمانية وأميركية وروسية ويونانية وإيطالية . . . ثم عن الرائدات الفلسطينيات في مجالات الطب والمحاماة والصحافة والكيمياء ، وعن الجمعيات الوطنية والاتحادات النسائية ، والسيدات الفلسطينيات اللواتي لمعن في الشتات في ميادين الأدب والشعر والفن التشكيلي والموسيقى والخياطة وتدبير المنزل وفن الطبخ والتجميل والاذاعة والديكور . . . وختمت الكتاب ببحث عن المرأة الفلسطينية والفداء ، وآخر عن المرأة والتصوف ، فالكتاب إذا مسح شامل لكل الأنشطة التي قامت بها المرأة الفلسطينية منذ بداية عصر النهضة الحديثة حتى اليوم .

أما كتابها الأخير «نفحات عطر» الذي صدر عام ١٩٧٥ وأهدته إلى بلادها قائلة : «وتبقين في كل حين ، صلاة على شفتي ، صلاة المحب الأمين» ، فهو مجموعة مقالات قصيرة تتحدث فيها عن الطرق التي يحتفل فيها الناس بأعراسهم في العالم ، وبعد أن تحدثت عن أول عرس في التاريخ ، والأعراس في فجر الاسلام ، والهند ، وروسيا ، والدانمارك ، وإيسلندة ، ويورما ، وغينيا ، وهنغاريا ، وسيام ، تحدثت عن أجمل هدية عرس .

وفي الكتاب مقالات عن أول إضراب في التاريخ ، والترية في اسبارطة ، وعن بعلبك ، وكتاب بربارة يونغ عن جبران (هذا الرجل من لبنان) ، والعصامية في بلادنا ، والملكة توموريس قاهرة كورش ، وعن الربيع وأول من عيّده ، وأطول وأقصر ربيع ، وأول من أهدي الزهور وتزين بالورود ، وعمن وصف الربيع وتغنى به كروبرت براوننغ ، وشكسبير ، وثمبسن ، وصفي الدين الحلي ، والبهاء زهير ، والشريف الرضي ، وعمر الخيام ، وإيليا أبي ماضي . . .

أجل ما في هذا الكتاب الطريف اللطيف الذي تفضلت باهدائي نسخة منه ، وصفها لمغارة جمعيتا في لبنان التي «تنحت الهياكل ، وتقيم التماثيل على أبوابها ، وتنصب الشموع من حولها ، كأنها تخشى علينا نحن البشر مغبة الضلال ، فهي تود أن تهيب لنا . . . مصلى» .

وتعبر عن إعجابها بها بقولها : «إنها منحة السماء لا للبنان وحده ، بل للعالم كلها . . . صاغت لتكسر عنفوان الإنسان المتفاخر ، وتخفف من غلوائه ، فهولا

يستطيع أن يفعل مثلها فعلت» .

وتتحدث عن عيد الأم ، وعن الفتاة الأميركية الفقيرة «آنا جارس» التي كانت أول من عيّد للأم ، ثم أصبح ذلك اليوم عيداً قومياً ترفع فيه الأعلام ، وتقدم الهدايا للأم . . . وعن «لامارتين» شاعر الحب والجمال الذي زار لبنان عام ١٨٨٣ وحل ضيفاً على الأمير بشير الشهابي في قصر بيت الدين ، ولاتزال الغرفة التي نزل فيها تحمل اسمه حتى اليوم .

وتنهي الكتاب بالحديث عن الأشياء الصغيرة في الحياة ، وكيف أنها تؤدي دوراً أكبر من حجمها : ناموسة تدخل في أذن الفيل فتجعله مجنوناً . . . زر في غرفة القبطان يضغطه فيحرك الباخرة إلى الأمام أو إلى الخلف . . . ثقب صغير في مركب يفرقه . . . هذه الأشياء الصغيرة هي عناصر العظمة الحقيقية ، والحياة نفسها مكونة من الأشياء الصغيرة .

* * *

ان كتابات أسمى طوي هي بالاجمال انعكاس للأحداث التي مرت بها في حياتها ، وحياتها ووطنها وشعبها ، وصدى لمطالعاتها الدائمة ، وتنقيتها المتواصل في بطون الكتب والصحف والمجلات ، وتعليقات على ماكان يستدعي اهتمامها ويستوقفها من هذه المطالعات . . . كتابات تشد القارئ غير المتخصص وترميحه وتمتعه ، لأنها انتقتها بذوق الفنان الأصيل ، لفائدتها ، أولطرافتها ، أولغرابتها ، كما في مقالها «زوجة للبيع» الذي تحدثت فيه عن فلاح بريطاني عرض زوجته للبيع لأنه تزوجها لتكون سلواه ، فإذا بها تنقلب لتصبح لعنة عليه من السماء وشيطاناً رجياً ! . . ثم تتابع الكلام على الأزواج الذين باعوا أورهنوا زوجاتهم في الماضي بسبب الفقر المدقع . . .

* * *

لقد كوفئت السيدة أسمى طوي على أعمالها الانسانية ، وجهودها الكبيرة ، وتضحياتها الجسيمة باقامة حفلة تكريمية لها في فندق البريستول ببيروت في ٨ / ٤ / ١٩٧٣ ، قدم لها المطران اسبيريدون خوري متروبوليت زحلة وبعلمك وتوابعها خلالها وسام قسطنطين المعظم من رتبة ضابط أكبر ، وكانت أول سيدة تمنح هذا الوسام في العالم ، وألقى الشاعر القروي قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

خلقت لكل محمداً مجالاً ففضلك ليس يُحصَر في مجالٍ

فكم ألفت من سفر مفيد
وكم تركت يمينك في الملاحي
وكم فندت في التاريخ زعماً
فلسطينية وكفاك فخراً
فما رد الوسام إليك بعض -
ولو ذكروا الذي لك من أيادٍ
ولكننا رأينا الشكر فرضاً
لن قدروك يا أخت الرجال
والذي قدمت من أدب ومال
وأدميت العدو بلا قتال
وأعز آل
وعدت تشتكي حسر الشمال
واديوان من السحر الحلال
غنيت بهن عن ألف احتفال

* * *

هذه هي السيدة أسمى طوبى التي ملأت دنيانا بعطاءاتها ، ثم رحلت بصمت
قبل أن تكتحل عينها برؤية علم فلسطين يرفرف في الناصرة وعكا اللتين رعتا
طفولتها وفتوتها وشبابها ، فلسطين التي قالت فيها : « كل ذرة من ذرات جسدي هي
من ترابها ، وكل ذرة من ترابها هي من جسدي ، يوم جبل الطين فتساقطت منه
بقايا» .

* * *

ألكسندرة الخوري (أفرسيوه)

١٩٢٧-١٨٧٢

ولدت الكسندرة قسطنطين نعمة الله الخوري في بيروت عام ١٨٧٢ ، وتلقت علومها في مدرسة راهبات المحبة ، والمدرسة الأميركية . قدمت إلى الاسكندرية وهي في العاشرة من عمرها ، فدخلت مدرسة الراهبات ، وأتقنت اللغتين الفرنسية والايطالية ، غير أن حب الوطن غلب عليها ، فلم تهمل لغة بلادها ، لذلك جاءت بمعلم يعلمها آداب العرب ، ويطلعها على آثارهم وأسرار فصاحتهم ، ويقوّي عندها ملكة النظم والنثر حتى برعت فيهما ، وأجادتها إجادة تامة .

ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها ، تزوجت من نبيل أجنبي هو ملتيادي ده افرينو ، فأفسح لها مجال الانطلاق في دنيا الأدب ، ولم يشغلها الزواج وانجاب الأولاد عن طلب العلم ، ولا ألهاها عن الأدب ، فانكبت على المطالعة ونظم الشعر الذي ورثته عن والدها وأولعت به صغيرة ، حتى إنها قالته وهي في الثالثة عشرة من عمرها .

أحبت أن تدخل عالم الصحافة ، ولا سيما حين رأت المرأة العربية تتخبط في ظلام الجهل والأسر والعبودية ، فأنشأت في ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٩٨ مجلة «أنيس الجليس» التي عاشت عشر سنوات ، ونالت من الصيت البعيد والسمعة الحسنة ما لم تنله مجلة نسائية سواها قبل ذلك العهد ، كما أنشأت إلى جانبها مجلة «لوتوس» بالفرنسية ، وقد اتخذت من مجلتها المذكورتين منبراً حراً للدفاع عن المرأة العربية ، فراحت تناضل لتسترد حقوقها ، ولم يكن انتشار مجلتها «أنيس الجليس» بين النساء بأقل منه بين الرجال ، فأقبل الأدباء والأديبات على اقتنائها وقراءتها والكتابة فيها ، حتى احتلت مرتبة عالية لم تحتلها أية مجلة أخرى ، كما عرفت الصحف الأجنبية قَدْرها ، فراحت تتسابق إلى نشر صور أغلفتها ، كمجلة المجلات الفرنسية ومجلة «كران موندو» الايطالية ، ومجلة «مدام» الانكليزية ، ومجلة «فيمينيا» ، ومجلة «آرتي» عدا مجلات أميركا ومصر وسورية .

كذلك لعبت دوراً كبيراً في دفع بنات عصرها إلى دخول المدارس ، ونالت مقاماً رفيعاً في عالم الأدب ، ولقيت حظوة من السلطات الحاكمة ، فلما التأمّت جمعية السلم العام سنة ١٩٠٠ في باريس ، انتدبت لتمثيل سيدات مصر فيها ، وكانت الأميرة الايطالية «فيزينوسكا» رئيسة تلك الجمعية ، فتعرفت الكسندرة عليها ، وحظيت بصداقتها ومحبتها وثقتها ، ولما لم يكن للأميرة أولاد يرثون عنها لقبها

الشريف ، فقد أعلنت في وصيتها الأخيرة عن رغبتها في أن ينتقل لقب الامارة بعد وفاتها إلى السيدة ألكسندرة ، مع الحق بتسلسل هذا اللقب في أسرتها بعد وفاتها . كانت مولعة بالسياسة وشؤونها ، وقد كتبت مقالات رنانة في جريدة «المؤيد» وغيرها تشهد لها بأفكارها الصائبة ، وخدماتها الوطنية والسياسية ، ومن شدة ولعها بالسياسة أنشأت جريدة «إقدام» لتخدم بها الوطن ، إلا أنها ألغتها لما عانته فيها من الخسارة والتعب ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى دعت النساء الوطنيات لمساعدة الجرحى فاستجيبت دعوتها .

ولصاحبة «أنيس الجليس» آثار أدبية أخرى ، فقد ترجمت رواية «شقاء الأمهات» ، وألفت مسرحية «أمانة الشعب» في خمسة فصول ، لكنها لم تطبع ، كما نظمت القصائد البديعة وطبعت على نفقتها ديوان الشيخ نجيب الحداد ومراثيه اعترافاً بفضلها على مجلتها التي كان هو وأخوه الشيخ أمين محرران فيها ، وديوان شعر «النحلة» للدكتور لويس صابونجي صاحب مجلة «النحلة» وكتاباً للسيدة عفيفة أظن .

قال عنها الكاتب الدمشقي سليم عنحوري في العدد الأول من مجلته «الشتاء» : إنها المرأة العربية الوحيدة التي أقدمت على أفضل مشروع أدبي علمي ، ونهضت بأعبائه خير نهوض ، وثبتت فيه أعواماً عديدة مهمة عالية ، عادت عليها وعلى بنات جنسها بالفائدة والنفع ، بينما نرى أترابها يصرفن الأيام جزافاً أمام المرأة ، وهن يحسبن سفر المرأة عيباً ، وارتزاقها بمهنة شريفة ذلاً ، وقيامها بمشروعات خطيرة كالصحافة والخطابة والتأليف عاراً .

لم يصف الدهر للسيدة ألكسندرة الخوري ده أفرينو فيز ينوسكا زمناً طويلاً ، إذ منيت بخسائر مادية فادحة ، فهاجر أولادها إلى بريطانيا طلباً للرزق ، ثم تبعتهم بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى أن توفيت في لندن عام ١٩٢٧ عن خمسة وخمسين عاماً .

* * *

لقد فتحت ألكسندرة منزلها في الاسكندرية لاستقبال الأدباء والشعراء والصحفيين ، وكان من أشهر رواد صالونها الأدبي الشاعر اسماعيل صبري - الذي كان أيضاً في طليعة رواد صالون مي زيادة - فقد أمضى هذا الشاعر عشر سنوات

محافظاً لاسكندرية ، ورئيساً لمحكمتها الأهلية ، فلنسمعه يخاطبها مشيراً إلى
صالونها أو ناديها بقوله :

إن للفضل رونقاً وجمالاً بهرا الحاضرين في ناديك
قد تفرّدت في الأنام برأي غضّ من صوتٍ معشرٍ جادلوك
انظمي الدرّياسمية اسكندر لأفضّ عقدهُ من فيك
وانثريه فالدر درّ وإن لم يدخره تجارهُ من سلوك .

ويتغزل بها فيرسل إليها قصيدة عاطفية رقيقة يقول فيها :

يا ربةَ الفضلِ يا فخر النساءِ وهل ترضين إن قلت بل يا طلعة الفجر
يا أم اسكندرِ بل يا سميتهُ تيهي على دولة الأقلام وافتخري
هلا نظمت لنا شيئاً نقرُّ به من ذلك الشعر بل من تلکم الدرر
هلا كتبت لأرباب النهى جملاً تسير كالمثل الساري مدى الدهر
هل البدائع إلا ما جلوت لنا من نفثة السحر أو من نفثة السحر

وإذا غاب عن صالونها هذا أرسل لها هذين البيتين :

بالله يمّم يا نسيم الصّبا بمصرَ عني دارَ اسكندرة
وحياها بين المها إن بدت في سرها مقبلةً مدبرة

جلیلة رضا

(١٩١٧-٩)

هي شاعرة مصرية ، ولدت في الاسكندرية عام ١٩١٧ ، وتلقت دروسها في المدارس الفرنسية ، وقرأت الشعر الفرنسي ، وحفظت منه قصائد كثيرة . بدأت حياتها بنظم الزجل قبل أن تدرس اللغة العربية ، ثم مالت إلى مطالعة الشعر العربي في الكتب والمجلات والدواوين حتى استقامت ملكتها الشعرية وتمكنت من النظم ، لكنها لم تكمل دراستها ، وكانت تقيم في حي «شبرا» بالقاهرة ، غير بعيد عن عيادة الشاعر الدكتور ابراهيم ناجي الذي أعجب بها وشجعها على مواصلة الكتابة ، واعتزبها حتى سماها «ناجي الصغير» .

كتبت الشعر الوجداني والوطني والقومي والاجتماعي ، وهي شاعرة مطبوعة ، ترسل قصائدها على سجيته دون تكلف أو تصنع ، وتصور ما يدور في فكرها ، وما يجيش في نفسها بأسلوب عفوي واضح وسهل .

يغلب على شعرها النجوى والشكوى والحنين إلى الماضي ، والتغني بالأمل ، واللهفة على الحبيب ، وتبدي حيرتها من أمر الحياة ، وتفكر في سر الوجود ، وتحاول اكتناه الغامض فيه ، كما في قصيدتها «يا حبيبي» التي تقول فيها :

من أنا ؟ من أنت ؟ ما هذي الحياه ؟ ما هي الدنيا وما سر البقاء ؟
كرة حيرى بأطراف الإله أم دمي يلهو بها كيف يشاء ؟
ربما نحن خيالات تجوب في الدجى تستاف أنفاس الورود
في الربى . . حتى إذا حان الغروب لست أدري أين نمضي أو نعود .

كما تعبر في شعرها عن اللوعة الباكية ، والحسرة الأليمة ، والظما الشديد إلى العطف والحنان منذ الصغر ، لأنها عاشت محرومة منها .

* * *

أصدرت جليلة رضا ثلاثة دواوين هي : «اللحن الباكي» و«اللحن الشائر» و«الأجنحة البيضاء» عام ١٩٥٩ ، وقد أثبتت في هذه الدواوين كلها أنها شاعرة وجدانية جريئة ، استطاعت التعبير عن حالاتها الوجدانية وأشواقها وبدواتها في حرية وانطلاق ، كما في قصيدتها «وسأمضي» التي تقول فيها :

وسأرقص للفجر الساري

للطل على بدني العاري

وأمرّ على الشط المغربي

وأعانق أمواج البحر
وسأرقص فوق سواعده
وسأرقص فوق وسائده
والموجة في رقصي سكرى
تغمرها العريضة الكبرى
لن أخشى أهوال مكاني
فالبحر له شط ثانٍ

وحق لها أن تمضي متحررة طليقة ، فقد عاشت ولم تجد في طفولتها الحنان ، ولا في شبابها الإنسان الذي يفهمها ، وضافت ذرعاً بالبيشة المتحجرة التي لا تقدر عواطف المرأة وإنسانيتها وسموها على الرجل في انفعالاتها النبيلة : الحنان ، والمحبة والايان بالمثل العليا .

شعر جليلة رضا مرآة صافية عكست كل ما لاقته في صباها وشبابها من غصص وآلام وعذاب وحرمان وإحباط وسيطرة الأخ والزوج ، فانطوت على نفسها ، وراحت تصعد آهاتها الحزرى شعراً ينضح الأسى والحزن :

لاتلمي ، عشت كالقطة في أمسي ضريه
رهن حكم الأخ والزوج وأوضاعي أسيره
لم أذق من عطف أمي أو حنان الأب نهله
لم أكن أدرك إلا أنني روح ممله
سثم الناس دجاها ومآسيها المريه

لقد قادها ظلم المجتمع وتجهم وجه الحياة ، وفقدان العطف والحنان ، وتنكر الأصدقاء والخلان ، إلى الانطواء على الذات ، واللجوء إلى الكتب تغرق روحها في أعماقها ، لا سفير لها سوى الليل الخالك ، والصمت الأخرس ، والأشباح الهائمة و . . . الشعر :

وانطويت الأمس ، لاخل لنفسي غير نفسي
من صميم الذات أستوحي ومن عقلي وحسي
كل ركن من وباء الناس ، من جسمي محصن
وباعماق كتابي أغرق الروح وأذفن
والدجى والصمت والأشباح نخلاني ويأسي .

لم تلجأ إطلاقاً إلى تزوير مشاعرها وتكذيب أحاسيسها ، بل كانت واقعية ، أمينة مع نفسها ، ولم تحاول أن تختفي وراء أستار الخجل ، أو تنافق ، ومن هنا كان منبع الصدق في غزلها . فلنسمعها تخاطب حبيبها بمنتهى الصراحة قائلة :

حتى إذا احترقت عيونك مهجتي أيقنت أنك رغم أنفي سيدي
لم أدر ماذا قلت أو قال الهوى لكن لمست حنان كفك في يدي
قد تعجز النجوى ورب إشارة جذبت عنيداً للهوى المتوقد
وحين لم تجد الشاعرة تجاوباً في قلوب البشر ، اتجهت بأنظارها إلى الله العلي ، الكلي القدرة ، الواسع الحب والرحمة ، الكامل الصفات ، لتبثه شكواها ونجواها ، محاولة أن تمتزج بذاته على طريقة الصوفيين وتحترق في نار حبه ، فحبه أوسع وأشمل وأكبر من كل حب آخر يعرفه البشر :

يارب إنك سيدي لك تنحني كل الجباه
عرفتك روعي في الضياء وفي الجمال وفي شذاه
عرفتك رباً كاملاً فوق الكمال وما علاه
يارب إنك نبضة هي وحدها قلب الحياه
فلأمتزج بك مثل قلب نابض تسري دماه
لاكن هسيماً محرقاً من نار حبك من لظاه
لاكن كعشب غارق وسط البحيرة في المياه
تغنيه كثرة مائه ، ويميتني حب الإله

* * *

ولم تقف الشاعرة في شعرها عند التعبير عن مشاعرها الذاتية ، ولكنها عبرت كذلك عن مشاعر الناس ووجداناتهم ، كما قرنت هذه المشاعر بحبها المطلق لله ، وتصف روحها وتشق فتقرن هذه المشاعر بحبها للإنسانية وللطير المسكين - كما يقول الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي - وآية ذلك قصيدتها «الدجاجة» ، وهي تربط شعورها الأليم بالشعور الانساني المرفه في هذه القصيدة التي تقول فيها :

ويروح يذبحها وفي كفيه عزم لا يلين
فترفر المسكينة اللهي وتهمد في سكون
رحماك يا ربي وأنت لنا الرحيم الأكبر
رحماك ! هل هذي الدجاجة حين تذبح تشعر

عفواً ، فكم سألتك نفسي في عناد حائر
ما سر حكمتك الرهيبة في عذاب الطائر
أيقنت أن لكل فرد في الوجود هنا نهايه
أيقنت ! أو من أنه في كل ما سددت غايه .

لم يصفُ الدهر لجليلة رضا ، فقد تزوجت ثلاث مرات . كان زوجها الأول
قاضياً ، رزقت منه ولداً متخلفاً عقلياً وابنة ، ثم انفصلت عنه وتزوجت الشاعر
عبد الله شمس الدين ، لكنها تركته حين عرفت أنه متزوج وله عدد من الأولاد ،
وأخيراً تزوجت الصحفي محمد السوادي الذي توفي منذ سنوات .

جھیلۃ العلایلی

(۱۹۹۱ - ۱۹۶۱)

ولدت في مدينة «المنصورة» بمصر ، حيث يرسم النيل أجمل صوره الساحرة ، وأحبت الأدب منذ مطلع شبابها ، وأعانها على ذلك طبيعة شاعرة ، وبيئة علم وثقافة .

التهمت في سن مبكرة كل ما وقع في يديها من الانتاج الأدبي ، وبدأت تكتب منذ منتصف العشرينات من هذا القرن ، ففي عام ١٩٢٦ أصدرت أول كتاب لها ، وحين أتاحت لها فرصة الانتقال إلى القاهرة ، اندمجت في البيئات الأدبية ، وارتادت المحافل الفكرية ، وقد ربطتها صداقات أدبية متينة مع كبار الأدباء ، وكانت من رواد «جماعة أبوللو» التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبوشادي ، ومن الشاعرات اللواتي اعترهن ، وقد عهد إليها بالإشراف على مجلة «الأمم» عام ١٩٣٨ .

نشرت عددا من قصائدها في مجلات : أبوللو ، والرسالة ، والأديب ، ولع اسمها وهي فتاة لم تبلغ العشرين ، وكانت من صديقات مي زيادة ، والمعجبات بالسيدة هدى شعراوي ، ومصطفى صادق الرافعي .

أصدرت بالاشتراك مع زوجها السيد ندا مجلة «الأهداف» التي استمرت تصدر أكثر من عشرين عاماً ، ومارست النقد الأدبي وكتابة القصة القصيرة والرواية ، لكن الشعر بقي عندها اللون المفضل ، تهيم به ، وتهفو إليه للتعبير عن عواطفها وخوارج نفسها ، وهي بالاضافة لذلك فنانة صادقة الحس ، رقيقة الشعور ، تعيش كل لحظة من حياتها ، وتسجل كل لحظة من وجودها .

* * *

عملت في مطلع حياتها مدرّسة ، إلى أن انتدبت عام ١٩٤٢ مديرة لمكتب المساعدات الاجتماعية في وزارة الشؤون الاجتماعية ، ثم اعتزلت الوظيفة ، وتفرغت للعمل الصحفي والشعر ، وقد اشتركت في عدة جمعيات أدبية بعد جماعة أبوللو ، مثل «جامعة أدباء العروبة» و«مجمع الأدب العربي» الذي انتخبت رئيسة له .

أحبت السياحة والرحلات فزارت سورية ولبنان وفلسطين ، وبعض الأقطار الأخرى ، وكان لها من هذه الرحلات زاد نفسي وثقافي كبير .

أصدرت عدة دواوين منها : «صدي أحلامي» و«كلام الله» و«أوبريت فلسطين» و«في طريق العودة» و«صدي إيماني» و«نبضات شاعرة» ومجموعة من الروايات منها :

«الطائر الخائر» و«هندية» و«أمني» و«الراهبة» و«الراعية» و«جاسوسة صهيون» و«أنا وولدي» و«من أجل الله» . . . وكان لها صالون أدبي يؤمه عدد من الأدباء والمثقفين في مصر .

اقتحمت السيدة جميلة العلايلي شعر الوجدان بشجاعة وصدق وإخلاص دون أن تستطيع التحرر كلياً من ربة التقاليد العاتية ، كما تحررت بعدها الشاعرتان فدوى طوقان ونازك الملائكة ، لأنها ولدت في أسرة متدينة محافظة على التقاليد أرادت أن تعدها لإتقان شؤون المنزل ، وخلال دراستها الابتدائية مرض خالها ، بعد وفاة والدها ، فألزمها بمطالعة الصحف له ، وكان يحرص على مطالعة جريدة «الأهرام» فاسترعت انتباهها مقالات الأدبية مي زيادة ، فأخذت تطلعها بنهم وشوق ، وتستعين بخالها على فهم ما يصعب عليها من كتاباتها ، وهكذا اندفعت دون وعي إلى تصوير ما يحيط بها ، ويحدث لها في المدرسة والبيت ، وقد شجعها بعض أساتذتها على مواصلة الكتابة ، في حين نقدتها بعضهم الآخر ، معتبرين جرأتها غير مشروعة ، وفي طليعتهم خالتها التي كانت تدرسها في المدرسة وتقيم معها في المنزل ، وكثيراً ما أروحت إلى أمها بإهانتها وإيذائها لأنها «تكتب عن الشروق والغروب وتهويم الفراش حول الزهرة وإغراء الضوء له ، ووصف أخلاق إحدى المدرسات وعلاقة أخلاقها بجهاها أو دمايتها» .

ورغم محاولة الأسرة إيقاف تيار أخيلتها وكتاباتها ، وإرغامها على دراسة التدبير المنزلي البعيد كل البعد عن الأدب والشعر ، فقد كانت تكتب خفية عن الأنظار ، بعد أن تختبئ في أي مكان !

تعلقت خلال دراستها بأدب مي زيادة ، إلى أن دعاها الشاعر الدكتور أحمد زكي أبو شادي إلى نشر أدبها وشعرها في مجلة «أبوللو» ، وكانت هذه الدعوة بدء انطلاقها الشعري ، وقد تخطت ظروف بيتها القاسية ، وكتبت الشعر على استحياء ، وكثيراً ما كانت تلجأ إلى وأد عواطفها المتأججة ، لأنه كان محرماً على المرأة في الثلاثينيات أن تبوح بعواطفها ، وتسترسل في بث مشاعرها وتعبر عن معاناتها . . . وإذا ثارت العواطف في نفسها ، وشاءت أن تنمرد ، نسبت تلك التجربة إلى غيرها ، لتبعد عنها شبهة الحب المحرم ، كان التعبير عن الحب والبوح بالعواطف الانشوية إثم أي إثم . تقول في حبيبها :

في عالم الخلد الجميل رأيت
بتنا كروح واحد متلاصق
وسرحت ثمة في نعيم جنانه
وتأود الطيف الجميل بأذرع
قد ظل يرشف من رحيق غرامه
كالوحي يسطع في غريب ظلام
فعرفت ظهر تلاحق الأجسام
ورشفت من فيه رحيق غرامي
فرجمته من حرقتي وضرامي
وظللت أرشف من رحيق غرامي

* * *

يمتاز شعر جميلة العلايلي بالركة والسهولة ، وصدق العاطفة ، والنزوع إلى الحرية والانطلاق ، والتأثر بالطبيعة والامتزاج بها ، وهي بذلك تذكرنا بالشاعر أبي القاسم الشابي - أحد أبرز شعراء جماعة أبوللو - وشعراء المهجر الشبالي كقولها :

وحدي وقفت على الروى كالطير في الليل البهيم
عشق الجهال فهم في الدنيا بأصداء النعيم
كم راح يخفق في الفضاء كأنه ملك الفضاء
وعلى الغصون الحالمات تراه يحلم في رجاء
كم راح في عشق الليالي هائماً بين الروى
يشدو بانغام المحبة والسعادة والمنى
يشدو وحيداً في ليالي الصيف باللحن الجميل
فإذا الوجود وما به مصغٍ إليه في ذهول .

وفي قصيدتها «لحن» صرخة مدوية من الشكوى والنحيب والأنين والكتابة والاحترق ، وإشراك الطبيعة بما تعاني من آلام وأوجاع مبرحة ، وتبرم بالحياة التي تدفعنا إلى الكفاح المضني ، في حين يجب علينا أن نحياها بامتلاء ، لأنها ماضية كالأحلام :

هلا سمعت لقلبي وهو ينتحب
فيه الأنين صده صوت محترق
ندري العواطف تحيا في مشاعرنا
والطير روق لحالينا فأسمعنا
والنهر يحمل منا ما يسيل به
ما للحياة غدت يا خيل تدفعنا
هذا هو اللحن ما غنى به الأدب
فيه ابتسامه ثغر وهو مكتتب
وتلك عند سوانا كلها صخب
شدوا وشعراً به الأرواح تلتهب
في الشاطئين كأمواج بهالهب
إلى كفاح به الأمواج تصطخب

تلك الحياة كأحلام نزاولها والعمر يجري ودنيا العيش تضطرب
وتترحم في إحدى قصائدها على الشهيد الذي حمل روحه على راحته ، وسار إلى
غايته ليحقق أمنيته الغالية ، ألا وهي الشهادة في سبيل الوطن وتحقيق النصر ،
وكيف أنه أمضى زهرة شبابه وحياته القصيرة في النضال والحرمان لينال الخلود ،
ويظفر بالذكر الطيب في النهاية :

وارحمنا لشهيد بات مكرمة أفنى الليالي نضالاً ثم حرماناً
الله يعلم كم نسري بلوعتنا نبكي الشهيد بدمع بات هتاناً
حسب الشهيد بنصر قد أتاح له ذكرى الخلود فبات اليوم رياناً
توفيت جميلة العلايلي في ١١ نيسان سنة ١٩٩١ بعدما أقعدها المرض طويلاً .

* * *

جهان غزاوي عووني

(۱۹۰۶ - ۱۹۱۶)

ولدت الأدبية جهان غزاوي عوني في طرابلس لبنان سنة ١٩١٦ ، وظهر ميلها إلى الكتابة والأدب في سن مبكرة ، إذ كانت تسجل انطباعاتها وخواطرها ومشاهداتها في الحياة ، وتضعها في قالب قصة قصيرة أو مقال .

درست في معهد الطليان بطرابلس ، لكنها اضطرت إلى ترك الدراسة قبل الأوان بسبب وفاة والدتها ، لتُعنى بأمور المنزل ، وتدير شؤون الأسرة التي أصبحت بلا أم ، وماتت في أيلول سنة ١٩٥٦ .

عملت في تدريس اللغة العربية في مدارس طرابلس الرسمية عشر سنوات ، أي منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاتها . لم تطبع في حياتها القصيرة أي كتاب ، رغم أنها نشرت عشرات المقالات القيمة والقصص الجيدة في مجلات «صوت المرأة» و«الرسالة» و«الأديب» و«الآداب» ، وأنجزت قسماً كبيراً من روايتها «الجوهرة الدفينة» ومن دراستها الواسعة عن مي زيادة بعنوان «مي النابغة» فقد أحببت هذه الأدبية من كل قلبها ، وراحت تحصي وتجمع كل ما كتبت أو كتبت عنها في الصحف والمجلات ، وتنبى للرد على كل من ينتقدها ، ولا سيما بعد محنتها الأخيرة ، وادخالها مستشفى العصفورية ، إلا أنها توفيت قبل أن تظهر هذه الدراسة إلى النور .

جرت بينها وبين الأدبية إملي فارس ابراهيم مناقشة واسعة على صفحات ملحق جريدة «التلغراف» الأدبي حول كتاب مي «المساواة» فقد اتهمت إملي مياً بأنها لم تنته في كتابها هذا إلى نتيجة واضحة حاسمة ، فتصدت لها جهان قائلة : «لتقل إنها لم تنته إلى نتيجة ترضيها هي ، وتوافق عليها هي ، وهذا العمري ليس من شروط النقد في شيء . . .» .

وتقول في رسالة بعثت بها إلى الأدبية سميرة عزام في السادس من حزيران عام ١٩٥٥ ، وخصصتها تقريبا للحديث عن مي زيادة : «إن دراستي لمي ترجع إلى سنوات خمس ، جمعت فيها كتبها الأربعة عشر مع مجلدات عدة لمجلات الهلال والمقتطف والرسالة والمرأة الجديدة ، وما قيل عنها وفيها أثناء زيارتها لبنان سنة ١٩٢٢ ، وما قيل عنها أيضاً خلال نكبتها ، يوم حجر عليها ، وما قيل عنها وفيها بعد موتها المبكر» .

«أما رسائلها لجران التي كانت في متحف «بشري» فلم يسبقني إليها إلا الأديب

حليم كنعان ، لكن بقية رسائل مي وجبران فما تزال محفوظة عندي ، مع صورة جميلة لمي في طفولتها ، وكذلك بضع بطاقات أرسلتها مي لجبران في بعض الأعياد ، تتجلى فيها نفسها الكبيرة ، وفلسفتها في الحياة ، ورأيها في فن جبران .

وتدافع جهان عن مي فيما يتعلق بكتبها وطفولتها اليائسة وشذوذها ، وانها لم تفتح قلبها للحب فتقول : «أما تلك الطفرة اليائسة ، وأما ذلك الكبت المضي ، فلم ألمح لهما أثراً في كل ما كتبت مي . . . لقد قال فريق بشذوذها ، واتهمها بأنها لم تحب أحداً حتى ولا جبران» .

«وقال فريق آخر انها مسترجلة أتقنت كل شيء إلا أنها لم تفتح قلبها للحب ، وقال فريق إن سبب جنونها المباشر هو أن أحد أقربائها سرق منها رسائل جبران ، وقيل وقيل . . . كل هذا ولم يكلف أحدهم نفسه عناء درسها من خلال أديها» .

قلت إن جهان غزاوي عوني كتبت في مجلة «صوت المرأة» اللبنانية عدة قصص ومقالات ، يوم كانت رئيسة تحريرها صديقتها الحميمة السيدة ادفيك جريديني شيبوب ، وقد عثرت في مجلدها لعام ١٩٥٢ على ثلاث قصص هي «هبة القدر» و«سعاد» و«العوبة الحياة» ، وعلى مقالين من النثر الفني الرفيع هما «صلاة» و«في ذكرى ملك حفني ناصف ومي» . تقول في مقالها عن مي : « . . . وكانت مي بحراً زاحراً يعب من الأنهار التي تتدفق فيه ، ولا يكاد يرتوي ويهيج ويموج بتأثير الأنواء المتلاطمة . ولكن عندما تدنو أمواجه من الشاطئ ، تدنومتأنية خفيفة فلا تكاد تلمس الرمال السمراء حتى تتراجع ململمة ذيولها خشية أن يكون قد علق فيها من الرمال ما يشوب بياضها . . . وهي إلى ذلك ما تفتأ تعيد الكرة مرة ومرة لتبلغ ما تريد من إصلاح المرأة والنظم والكون» .

وتتجلى في قصصها روح الأمومة الصادقة ، والعطف على الفقراء والمعذبين والمحرومين ، وعلى تلك المخلوقات الصغيرة الضعيفة التي لم تستطع أن تشق طريقها في الحياة بعد ، تقول في قصة هبة القدر : «أوه . . . ان ذلك الصوت شبيه بصراخ الاستجابة أو التوسل ، وقد تكون هذه الهرة صغيرة أضاعت في الليل الموحش أمها . . . وقد تكون خائفة جزعة ، أو جائعة تطلب أو . . .» .

أما قصتها «سعاد» التي أهدتها إلى صديقتها ادفيك شيبوب ، فتحدث فيها عن طالبة فقيرة معدمة اسمها سعاد ، كانت احدى تلميذاتها في المدرسة ، وعبثا حاولت

أن تدعها تحمل معها دفتر الإملاء ، رغم تهديدها إياها بالصفير ، لأن والدها لم يكن يملك ثمن هذا الدفتر ، فهو بائع ترمس متجول . وبينما كانت المعلمة تسير في أحد الأزقة الفقيرة الضيقة ، رأت كهلاً يدفع أمامه عربة تحمل شيئاً من الترمس ، وحوله ابنة صغيرة ، فعرفت أنها تلميذتها الفقيرة النجيبة ، وأن بائع الترمس ما هو إلا والدها ، فعرفت به ، وبعد قليل حضرت أمها التي أصرت أن تأخذها إلى بيتها لترتاح قليلاً ، وترى بيتها البسيط المتواضع ، وأولادها السبعة الذين تتقاذفهم أكف البؤس والحرمان .

في أسلوب جهان غزاوي شفاوية ورشاقة ، وفي لغتها سلاسة وعدوبة ، وميل إلى التصوير بالكلمات الشعرية التي تعرف كيف تنتقيها بأناقة ، وذوق رفيع ، وطبع سليم ، كقولها في مطلع قصتها «هبة القدر» : «أخذ الأفق يتنفس رويدارويدا ، فران على الكون سكون موحش ، شبيه بسكون الموت ، عندما يلامس الجفون التعبة» .

ولا نراها تتخلى عن هذا الأسلوب الشعري في كل ما تكتب لأنه أبرز سمة تميز كتابتها . تقول تحت عنوان «صلاة» . . . مناجية طيفه الغائب : «وكالسراب الخاطف ومضت مثلي ، واضمحلت كأنما لم تك يوماً محرابي الذي اتجهت إليه ، منذ أن فهمت ما هي الحياة» .

«إيه أيتها الأحلام الخضر التي طالما هدهدتني على ذراعيك منذ طفولتي وشبابي ، وداعاً إلى غير ما عودة ، لأنني أنكرت نفسي ونذرتها لسواي» .
لومدّ الله في أجل هذه الكاتبة الموهوبة المبدعة ، لأعطتنا الكثير مما كان مقدرًا لها أن تعطيه ، ولأغنت المكتبة العربية بمجموعة رائعة من مؤلفاتها في مجال الدراسة الأدبية والقصة القصيرة ، لكنها قصفت وهي في ريعان الشباب ، ولا نعلم ما حل بدراستها عن مي ورسائلها .

* * *

جوليا طعمة دمشقية

(١٨٨٣-١٩٥٤)

إذا استعرضنا رائدات الصحافة النسائية في الوطن العربي ، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم ، كانت السيدة جوليا طعمة دمشقية في الطليعة ، إذ تعتبر مجلتها «المرأة الجديدة» عاشر مجلة نسائية ظهرت في لبنان ، أما المجلات التي ظهرت قبلها ، وإن لم تعش طويلاً فهي :

١ - الفردوس - لوزا حبالين ١٨٩٦

٢ - الأعمال اليدوية - الأنسة فاسيلا ١٩٠٨

٣ - العالم الجديد النسائي - أنجلينا أبوشقرا ١٩٠٩

٤ - مرشد الأطفال - عفيفة كرم ١٩١٢

٥ - فتاة لبنان - سليمة أبي راشد ١٩١٤

٦ - منيرفا - ماري يني ١٩١٧

٧ - فتاة الوطن - ماري زمار ١٩١٩

٨ - الخدر - عفيفة صعب ١٩١٩

٩ - الفجر - نجلا أبي اللمع ١٩٢٠

١٠ - المرأة الجديدة - جوليا طعمة دمشقية ١٩٢١

أما أول مجلة نسائية ظهرت في الوطن العربي عامة فهي مجلة «الفتاة» لهند نوفل ، وذلك في مصر عام ١٨٩٢ ، وكانت قد هاجرت إليها من لبنان في جملة من هاجر من أعلام الصحافة ، طلباً للحرية ، كمريم مزهر صاحبة مجلة «مرأة الحساء» ، وأستير مويال صاحبة «العائلة» ، وأنيسة عطا الله صاحبة «المرأة» ، وروجينا عواد صاحبة «السعادة» ، وروز أنطون صاحبة «السيدات والبنات» ، وليبية هاشم صاحبة «فتاة الشرق» ، وملكة سعد صاحبة «الجنس اللطيف» . . .

* * *

ولدت جوليا طعمة دمشقية في قرية المختارة بلبنان عام ١٨٨٣ ، وتلقت علومها في مدرسة «الفنون» الأميركية في صيدا ، ثم انتقلت إلى «كفر شيبا» حيث أكملت دراستها الثانوية ، وأصبحت معلمة فيها بعد ، لكن ميلها الشديد إلى الصحافة كان أقوى ، فراحت تكتب المقالات وتنشرها في مجلات : «فتاة لبنان» و«الحساء» التي أسسها نصير المرأة جرجي نقولا باز عام ١٩٠٩ ، و«الفتاة» و«الفجر» . ولم تكتف باصدار مجلة المرأة الجديدة ، بل أصدرت إلى جانبها أول مجلة للأطفال هي «سمير الصغار» في أول كانون الثاني عام ١٩٢٥ ، ثم جريدة «النديم» عام ١٩٣٣ .

كذلك ألفت كتاب «مي في سورية» بمناسبة زيارة الأديبة مي زيادة لبنان وسورية عام ١٩٢٢ ومنذ ذلك الحين انعقدت بين الكاتبتين أوامر المودة والصدقة ، وراحتا تتبادلان الرسائل . . . أما المناصب الادارية التي شغلتها فهي رئاسة الاتحاد النسائي اللبناني .

تزوجت من السيد بدر دمشقية ، متخطية بذلك الشكليات الدينية والمذهبية وظلت تكافح من أجل رفع مستوى المرأة العربية ، إلى أن أصيبت بمرض عضال عام ١٩٣٤ أقعدها في الفراش عشرين عاماً حتى توفيت في بيروت سنة ١٩٥٤ عن واحد وسبعين عاماً .

مجلة المرأة الجديدة

لا أظن أن مجلة نسائية عربية صدرت قبل المرأة الجديدة أو بعدها استطاعت أن تضاهيها أو تكون في مستواها إخراجاً وشكلاً ومضموناً ، ويكفي أن نلقي نظرة على أبوابها الدائمة لنذكر مدى رقي هذه المجلة الفريدة التي بذلت صاحبها وقتها وجهدها في سبيلها ، حتى غدت في طليعة المجلات النسائية العربية ، فقرظها عشرات الكتاب والصحفيين كأحمد خليل داغر ، وجبران التويني ، وبولس الخسولي ، وفيليب حتي ، وحليم دموس ، وبدوي الجبل ، وجميل صدقي الزهاوي ، وسليم سرقيس ، وجبر ضومط ، ونقولا فياض ، وداود قربان ، ونعوم لبكي ، ونجيب مشرق ، ومحيي الدين النصولي ، مشيدين بمكانتها ، مقدرين فضلها وقيمتها ، أما أبوابها الدائمة فهي :

١ - مقال افتتاحي بعنوان «إلى ابنة بلادي» تحرره جوليا نفسها كل شهر ٢ - اللطائف الشعرية ٣ - العائلات في النهضة النسائية ٤ - البيت ٥ - أعمال النساء ٦ - أشغال يدوية ٧ - العلم والفن ٨ - الصحة والجمال ٩ - حكاية الشهر ١٠ - رسائل ١١ - عالم الأدب ١٢ - كل شيء ١٣ - حفظ الصحة والطب المنزلي ١٤ - أعظم الأشياء وأغربها ١٥ - مرآة الكون ١٦ - الأعمال الخالدة وأصحابها ١٧ - الفنون الجميلة ١٨ - حوادث وأخبار ، ثم أضافت إليها في مطلع السنة الخامسة ١٩٢٥ بايين جديدين هما : أسئلة الطفل والأجوبة عليها ، وتفسير الأحلام . أما باب سمير الصغار فقد

فصلته عن المجلة وجعلته مستقلاً في ست عشرة صفحة : يُهدى شهرياً إلى مشتركى
المجلة مع أجزائها دون زيادة في قيمة الاشتراك .

كانت غايتها من فصل باب سمير الصغار وجعله مجلة صغيرة تمكين الوالدين من
تسليم الطفل مجلته بقطع يتفق مع ذوقه وسنه ، وتعويده روح الاستقلال ، وحفظ
أعداد المجلة نظيفة لأجل التجليد ، وتسهيل الاشتراك في سمير الصغار لمن يرغب
من طلاب المدارس ، فلا يضطر إلى دفع بدل اشتراك المجلة بكامله .

تضمنت مجلة «سمير الصغار» فوائد وطرائف وأسئلة وحكايات وألعاباً مفيدة
تساعد على تهذيب الطفل وانماء مداركه وتسلية ، وتقويم أخلاقه .

كانت مجلة المرأة الجديدة من أشهر وأرقى المجلات النسائية عامة ، تصدر
بانتظام في مطلع كل شهر على مدار السنة ، وتحوي من الأبحاث ما يفيد ويمتدح
الكاتب والأديب ، والشاعر ، والتاجر ، والطالب ، والطالبة ، وربة المنزل ،
والفتاة ، والصغار ، بالإضافة إلى أخبار العالم والاختراعات ، وكل ذلك في ثمان
وأربعين صفحة من القطع الكبير .

لقد كانت الافتتاحيات التي تكتبها بعنوان «إلى ابنة بلادي» دروساً قيمة في أصول
الأخلاق والتربية والتقويم والارشاد ، فلنسمعها تقول في افتتاحية عدد أيار سنة
١٩٢٢ تحت عنوان «الجمال والمال» «سيدتي ، إني أغبطك على جمالك الطبيعي لأنه
هبة إلهية لا يتمكن أمهر المتفننين من البشر أن يأتوا بمثله ، وإذا استطاعوا تقليده فلا
يستطيعون أن يجعلوه دائماً . لماذا ؟ لأن الجمال الحقيقي لا يأتي من الخارج بل من
الداخل ، الجمال الخارجي مهما بلغ من البهرجة ومظاهر الثبات فانه زائل ، وإذا
كان مجلوباً بمساحيق معدنية ترك أثراً يضر بالبشرة ضرراً بليغاً» .

«أما الجمال الحقيقي فمصدره الدم ، وهذا يتخذ قوامه من الغذاء والرياضة
والشمس والهواء ، ومتى صح الدم ، توردت الخدود ، ولمعت البشرة ، فصارت
وضاءة حسنة» .

وقالت في رسالة بعثت بها إلى مي زيادة : « . . . نعم لقد قرأت لك كتابات
كثيرة ، ولكنني أظنها صادرة لا من جسد بل من روح تحوم في فضاء مصر لا قرار لها
لتهبط فيه ، ولا هيكل لتأوي إليه وعلى هذا بقيت عندي روحاً مجردة من كل شيء
مادي ، ولا أصدق وجود فتاة حقيقية باسم مي . . . أراك مثلاً لأعمالنا وجهادنا في
سبيل النهضة النسائية في سورية ، وأنا على يقين تام أن ليس من سيده أخرى تحدم

هذه النهضة الأدبية المنشودة بقدر ما نخدمينها أنت في كتاباتك السامية المؤثرة . . .
وعلى رغمي أختتم هذا الحديث مصافحة إياك بكل محبة وإخلاص» .
قالت عنها الأديبة اللبنانية اميلي فارس ابراهيم في كتابها «أديبات لبنانيات» :
« . . . إنها ما قطعت يوماً ذلك الخيط المتين الذي يشدها إلى أبناء وطنها ،
تغضب لكرامتهم ، وتثور لحقهم ، توجه وتقود ، آية حس ، ورائدة مجتمع تبعث
روح المثابرة على المضي في دفع القافلة إلى الأمام ، مقعدة ، كسيحة ، عيية» .

* * *

روحية القليليني

(١٩٨٠ - ١٩١٥)

ولدت الشاعرة روحية حسن القليني في الأول من آذار سنة ١٩١٥ في مدينة «دسوق» بصر ، وكان والدها شيخاً تقياً مستنيراً ، فساعدها على شق طريقها ، وأرسلها إلى مدينة «طنطا» لتتلقى تعليمها الابتدائي ، ثم إلى الاسكندرية لتتلقى تعليمها الثانوي ، وكانت ناظرتها في مدرسة الأميرة «فائزة» يومئذ السيدة نبوية موسى التي شاركت في أكبر معارك تعليم الفتيات في مصر ، وتزعمت حركة نسائية كان لها أكبر الأثر في النهضة الحديثة ، فتشربت روحية منها روح الجهاد النسائي ، ولما أنهت دراستها الثانوية انتسبت إلى جامعة القاهرة ، ونالت منها شهادة الليسانس في آداب اللغة العربية وعلومها سنة ١٩٤٢ .

سافرت بعد تخرجها إلى العراق لتعمل في حقل التعليم ، وتسلمت إدارة ثانوية الموصل للبنات ، وبعد سنتين عادت إلى القاهرة لتعمل مدرسة في المدارس الابتدائية وتمارس نشاطها النسائي بالتعاون مع السيدة درية شفيق ، وخليل صابات ، وإبراهيم عبده في مجلة «بنت النيل» .

تسلمت في عام ١٩٤٥ الإشراف على صفحة المرأة في جريدة «الجمهورية» وتعاونت معها السيدة عواطف البدرى ، وفي هذا الوقت راودتها فكرة تأسيس اتحاد الجامعات على غرار اتحاد الجامعيين الذي كانت عضواً فيه ، فتم لها ما أرادت ، وصار الحلم حقيقة ، واستأجرت له مقراً في بناية سيف الدين بشارع البرجاس .

عانت روحية القليني كثيراً من العمل الوظيفي ، واستطاعت بفضل جهودها أن تنتقل عام ١٩٥٧ من وزارة التربية إلى وزارة التعليم العالي للعمل في تحرير مجلة العلاقات الثقافية الخارجية بإدارة الوافدين ، وفي عام ١٩٦١ انتقلت نهائياً إلى وزارة الثقافة لتعمل في إدارة التفرغ ، إلى أن صارت مديرة عامة له ، وقد استطاعت من هذا الموقع أن تقدم العون لعدد من أدباء مصر ، وتخصص لهم رواتب شهرية ليتمكنوا من مواصلة العطاء مثل محمود أبو الوفا ، وجميلة العلابي وغيرهما ، وذكر لي الأديب الصديق وديع فلسطين في رسالته المؤرخة في ٢٦ / ٣ / ١٩٩٤ أنها «كانت إنسانة كريمة في جميع تصرفاتها ، وحاولت خدمة الأدباء واسعادهم بكل ما أوتيت من طاقة ، وأنها كانت شديدة البدانة تفتقر إلى أي مسحة من الجمال ، كما كانت كليلة البصر ، ولم تتزوج إلا في أواخر حياتها ، فكان زواجاً قصير العمر ، لأن زوجها توفي بعيد الزواج ، فلم تهنأ بأنوثتها كثيراً ، ولكنها برغم هذا كله كانت خفيفة الروح ، كثيرة الصداقات ، محبوبة من الجميع ، تتقبل النكته حتى لو كانت

جارحة ، وكان الشاعر صالح جودت يسميها «الشاعرة الفحلة» وكانت تحتل منه هذا المزاج بصدور حب وروح متساعمة» .

* * *

شاركت روحية في مؤتمرات الأدباء والشعراء في العراق والاسكندرية وبلغراد والسودان ، وألفت كتابها «نساء عربيات» شعوراً بواجبها نحو جهاد المرأة العربية من أجل التحرير وحقوق الإنسان ، وأكد صديقها الدكتور عبد الفتاح الديدي⁽¹⁾ أنها واظبت على عقد ندواتها في جمعية الأدباء ، وشاركت بقصائدها في مجلات : الثقافة والرسالة ، وصارت عضواً في اتحاد الكتاب ، ولجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وأصدرت عشرة دواوين منها : أنغام حاملة ، لك أنت ، همسة الروح ، حنين إلى . . . ابتهالات قلب ، عبير قلب . . . كما ألفت كتاباً عن الأخطاء الشائعة في اللغة العربية ، وصارت صديقة لعدد من رائدات الشعر في مصر ورواده أمثال : جلييلة رضا ، وجميلة العلايلي ، وملك عبد العزيز ، وحسن كامل الصيرفي ، وعامر بحيري ، والعوضي الوكيل وغيرهم . . .

نظمت روحية القلبيني الشعر الوطني والقومي ، واحترق قلبها بنار الحب والوجد ، فنظمت الشعر الغزلي الصادق والراقيق ، لكنها انكفأت في أواخر حياتها إلى الشعر الديني والصوفي الذي تتغنى فيه بالذات الالهية ، وتكثر من ذكر الجنة ، والآخرة ، والتقوى ، والاصلاح ، والخالق ، والايان ، والخلود ، والغفران ، والصلاة ، والسجود ، والعفو ، والذنوب ، والهدى . . . وقد بدا ذلك جلياً في قصائدها : خشوع ، ضراعة ، عمق الايمان ، أنا ما انحنيت لغير وجهك ، دين العزة ، دعاء الفجر ، نجوى الرسول ، سنا السبحات ، عالم الغيب ، نصر الله ، قدرة الخالق ، ذكر الاله ، صلوات ، في ديوان «لك أنت» .

* * *

استهلت الشاعرة ديوانها «لك أنت» بأربع قصائد وطنية تضيح بالحماسة والبطولة والثورة هي : رسالة من خط النار ، موعد بعد النصر ، إلى الميدان يا ولدي ، إلى ابني في المعركة .

تقول في قصيدتها «رسالة من خط النار» على لسان ابنها الرابض في جبهة القتال :
سآتي إليك حبيبة قلبي ، سآتي إليك فلا تقلقي

وصوني اللآلىء في مقلتيك وفي سبحات السنا حلقي
بلادي وأنت هما كل حبي لغيركما القلب لم يخفق
وتعتذر لحبيها الذي ظن أنها قد أخلفت الوعد ، ونسيت العهد ، وخانت الأيام
الجميلة التي أمضيها معاً ، بالأآ يعتب عليها لأنها مشغولة عنه بحب وطنها الذي
يناديا لتحمية بأهدابها ، وتصونه بمقلتيها ، وترد عنه كيد الأعداء قائلة :

أتظني يا ظالمي قد خنت أيامي الجميله
ونسيت جأحدة عبير الهمس ترويه الخميله
بالله لا تعتب علي فإنني حيرى ضليله
هو موطني الغالي ينادينني بأنات طويله
أجشو على قدميه أحميه بأهدابي الظليله
وأصونه في مقلتي وأرد عنه كل غيله
هو كل أحلامي وآمالي وأمجادي الأصيله
لا عشت يوماً بعده في ظل أيام ذليله
لأرد أمجادي إلى وطني بأعمالي الجليله

وتبلغ ذروة حماسها الوطنية ، وحميتها المتقدة ، واندفاعها القوي في قصيدتها
«إلى الميدان يا ولدي» التي تقول فيها :

إلى الميدان يا ولدي
فمن للارض يحميها
ومن يقضي على الأعداء
ومن أغلى علي هنا
سوى ولدي الذي أرجو
إلى الميدان يا ولدي
سوى الأبطال والأسد
ذؤ باناً بلا عدد
لأهديه إلى بلدي
حمى يومي وحصن غدي

* * *

أما غزلها فيمتاز بالرقه ، والعذوبه ، والعفوية ، وصدق التجربة ، وحرارة
العاطفة ، والاحساس العميق بالمعاناة ، كما في قصيدتها «عدت إليك» التي تقول
فيها :

كلما حاولت أن أهرب من بين يديك
فسرى ملء كياني ، وتحدى كالزمان
شدني في قوة نور سرى من تاظريك
وتبدي كل ضعفي وانهامي وحناني
وأراني يا حبيبي في الهوى عدتُ إليك

وتسبح في قصيدتها «عناق الأيدي» بدنيا الخيال حين تركت كفها في كفه ،
فغامت في ضباب أحلامها ، ونسيت وجودها ، وعاشت في دفء هذه الكف أجمل
اللحظات ، تنعم بندى الوصال :

وتركت كفي في يديه ورحت في دنيا الخيال
ووددت لو تبقى تبوح بما يُقال ولا يُقال
تستاف عطر يديه تشربه وتحلم بالجمال
وتعيش في دفء اليدين قريرة بندى الوصال
وتنام بين يديه حاملة بأطياف الظلال
وإذا صحت تصحو على همس صداه ما يزال .

وتتمنى من كفها أن تبقى عند حبيبها ، تشده كيما يعود إليها ، فينعش قلبها الذي
أضنته أحلام الوعود ، ويحقق بنبض الحب من جديد :

يا ليتها تبقى لديه تشده كيما يعود
ليعود للقلب الذي أضنته أحلام الوعود
ليعود خفق الحب في لهف إلى قلب الوجود
أنا مذكر أيتك يا حبيب القلب أحيانا من جديد
ونسيت كل الناس إلا أنت يا أملي الوحيد .

* * *

حَسْبُ الشاعرة روحية القلبيني أنها كانت صادقة مع نفسها ، جريئة في بوحها وفي
التعبير عن معاناتها ، وكان شعرها صدى لخفقات قلبها ، وانعكاساً للفتح نار الحب
التي اضطربت في هذا القلب حتى أحرقتة . . .

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كان ثمة رجل حقيقي يختفي وراء كل هذا
الحب الصارخ ، أو أنها كانت تتخيل حباً وهمياً يبتدعه خيالها وتصوره أحلامها
الضبابية ، لتشيد عليه صروح شعرها ؟

يجيب الدكتور عبد الفتاح الديدي عن هذا السؤال بقوله : «كان الجالس إلى
روحية - وكم جلست إليها على مدى خمسة وثلاثين عاماً - يحس أنها موهبة بحب
مجهول دفين ، ولم تكن سعيدة بذكريات الحب وتجاربه في شبابها ، ولم تنطق مرة
بفرحة العلاقات مع الشباب في سنها الأول وربيع عمرها ، ولكنها ظلت تعكس
أحلاماً ، يخيل إلى من يسمعها أنها كانت تحتفظ في قلبها بحب خفي . . .»^(١) .

* * *

يبدو أن الشاعرة روحية القلبي قد ثابت إلى ربها بعد أن فشلت في حبها ،
وضاعت أمانيتها ، وتبددت أحلامها ، فلم تجد غير الله ملاذاً لها ، تبثه شكواها ،
وتناجيه في حلمها ويقظتها ، وترتاح إن رددت اسمه ، ولهجت به سرّاً وعلانية
قائلة :

أنا ما قصدتك مرة إلا وذللتُ الصعابا
وإذا لجأت إليك يصبح مطلبي أملاً مجابا
إن قلبت يا ربي ترد مع الرضاء لي الجوابا
لبيت أمرك يا إلهي هل ترى أخشى الحسابا ؟
الليل يعرفني سهاداً بالتقى دمعاً مذابا
والفجر يشهد كيف أتلو بالضراعات الكتابا
فإذا هفوت فعفوك المرجو يلهمني الصوابا
أنى اتجهت أراك يا ربي فتكشف لي الحجابا .

وهي تقضي الليل ساجدة ساهرة ، تتضرع إلى الله ، تستدر عطفه ، وتسبح
بحمده ليرضى عنها ، ويسدد خطاها ، ويذلل العقبات التي تعترض طريقها ، فهو
مناها وهوها :

ربي جفوت النوم كيما أسهر الليلاتِ تسبيحاً وحمدا
وأرى بعين الحب وجهك مشرقاً يا رب ما أحلاه قصدا
في خلوتي يحلو الدعاء مع السجود وتنقضي الليلات وردا
ويشع نورك في سكون الليل يملاً خاطري حباً ووداً
ورضاك عني يا إلهي كم يحيل الشك في دنياي وَرّدا
ويذلل العقبات من حولي ويجعل كل ما أرجوه عبدا
يارب أنت مناي ، أنت هواي ، أسلمت الأمور إليك عهدا
وترى أنها إن ذكرت الله تبسمت لها الحياة ، وإن رضي عنها ذابت آلامها
وأحزانها ، وإن دعاه قلبها سهل الصعب في حياتها :

أنا إن ذكرت الله تبسم لي وتسعدني الحياه
وتدوب آلامي وأشجاني بفيض من رضاه
والصعب يسهل في حياتي كلما قلبي دعاه .

* * *

بقي أن نقول إن الشاعرة روحية القلبي لم تعرف الأمومة في حياتها وماتت محرومة من الأطفال ، ودون أن تسمع كلمة «ماما» ترن في مسمعيها ، وبتردد صداها في حنايا صدرها .

لم ترزق ولداً يؤنس وحدتها ، ويبدد وحشتها ، ويلثم جبهتها ، ويسير خلفها إذا سارت ، ويحيا في ظل حنانها الدافق كما تقول :

أنا ليس لي ولد ليؤنس وحدتي
ويديبٌ وجددي من هجير اللوعة
ويدي يقبلها ويلثم جبهتي
ويسير خلفي يستنير بخطوتي
ويقول : أمي أنتِ دنيائي التي
أحيا بظل حنانها في فرحتي
وتفوق موسيقاه أجمل نغمة
يشتاق إن طالت ليالي غيبتني
أحنو عليه وما أحن أمومي !

* * *

هذه هي الشاعرة روحية القلبي التي عاشت حياة عاصفة كما يعيش المناضلون وماتت بهدوء في ١٩ / ١٠ / ١٩٨٠ كما يموت الشعراء ، وقد لخص لنا الشاعر عامر بحيري في القصيدة الجميلة التي أهداها إياها ونشرها في العدد الثامن (آب) من مجلة «الأديب» اللبنانية عام ١٩٧٣ كل صفاتها النبيلة ، وسماها «مي» الجديدة ، وأشار إلى صالونها الأدبي الذي كانت تعقده في منزلها على غرار صالون مي قائلاً :

أندوة الفن ، أم روح وريحان
يهفو إليها فؤادي كلما سنحت
ألحانها الشعر والأدب راقية
هناك أسمع من «روح» قصائدها
أبيت أصغني إلى «الأنغام حاملة»
وحين يسري «عبير القلب» يشملني
أما الجديد فقلبي بات يرقبه
على هدى الصدق في الاحساس ترسله

للشعر فيه وحسن القول ميزان
له إلى الفكر أشواق وأشجان
فما سواها لهذا القلب ألحان
غراء كم ضمها كالروض ديوان
فيها من العطر تطريب وتحنان
من الشذى وجمال الورد بستان
وكم يجود به طبع ووجدان
مبراً النظم لم تخطئه أوزان

فشم بعدهما حسن وإحسان
صالونها من بديع الفن ألوان
له الفضائل والآداب أركان
فضل وعلم وأخلاق وإيمان
وشاعر ذكره في الدهر رنان
حرأ ، كما يُنتقى در ومرجان
وفي ثنياه تقدير وشكران . .

فيه العروبة والإعراب قد جُمعا
«مي» الجديدة تدعوني لندوتها
في مجلس بجلال الفكر متسم
وكل من أمه مثلي يصفحه
من كل شاعرة تزهو الحياة بها
تدير فيهم حديثاً تنتقيه لهم
يا «روح» هذا قصيدي كله أدب

* * *

(١) مجلة الثقافة (القاهرة) - العدد ٨٧ كانون الأول ١٩٨٠ ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٥٩ .

روز عطا الله شحنة

ولدت في بيروت عام ١٨٩٠ من أبوين لبنانيين، وتعلمت في المدارس الأميركية في بيروت ، ومدارس الانكليز في برمانا ، وحين تزوجت عام ١٩٠٩ من السيد سرحان شحفة ، وهو سوري ، غادرت معه بيروت إلى دمشق ، حيث قامت بنشاط في الأوساط النسائية والأندية الأدبية التي كانت تدعوها للخطابة ، فتولت رئاسة نادي السيدات في دمشق التي أقامت فيها حتى عام ١٩٢٥ حين عادت إلى بيروت ، لكنها ظلت على اتصال وثيق بالحركة الفكرية والاجتماعية في سورية ، تدعى إليها من حين لآخر ، للاشتراك في الحفلات والمهرجانات .

لم تكن روز عطاالله كاتبة بالمعنى الصحيح ، ولم تمارس الكتابة إلا في المناسبات التي كانت تصيادفها في حياتها الاجتماعية ، فقد كانت منذ صباها من أبرز الوجوه النسائية التي عملت في حقل الجمعيات والمؤسسات المختلفة حتى تولت عام ١٩٤٤ رئاسة الاتحاد النسائي اللبناني الذي كان يضم كل الجمعيات النسائية أو أكثرها .

ألقت في حياتها العديد من الخطب في أندية سورية ولبنان ومصر ، وكتبت بعض المقالات في مواضيع اجتماعية ، وقد قام نصير المرأة جرجي نقولا باز بجمع وتقديم هذه الخطب والمقالات في كتاب أسماه «وحي الأمومة» صدر عن دار صادر - ريجاني ببيروت عام ١٩٥٠ ضم أربعين خطاباً وعشر مقالات ، وهي - كما تقول - : «نفحات قلب سامره حب الوطن ، وشعور زوجة ، وعواطف أم ، قد اتخذت من المحبة والخدمة والاصلاح شعاراً» .

لقد دعت في خطبها ومقالاتها إلى الإصلاح والتحسين والنهوض والاستقلال ، وإلى التضحية في سبيل الحقوق والواجبات . . . وكانت في كل ما تكتب معتدلة ، واضحة الفكر ، صريحة البيان ، واسعة الخيال ، كثيرة الأمان ، سامية الآمال . . . كما عالجت كثيراً من القضايا الأدبية ، فتحدثت عن الوراثة وإصلاح النسل ، وواجبات المرأة في هذا العصر ، واحتفالات جامعة السيدات ، والنهضة النسائية ، والاتحاد النسائي ومؤتمراته ، وجمعية الشابات المسيحيات ، والعروة الوثقى ، ومتخرجات الجامعة والمدرسة الأهلية ، ونادي التعاون ومدرسة الأحد ، وعن المناعة الأدبية ، وتطور الأخلاق ، ومضار السينما والتدخين والمخدرات ، وأزمة الزواج ، والأمومة وقوة المرأة ، والمرأة والتصويت ، والمرأة وتربية النشء ، والنهضة النسائية ، ومقاومة المسكرات ، والمرأة والفن ، وحقوق المرأة السياسية ، والعادات والاقتصاد ، ومساعدة العاملات ، وعيد الاستقلال ، وذكريات مدرسة

برمانا ، والمدرسة الأهلية . . . كما تحدثت عن كل من : جرجي نقولا باز ،
وجوليا طعمة دمشقية ، وماري عجمي ، وأليس قندلفت ، وأمينة الخوري ،
ونجلا صعب ، وهدى ضومط ، ومي زيادة ، وهدى شعراوي . . .

* * *

قالت روز عطاالله شحفة في الكلمة التي ألقته في استقبال الأنسة مي زيادة حين
زارت دمشق عام ١٩٢٢ واستقبلتها أنديتها الأربعة : «ما انتشر نبأ حلولها الفيحاء
حتى شعرت أن روحاً جديدة تتغلغل في فضائها ، ونجماً متألّقاً يسطع في سماءها ،
وأحسست بأن الفيحاء ترتدي اليوم أبهى حللها ، وتظهر بأبداع حسنها ، وأن بردى
ينشد أطرب أغانيه ترحيباً بها» .

ولما فسح الأستاذ الرئيس محمد كرد علي المجال للمرأة لتحاضر في المجمع
العلمي العربي ، كانت روز عطاالله شحفة من أوائل من وقفن على منابرهن ، وألقت
عام ١٩٢٤ محاضرة بعنوان «واجبات المرأة في هذا العصر» قالت فيها : «إننا إن لم
نقم بواجباتنا ، فكيف نطالب بحقوقنا المهضومة ؟ إن جلال المرأة وقوتها ينحصران
في شعورها الرقيق ، فلتشعر بمسؤولية الواجبات نحو العائلة والانسانية ، موقنة بأنها
مقدسة إن أتمتها بإخلاص وأمانة» .

وقالت في خطاب «المناعة الأدبية» الذي ألقته في جامعة السيدات : «ترفقوا
بالمرأة أيها الرجال عندما تتقدمونها وتجرونها بطلاقة ألسنتكم إلى هاوية الذل . إنكم
تجرون معها بلاء يحيط بمجموعكم ، إنكم تدكون أمنع حصونكم ، لأنها إن فقدت
تلك المناعة وذلك الحصن ، فلا تقوى على أن تشيد في نفس أولادها ذلك الحصن
المنيع» .

وقالت في مقالها «تمنياتي» الذي دعت فيه إلى رفض العبودية الغربية وما تحمله
إلينا من مغريات وعادات وتقاليد دخيلة علينا ، ولا سيما الاقبال على اقتناء كل ما هو
أجنبي ، وترك الصناعات الوطنية قائلة : «أتمنى أن تكسر المرأة قيود العبودية
الغربية ، وتندفع بكل ما أوتيت من عزيمة ومضاء لمساعدة صنائع بلادها
ومنسوجاتها ، فتأخذ عهداً على نفسها بأن لا تلبس ثوباً ليس من حياكة مواطنيها ،
ولا تستعمل في بيتها غير صنع البلاد والأوطان من أثاث ومأكول ومشرب» .

وقالت في الخطاب الذي ألقته بمناسبة اليوبيل الفضي للأنسة ماري عجمي
صاحبة مجلة العروس عام ١٩٢٦ : «لم تكتف ماري عجمي بتحرير مجلتها بنفسها

دون مساعدة لها ، بل أخذت تبث الفكرة لإيجاد نادٍ من كل الملل يجمع كلمتهن ، ويقودهن في سبيل التقدم الفكري ، ويعلي مقامهن في الهيئة الاجتماعية - وكان لها ما أرادت - فكان النادي الأدبي النسائي في دمشق ، تشع عليه من روحها ، وتنشط سواعد السيدات فيه ، وتوقظ أرواحهن بوثباتها الحرة وخطبها النفيسة ، ولم تكتف بذلك ، بل صممت أن تكون فيه مكتبة ، تجمع أهم الكتب النسائية التي تفيد المرأة في حياتها وبيتها» .

* * *

كانت روز عطاالله شحفة مصلحة اجتماعية قبل أن تكون كاتبة وأديبة ، تهزها مآسي البشر ، ويوجعها بؤسهم ، تهمها إقامة العدل والسلام والمحبة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وشعوبهم ، ولذلك ختمت كتابها «وحي الأمومة» بقولها :

«أتمنى أن يتحد قومي ، وأن تسود القومية الإنسانية الشاملة التي تذوب فيها العصبية والعنينات ، فيصبح العالم كله قطعة واحدة من كبد الحياة - حياة الحق والعدل والكمال» .

زھور ونیسی

- ۱۹۳۶)

ولدت الأديبة الجزائرية زهور ونيسي في مدينة قسنطينة عام ١٩٣٦ ، وأتمت دراستها الجامعية في مصر ، حيث حصلت على ليسانس في الآداب ولسانس في الفلسفة ، ثم مارست الكتابة والصحافة في جريدة «المجاهد» ومجلة «الجزائرية» التي أسستها عام ١٩٦٩ وتولت رئاسة تحريرها وأشرفت عليها ، وهي عضو في المجلس الوطني للاتحاد النسائي ، واتحاد الكتاب الجزائريين ، ووزيرة للشؤون الاجتماعية والعمل (سابقاً) ، وأكبر قاصة جزائرية .

لم تكتف الأديبة زهور ونيسي بكتابة القصة والرواية ، بل كتبت المقالة أيضاً ، وقد ظهرت مقالاتها في مجلة الجزائرية التي كان عليها أن تكتب افتتاحياتها شهريا ، وفي صحيفة المجاهد وغيرها ، تعالج فيها الوضع العام للمرأة الجزائرية وبعض القضايا الاجتماعية ، وعلاقة الإعلام بالثورة ، بالإضافة إلى شؤون الفن والأدب ، وتبدو في مقالاتها كما في قصصها شديدة الالتزام بقضايا الجماهير وهموم المجتمع والوطن ، فالمرأة مهما اختلفت ظروفها الاجتماعية والفكرية ، ومواقفها من الثورة ، فإنها تظل في المقدمة ، وقد عمرت ميادين الكفاح بصمت ، ودون نقص في الفعالية والاستعداد ، ولذلك فهي تلح على تعليم المرأة في الريف ، ليكون لها شرف الزحف مع الجموع المنتصرة من مرحلة التحول إلى مرحلة الانطلاق .

ان الأرياف في رأيها بحاجة إلى العمل قبل المدن ، ولذلك لا بد للمرأة الجزائرية من أن تتحرك وتقوم بحملات تطوعية وتعبثات عامة واتصالات دائمة لخلق التفاعل والتلاحم بين القطاع الواحد من جهة ، وبين هذا القطاع المتفاعل على التلاحم مع النصف الآخر من المجتمع .

ما إن استقلت الجزائر ونالت حريتها حتى راحت الأديبة زهور ونيسي تدعو إلى تكوين منظمة نسائية تتولى قضايا المرأة الجزائرية ، لتستطيع أن تسهم في الحركة النضالية من أجل حياة أفضل لها ولمجتمعها وبلادها .

و فعلاً تحقق ما دعت إليه ، وتأسس الاتحاد العام للنساء الجزائريات الذي استطاعت المرأة الجزائرية من خلاله أن تسهم في القضايا الوطنية والاجتماعية والسياسية ، وتقف مع الرجل جنباً إلى جنب في مختلف ميادين العمل والكفاح .

لقد أثرت ثورة نوفمبر (تشرين الثاني) التحررية التي اندلعت شرارتها عام ١٩٥٤ في حياة زهور ونيسي وأعمالها الأدبية إلى أبعد الحدود ، لأنها عاشتها بقلبها وروحها ودمها ، وشاركت فيها مناضلة جريئة في جبهة التحرير ، فقد كانت هذه

الثورة وما زالت تعبيراً عن إرادة الشعب لاعادة صنع وصياغة الحياة على أرضه ،
وتحقيق الحرية المطلقة للوطن والانسان ، ولذلك كرست لها قلمها وكتبت عنها
بحماسة شديدة واندفاع لا يعرف الحدود .

ترى زهور ونيسي أن الاعلام الحقيقي ولد مع الثورة مناضلا ملتزما بقضايا
الانسان وحقوقه المشروعة في الحرية والكرامة والعدالة ، وأن للقلم التزاما أخلاقيا
شخصيا يجبره - أو لا يجبره - على الاستنزاف ، وأن مقياس الحضارة في أي بلد إنما
يكون بالتزام الكاتب بقضايا مجتمعه ، وتعبيره عن آماله وآلامه وأحلامه
وطموحاته .

ان قيمة الفن الملتزم ، سواء كان شعرا أم رسما ، أم نحتا ، أم لحنا ، تنبع من
قدرة الكاتب على الاستجابة لمتطلبات الشعب ، ومن مدى ارتباطه بحياة الانسان ،
والفنان جسر ، ركيزته الأولى في الماضي ، والثانية في المستقبل .

القصة في أدب زهور ونيسي

أصدرت السيدة زهور ونيسي مجموعتين قصصيتين هما «الرصيف النائم»
١٩٦٧ ، و«على الشاطئ الآخر» ١٩٧٤ قدمت للثانية الدكتوراة بنت الشاطيء ،
فاظهرت فيها اهتمام الكاتبة بالتركيز على الضمير الشعبي للثورة الجزائرية ، وتغيير
الأشخاص بتنوع المواقف في القصص ، بحيث يبدو وكأن الضمير الشعبي ملء
الميدان هناك ، يخرج من كل حي وزاوية ، ومن وراء كل جدار ، ومن تحت كل
حجر أبطالا بوسائل ، ويوجه كل امرأة ورجل وطفل ليؤدي دوره ، فهم جميعاً جنود
للمعركة ، ورفاق في الجهاد الأكبر .

ان قصص زهور ونيسي تقدم إلى تاريخنا الأدبي المعاصر نبض الضمير الشعبي
للجزائر الشائرة ، وتضيف إلى المعروف من بطولات المقاتلين في كتائب التحرير
بطولات آباءهم وأمهاتهم وأطفالهم في كل ربع من ربوع الجزائر ، وكل دار من
دورها ، وقد أهدت هذه المجموعة إلى «كل جندي مجهول ، وكل شهيد من شهداء
النضال الصامت الدامي ، وكل من بقي على درب هؤلاء الأبطال ، يعمل لتخضر
الأرض الطيبة ، والقلوب اليابسة .

. . . إلى كل شعبنا الوفي مفجر ثورة نوفمبر ، وكل ثورة البناء الجديدة» .

تستمد قصص المجموعة مادتها من الواقعية النضالية ، وتصور ما عاناه الشعب الجزائري من ظلم وضغط وقهر واكراه على ترك لغته وقوميته وتاريخه وتراثه العريق ، ولذلك فان معظم أبطال قصصها أشخاص حقيقيون عرفتهم وعاشت معهم تجربة الثورة التي توجت باستقلال الجزائر ، ولا سيما في قصة «المرأة التي تلد البنادق» ، إذ يطلب خطيب زهية - بطلة القصة - من خطيبته أن تستقبل في مكان عملها في المستشفى واحدة تدعى فاطمة ، مدعية أنها صديقتها جاءت بقصد المعالجة ، وتطلب فاطمة من زهية أن تحدثها على انفراد ، وتنتقل الاثنتان إلى غرفة أخرى ، فتجد أن حمل فاطمة انما هو من نوع آخر . . . لقد كان السلاح تحت حزامها فتأخذه زهية لتسلمه إلى خطيبها في نهاية الدوام .

ان من يقرأ قصص زهور ونيسي يلاحظ أن أغلبها ذو طابع تسجيلي يتسم بالسرعة وعدم المبالاة بالصياغة ، وهي نقل حرفي للواقع المعاش ، وفي كثير من الأحيان لا يستطيع القارئ أن يميز بين القصة والمقالة عندها .

يقول الأديب أحمد دوغان في نقده لقصص «على الشاطئء الآخر» بعد أن لخص طائفة منها وعلق عليها : «إذا اعتبرنا أن مجموعة «الرصيف النائم» تنتمي إلى الواقعية الثورية النضالية ، فإلى أي مدى يمكن اعتبار هذه المجموعة ؟ لاشك أنها أعطت في المجموعة الثانية بعدين واضحين : البعد الوطني النضالي الذي تمثل في قصص الكفاح والثورة ، والبعد الثاني هو البعد الاجتماعي الذي لم يظهر في مجموعتها الأولى بشكل واضح ، ذلك لأن النضال كان يطغى على كل شيء» .

كذلك عاجلت في هذه المجموعة مشكلة الرجل الذي يقف من زوجته موقف النفور والاشمئزاز لأن زوجته لا تلد إلا البنات ، وكأنها هي وحدها المسؤولة عن تحديد جنس المولود ، وقضية اختيار الرجل زوجا لابنته دون استشارتها ، لا لشيء إلا أنه رجل ! .

إذا كانت مجموعة «الرصيف النائم» تنتمي إلى الواقعية النضالية الثورية ، فإن مجموعة «على الشاطئء الآخر» - وتقصد بها هجرة الجزائريين إلى فرنسا - تنتمي إلى الواقعية الاجتماعية ، لأنها تعرض مشكلات المجتمع الجزائري بشكل واضح ، وتعالجها معالجة واعية ، ولا سيما ما له صلة بالمرأة .

الرواية في أدب زهور ونيسي

أصدرت الأدبية زهور ونيسي رواية واحدة هي «يوميات مدرّسة حرة» عام ١٩٧٩ جاءت في ثمانية فصول احتلت مئة وثلاثاً وعشرين صفحة . أما زمن الرواية فيبدأ بالثورة الجزائرية المسلحة التي تشبت في نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وينتهي باضراب ديسمبر عام ١٩٦٠ . وقد استطاعت هذه الرواية أن تسجل بأمانة تلك الفترة التاريخية من نضال الشعب الجزائري ، وتقدم للقارئ صوراً حية من واقع هذا الشعب المكافح بكل صدق واحساس من خلال تجربتها الذاتية كواحدة من اللواتي شهدن الثورة وشاركن فيها .

بطلة الرواية معلمة عايشت الواقع النضالي سراً عن طريق الانتظام في جبهة التحرير ، وجهراً بالعمل الجدي والسلوك الذي يمثل شخصية المناضل ، فقد كانت تستقبل الطالبات اللواتي أضربن عن تلقي الدروس بالفرنسية ، وتشارك في مظاهرات نوفمبر عام ١٩٦٠ ، وتقرأ جريدة «البصائر» ، وتلقي الأناشيد الوطنية في الحفلات مما أدى إلى اقيادها إلى قسم الشرطة ، ووضع اسمها في قائمة المقبوض عليهم ، ولا يستغرب هذا من معلمة تتلمذت على أساتذة المدارس الحرة .

ان بطلة الرواية هي الكاتبة نفسها ، فالأحداث رويت بلسان المتكلم دون ذكر اسمه ، ولذلك صارت الرواية أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية ، وخير الروايات عندي ما كان مستمداً من الذات ، مع بعض التغيير والتحوير ، حيث يمتزج صدق المعاناة بالحرارة والعفوية .

* * *

زینب فواز

(۱۸۵۰ - ۱۹۱۴)

ولدت الأديبة زينب فواز العاملة في قرية «تبنين» من أعمال صيدا ببلبنان سنة ١٨٥٠ في بيئة فقيرة ، فلفتت بذكائها الوقاد ، ونبوغها المبكر ، نظر السيدة فاطمة الخليل زوجة علي الأسعد التي تبننتها ، وعلمتها مبادئ القراءة والكتابة ، ونصحتها بحفظ القرآن الكريم ، فحفظته عن وعي وفهم في زمن كانت الأمية تسود أغلبية سكان الجنوب اللبناني ، وقلما يوجد من يفك الحرف ، أو يحسن قراءة أو كتابة رسالة ، وأجادت العربية ، آملة أن تصبح خطيبة وكاتبة وشاعرة .

تعرفت في قصر خليل الأسعد ، أخي فاطمة ، برجل من حاشيته فتزوجها ، ثم طلقها لعدم امتزاج طباعهما ، وحاول أحد أنسابها إكراهها على الزواج منه فصدته ، ولما هدها هربت إلى بيروت مع قافلة من المكارين ، وراحت تطرق أبواب المنازل ، طالبة الاستخدام عند إحدى الأسر الغنية ، حتى تهيأ لها ذلك في أسرة يوسف حمدي يكن المصرية ، ثم سافرت معها إلى الاسكندرية ، حيث استرعت انتباه الأستاذ حسن حسني الطويراني ، صديق أسرة يكن ، وصاحب جريدة «النيل» ، فعلمها الصرف والبيان والعروض والتاريخ ، والشيخ محيي الدين النبهاني فدرست عليه النحو والانشاء ، وظلت عاكفة على الدرس والتحصيل ، حتى تمكنت من الكتابة ونظم الشعر . ولما ذاع صيتها راحت تكتب في جرائد «النيل» و«لسان الحال» و«المؤيد» و«الاتحاد المصري» و«أنيس الجليس» وسواها موضوعات اجتماعية ونسائية ، بوعي صحيح وجرأة نادرة ، فأعجب بأسلوبها الكاتب الدمشقي أديب نظمي ، فأخذ يتراسلان ، ويتبادلان الصور الشخصية ، حتى انتهى بهما الأمر إلى الزواج ، وعقد له عليها وهي في الاسكندرية ، عند أستاذها حسن حسني الطويراني ، فحضرت إلى الشام ، وهي على حسابه شرعا ، وكان أديب يقيم حينذاك في قرية «الشيخ سعد» في حوران . ولما لم يطب لها العيش فيها ، انتقل بها إلى دمشق ، فاستقبلتها ضرائها الثلاث استقبالاً عاطفياً طيباً ، إذ كانت تمتاز عليهن علماً وأدباً وخلقاً ، لكنها لم تلبث أن تبرمت بحياتها غير الطبيعية ، فافترقت عن زوجها بعد أن قضت ثلاث سنوات ، وعادت إلى الاسكندرية التي شهدت ولادتها الأدبية ، فوضعت طفلاً كانت تحمله في أحشائها أسمته «غريب» لكنه مات بعد ذلك بوقت قصير .

كانت زينب فواز تعقد في دار زوجها أديب نظمي مجالس أدبية أسبوعية يحضرها : حسن الدوماني ، وأبو السعود مراد ، وعبد القادر بدران ، وسليم عنحوري ، ورشيد الحشيمي ، وسيد السلطجي ، وصالح طه ، ومحمود حمدي ، وحسين حسني ، وعمر نحوي (من صيدا) وصالح وهبي البغدادي ، وأسعد الحمصي ومحمد عبد المجيد الدوماني وغيرهم من أدباء ذلك العهد ، فيتطارحون الشعر نظماً وتشطيراً ، ويتناقشون في قضايا الأدب ، وكان زوجها رسولا بينها وبين الحاضرين ، إذ كانت تجلس خلف ستار قريب ، أو في غرفة مجاورة ، ويحمل منها

واليها ما قالت وقالوه ، لأن التقاليد الصارمة كانت تحول دون انطلاق المرأة - حتى ولو كانت كاتبة - انطلاقاً كلياً في ميادين الحياة ، كما تقول السيدة املي فارس ابراهيم ، ومع ذلك فرضت شخصيتها ، لكنها لم تستطع في هذه الظروف القاسية أن تكون رائدة من رائدات الفكر الغني .

لقد فاقت زينب فواز غيرها من كاتبات زمنها كعائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي ، واضطلعت برسالة بعث المرأة العربية من جمودها وتخلفها ، بالرغم من أنها لم تدخل المدارس . عدت معجزة عصرها ، ومفخرة بنات جنسها ، بما نشرت من مقالات عديدة تدافع بها عن حرية المرأة العربية ومساواتها بالرجل ، وكثيراً ما ناظرت الأدباء في هذا الموضوع ، رغبة منها في تعزيز شأن المرأة ، وتوفير سبل تقدمها ، وكانت آراؤها في هذا المجال جريئة متحررة ، وكم كانت تنتفض ثائرة إذا قرأت أو سمعت أن واحدة من بنات جنسها أعلنت رأياً فيه شيء من التحفظ في حقوق النساء ، كما في ردّها على الأديبة هنا كسباني كوراني .

آثارها

١ - في القصة : كتبت زينب فواز روايتين هما : «حسن العواقب أو غادة الزاهرة» طبعتها عام ١٨٩٥ وتقع حوادثها خلال القرن الماضي في لبنان ، حيث تعرض سلسلة من المآسي بين «شكيب» - أحد أمراء الدرّوز- وابن عمه الأمير «تامر» بسبب تنافسهما على حب ابنة عمهما الأميرة «فارعة» ، وقد تأثرت فيها بأسلوب سليم البستاني ، وذلك بحشد الكثير من المغامرات ، والمخاطرات ، والمؤامرات . أما أسلوبها فخليط من السجع والارسال ، فتستعين بالسجع على تصوير العواطف المتأججة ، والحوادث المثيرة ، وتكثر من التمثل بالشعر على طريقة الرومانسيين الذين نشأت في ظلهم كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم . ويشبه أسلوبها أسلوب سليم البستاني في البركاكة وضعف التركيب وانعدام الشاعرية ، وضآلة الأوصاف الجميلة ، لكنها تمتاز بقلّة الحشو والاستطراد .

والرواية الثانية هي «كورش ملك الفرس» وهي من أحسن الروايات مغزى ومعنى ، غرامية ، تاريخية ، جمعت الفائدة والفكاهة ، وصورت قبح العبادة المجوسية ، وحسن الوجدانية أبداع تصوير ، وتحدثت فيها عن سقوط دولة الميديين ، وحلول دولة الفرس محلها ، واستيلاء الملك كورش عليها وعلى مملكتي نينوى وبابل ، وانقراض هاتين الدولتين العظيمتين ، واندماجهما في مملكة فارس .

٢ - في المسرح : ألقت «الهوى والوفاء» وهي مسرحية ذات أربعة فصول ، لم تطبع وظلت بين محفوظاتها الضائعة .

٣ - في السيرة : لها «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» وقد ترجمت في هذا الكتاب لعدد من النساء الشهيرات منهن السيدة فاطمة الخليل الأسعد التي حضنتها في صغرها ، وكانت السبب في تعليمها ، وجمعت مادته من كتب تاريخية وأدبية تقرب من أربعين مؤلفاً ، بالاضافة إلى ما أخذته من المجلات والجرائد من مقالات تؤيد تقدم المرأة وتدعو إلى تعليمها .

٤ - في الترسل : لها «الرسائل الزينية» وهو كتاب يقع في ٢١٨ صفحة ، ضم رسائلها وطائفة من المقالات التي عاجلت فيها حقوق المرأة ومكانتها في المجتمع ، وردودها على الكتاب ، كالأدبية هنا كسباني كوراني التي أخذت على نساء انكلترا طلبهن التدخل في السياسة ، وكالشيخ أحمد عارف الزين الذي انتقد طلبها اطلاق حرية المرأة في جميع مجالات النشاط الانساني ، فقالت له في إحدى الرسائل : «أما ما جال في فكر سيادتكم من أن المرأة لا تقدر على تأدية وظيفة الرجل ، فهو غلط أيها الفاضل ، لأن نساء الغرب ففن الرجل بمراحل ، وأما نحن فلا يمنعنا الحجاب عن الاشتغال بأعمال الرجال» .

٥ - في الشعر : نظمت السيدة زينب فواز أشعارا كثيرة لم تجمع في ديوان ، قالتها في مختلف المناسبات التقليدية المعروفة . كالتهنئة في الزواج والولادة ، وجلوس السلطان ، والغزل والمدح ، وجميعها لا تنطوي على معان عميقة ، كقولها في تفضيل الشرق على الغرب :

لشرق فضل في البرية أنه يأتي الوجود بكل حسن معجب
والغرب أظلم ما يكون لأننا نشقى بفرقة شمسنا في المغرب
وقولها متغزلة ، وقد طغى التقليد عندها فيه على الابتكار :

لا زال قلبي مدى الأيام خفاقا و بدر حسنك يجلو العين إشراقا

نور تجلي على الأرواح منفردا حتى جلى منه في الأحشاء أحداقا
سرى غرامك في قلبي وفي جسدي لذاك أثر إسقاما وإحراقا
ومهما يكن من أمر فنثرا أفضل من شعرها بكثير ، وكأنها خلقت لتكون نائرة لا شاعرة ، ذلك لأن الأحداث الصعبة الأليمة التي مرت بها يستحيل أن يستوعبها الشعر ، كما تستوعبها القصة أو المقالة أو المسرحية ، ومن هنا فاق نثرها شعرها الذي لم يتعد المناسبات التقليدية كما ذكرت .

وكنموذج على نشرها الرفيع أسوق هذا المقطع من مقال لها عن حرية المرأة :
« . . . مضي زمان والمرأة منا ، نحن الشرقيات ، مغلق أمامها باب السعادة ، لا
تعرف نفسها إلا آلة بيد الرجل ، يسيرها كيف شاء ، ويشدد عليها النكير باغلاظ .
الحجاب وسد أبواب التعليم ، وعدم الخروج من المنزل ، وبحرماتها من حضور
المحافل النسائية العامة ، إلى حد أنه كان يخيل لها أن تلك الأفعال من الموبقات ، لو
تبعتهما خللت بنظام شرفها وناموس صيانتها . وحجة الأزواج في ذلك أن المرأة إذا
تعلمت ، فإنها تصير غيرراضية بعيشتها ، كارهة لحكم زوجها الجائر ، فيوجبها
العلم والتعلم إلى أن تشق عصا الطاعة ، وتخرج من ربة العبودية إلى ميدان
الحرية ، هذا إذا كانت المرأة فقيرة والرجل غنياً ؟
ولزينة فواز كتب أخرى لم تطبع حتى الآن مثل كتاب «مدارك الكمال في تراجم
الرجال» ، وكتاب «الجواهر النضيد في مآثر الملك الحميد» وغيرهما ، ولا يدري أحد
ماذا حل بهما بعد وفاتها التي يرجح أن تكون في الاسكندرية سنة ١٩١٤ ، قبيل
اندلاع الحرب العالمية الأولى بوقت قصير .

سلمان صائغ

(۱۸۸۹-۱۹۵۳)

ولدت سلمى صائغ في حي «المصيطة» ببيروت في ٣ كانون الاول عام ١٨٨٩ ، وتلقت علومها في معهد «زهرة الإحسان» على يدي العلامة الشيخ ابراهيم المنذر (١٨٧٥ - ١٩٥٠) فأخذت عنه أسرار الفضاحة والبلاغة والبيان .

عملت بعد تخرجها في عدد من مدارس بيروت الخاصة كالمقاصد الإسلامية ، وكلية بيروت للبنات ، والبعثة العلمانية الفرنسية (اللايك) والعاذرية . . . لأن التعليم في نظرها مهنة سامية ومقدسة ، وطريق إلى الاصلاح ، وبناء المستقبل الزاهر .

كانت سلمى فتاة بارعة الجمال ، ذات شعر أشقر ، وعينين زرقاوين ، وأنوثة طافحة ، وإنسانية عميقة ، وحديث جذاب ، ولذلك حامت حولها أنظار المعجبين ، وأحبها غير واحد من الأدباء كحبيب اسطفان الذي كان يدرسها اللغة العربية ، والشاعر أديب مظهر (١٨٩٨ - ١٩٢٨) وأمين الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) وفليكس فارس (١٨٨٢ - ١٩٣٩) ، لكنها لم تقترن بأي واحد من هؤلاء ، بل اقترنت عام ١٩١٢ بطبيب الأسنان الدكتور فريد كساب الذي اسنهورها برجولته وأخلاقه الرفيعة ، ثم افترقا بعد بضع سنوات ، بعد أن أنجبا ابنتها الوحيدة «عائدة» التي أصبحت فيما بعد زوجة الشاعر صلاح لبكي (١٩٠٦ - ١٩٥٥) .

توزع نشاط سلمى صائغ بين التعليم والأدب والصحافة وقضايا المرأة والمجتمع ، فأسهمت في تأسيس عدة جمعيات نسائية منها «النهضة النسائية» و«الاتحاد النسائي اللبناني» وغيرهما .

غادرت وطنها وابتنتها وأصدقاءها وأهلها ، ذوتها إلى البرازيل عام ١٩٣٩ بحثا عن أخ لها هاجر قبل أربعين عاماً ، وهي لا تزال طفلة ، فعثرت عليه - بعد البحث والتفتيش - في أحد مجاهل الأرياف البرازيلية النائية ، وقد هدّ المرض جسمه ، فحملته إلى سانباولو وتمهيداً للعودة إلى الوطن ، لكنه مات بطريقة مأساوية قبل أن يعود .

مكثت في البرازيل ثمان سنوات انتسبت خلالها إلى العصبة الأندلسية ، وأصدرت كتابها الثاني «صور وذكريات» عن دار الطباعة والنشر العربية في سانباولو عام ١٩٤٦ وهو مجموعته مقالات وأبحاث بلغت فيها سلمى ذروة الكمال ، كما ترجمت عن البرتغالية عددا من المقالات والقصص القصيرة .

أما كتابها الأول «النساء» الذي جمعه لها نصير المرأة جرجي نقولا باز ، فقد صدر عن المطبعة الأدبية في بيروت في تشرين الأول عام ١٩٢٣ ، وقدمته إلى صديقتها الدكتور أنس بركات زوجة نصير المرأة ، لأنها «المرأة السائرة إلى ذروة الكمال الإنساني ، والمضيئة بروحها النبيرة» «رسول» جهادا النسائي ، المرأة التي علمتني أن أخدم بمحبة ومعرفة» .

ضم كتاب «النسيات» حوالي أربعين مقطوعة ومقالة كانت قد نشرتها في مجلات : الحسنة ، ومنيرفا ، والفجر ، والخدر ، والمرأة الجديدة ، والحياة الجديدة ، والبرق ، والمعرض ، والسائح ، والشعب ، ولسان الحال ، ومجلة سر كيس وغيرها من المجلات والصحف . . . وفي هذه المقطوعات والمقالات جمال وفن ، وريشة مصور ، ونغمة موسيقي ، وخيال شاعر ، ومعرفة عالم ، وأدب كاتب ، ورأي مفكر . . . فيها وطنية وحرية وغيرية وإنسانية وجرأة ونهضة وحكمة ومحبة وشفافية لامست الروح ، وسمو بلغ السماء .
هي نسيات باردة ، حارة ، منعشة لاذعة - كما يقول جرجي باز - فيها من تغريد العصفور ، وهينمة النسيم ، ورواء الزهر ، وشذى العبير ، وحنان الأم ، وشعور الأخت .

إن من يطالع تلك المقطوعات والمقالات يلاحظ تأثر سلمى بجبران والريحاني ومي زيادة بشكل واضح شكلاً ومضموناً : ثورة في الأفكار ، وتمرداً على الواقع ، وحرارة في العاطفة ، وإبداعاً في الصور . . . كما في «أغاني الجنود» ، و«أنشودة المهاجر» و«أجراس العيد» وغيرها . . . تقول في أنشودة المهاجر :

«أرجعوني إلى لبنان ! إلى أديمه وسائه ، إلى ثلوجه ومائه ، إلى وديانه الجليلة ، واكامه الجميلة ، وغاباته الخميطة ، أرجعوني إلى لبنان . . .
إن الحياة في أشعة الشمس البارزة من وراء جباله ،
والحب يدب خلال أنوار البدر الساطعة فوق تلاله
كل ما فيك يا لبنان يهيب بالنفس إلى العبادة والأمل . . .
قبا أديارك القديمة ، وهي ترتل مساء أصوات النواقيس
وخرير مياهك ، وهي تتدفق في الوديان ،
ودبيب الهواء بين أوراق الزان
وهمس النسيم في مباسم الغزلان . . .»

ولبنان سلمى صائغ هو عين سورية وقلبها ، فصلتها الجراح الدامية في الماضي ، فلم لا تندغم عناصرها اليوم اندغاماً لا يحلّه الجهل ولا تفرقه الأديان ؟ :

كبيراً كنت أو صغيراً ، فأنت أنت يا لبنان
ولئن فصلتك جراحك الدامية عن سوريا
فأنت عين سوريا وقلب سوريا .

هاهم بنوك في المشارق والمغرب
(بنوك آن كنت صغيراً)

يحملون النشاط في قلوبهم والأنفة في نفوسهم
بنوك نفخوا في الشرق نسمة التجدد

فتكهرب الشرق من سوريا إلى النيل إلى العراق . . .

وبنوك يا لبنان سيحملون في الغد الحياة الجديدة إلى الشرق الجديد . . .
وفي وديانك ستنشأ فكرة اندغام عناصر سوريا ولبنان
اندغاماً لا يحلّه الجهل، ولا تفرقه الأديان .

* * *

كانت سلمى صنائع أدبية وطنية متحمسة، تريد أن يكون لبنان بلداً حراً سيداً،
لا تفرقه الزعامات والعصبيات، والطوائف والمذاهب والأديان . . . وهي لا تستطيع
أن تحيا بغير هذا الوطن :

« يا أبناء بلادي أعطوني وطناً وإلاً أموت »
وتريد بعث صناعته الوطنية والإقبال عليها :
« كلوا وطني، واشربوا وطني » .

وكانت حريصة كل الحرص على تعليم اللغة العربية لطلاب المدارس، ولذلك
صبت كل لومها على المناهج المطبقة في لبنان واهتمتها بالتقصير في هذا المجال :
« ففي البلد اليوم عدد من الشباب والشبان يجهلون لغتهم . هم فئة غريبة
لا يحسون بحس الأمة، ولا يقرؤون صحافتها، ولا يعرفون شيئاً من الأمها القومية .
نريد أن تكون اللغة العربية إجبارية لكل طالب لبناني » .

الوطن واللغة في فكرها واحد لا يتجزأ، والعلاقة بينها صريحة لا تختمل التأويل،
فلا وطن بدون لغة، ولا لغة بدون وطن، ولا ينعش اللغة ويحييها في رأيها - مثل
المعاهد الوطنية، ولذلك دعت إلى « إقامة معاهد علم وطنية، تعلم فيها كل العلوم
الحديثة باللغة العربية، وتفوق المعاهد الأجنبية الموجودة في البلاد لتمكن من
مزاحمتها والقضاء عليها »، كما دعت إلى مقاطعة المدارس الأجنبية .

* * *

نشرت سلمى بعد كتابيها « النسبات » و« صور وذكريات » كتابين آخرين عام
١٩٤٩ هما « أعمال الرحمة » و« نواحي الخير في لبنان » بالاتفاق مع منظمة اليونسكو،
غير أن القدر لم يمهلهما لتجمع كل ما كتبت من قصص ومقالات وخواطر وترجمات،
فقد توفيت في السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٥٣ وظلت توافي مجلة « صوت
المرأة » بانتاجها حتى عام ١٩٥٢ حين أقعدها المرض وحال بينها وبين مواصلة
الكتابة، وكانت تقول لصهرها الشاعر صلاح لبكي :
« إذا أمهني المرض فسأملني عليك وتكتب » .

كان من المفترض أن تقوم وحيدتها عائدة لبكي بجمع مقالاتها ونشرها في كتب،
لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وبقيت هذه الروائع دفيئة المجلات الكثيرة التي كتبت
فيها .

في عام ١٩٥٥ قدمت الجامعة اللبنانية منبراً دائماً باسمها تلقى من عليه سنويًا
محاضرات في الأدب النسوي، ومنحة دراسية باسمها تمنح لأي فتاة لبنانية تكون

متفوقة في اللغة العربية وآدابها . وكانت الحكومة اللبنانية قد منحتها وسام الاستحقاق المذهب من الدرجة الأولى ، فاعتذرت عن قبوله في حينه لأنه جاء متأخراً- وبعد غيابها أعادت إليها الوسام ، وأطلقت اسمها على أحد شوارع بيروت .
لقد انطوت بوفاتها صفحة أديبة لبنانية كبيرة ، وغاب وجه امرأة جميلة تميزت بالنضال والكفاح طوال حياتها ، تاركة لنا أربعة كتب ، وفضلاً من المقالات الرائعة ، النابضة بالقوة والعذوبة والرشاقة والجمال .

سلاوی سلاطمة

(۱۸۸۳-۱۹۴۹)

ولدت الأدبية السيدة سلوى سلامة في حمص ، في السادس من نيسان سنة ١٨٨٣ ، في زمن كانت المرأة فيه لا تزال أسيرة البيت ، وكانت في الحادية عشرة من عمرها عندما ظهرت عليها علامات النجابة والذكاء ، فاهتم بها أخوها حبيب ، وكان من كبار الأساتذة في ذلك الحين ، ومتضلعا باللغة العربية ، فعلمها الصرف والنحو والبيان والعروض . وبعد أن أكملت دراستها ، مارست التعليم في مدرسة البنات الأرثوذكسية في حمص ، ثم تسلمت إدراتها مدة من الزمن ، إلى أن دعيت للتعليم في مدرسة «زهرة الاحسان» بزحلة عام ١٩٠٧ ، وصارت تكتب في جريدة «المحبة» مقالات اجتماعية وأخلاقية ، وتخطب في النوادي والجمعيات ، وهي أول سيدة حمصية وقفت على المنابر وخاطبت الجماهير .

عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها سافرت إلى مدينة القدس ، فساءها ما لاقته من اضطهاد المرأة في كل مكان ، واعتقاد الناس بأن المرأة لوالديها ، ثم لزوجها ، يتمتع بها كما يشاء ، ولا يعاملها كزوجة لها من الحقوق مثل ماله ، فكتبت عدة مقالات تنتقد هذه الأمور .

ثم أخذت شهرتها تتسع بين الأدباء يوماً بعد يوم ، على الرغم من صغر سنها ، وأصبح منزلها في زحلة ناديا أدبيا ، يجتمع فيه كبار الشعراء والأدباء كحليم دموس ، وعيسى اسكندر المعلوف وغيرهما ، وقد أحبوا مداعبتها يوماً ، فطلبوا منها أن تقرأ ما كتبه ياقوت الحموي عن حمص في موسوعته «معجم البلدان» ، ولم تكن قد اطلعت على هذه الموسوعة من قبل ، فتناولت الكتاب وأخذت تقرأ بصوت عال ، ولغة سليمة ، ونبرة خطابية ، لتبرهن على مقدرتها .

وبعد أن قرأت ما كتبه ياقوت عن موقع حمص ومناخها وعدد سكانها ومزروعاتها ، وصلت إلى قوله «ونساؤها مشهورات بالجمال والبلاهة» فقرأت العبارة دون تردد «ونساؤها مشهورات بالجمال والنباهة» ، فصفق لها جميع الحاضرين ، لأنها نجت من الشرك الذي نصب لها .

وبلغت مقالاتها الرائعة ما وراء البحار ، ونالت استحساناً عاماً ، وكان من بين المعجبين بها الأديب الكبير جورج أطلس ، وهو حمصي المولد ، سكن أوروبا ونال الجنسية الانكليزية ، ثم انتقل إلى أميركا ، وحل في كندا ، وكان يجيد إحدى عشرة لغة ويستطيع الخطابة بها ، بالاضافة إلى اللغات التي يلم بها . أعجب هذا الأديب بجرأة سلوى وصراحتها في التعبير والانتقاد ، فعاد سنة ١٩١٢ إلى أوروبا ، ومنها

إلى حمص ، وهدفه الأول معرفة هذه الفتاة التي أحبها من خلال كتابتها .
وفي حفل كبير أقيم على شرفه ، أجال طرفه في الحضور ، وتقدم بخطى ثابتة نحو سلوى سلامة ، ودليله فراسته فقط ، فتعرف إليها وباح لها بما يكنه قلبه من مودة واعجاب وتقدير ، وفي سنة ١٩١٣ تزوجها وسافرا إلى أوروبا ، وظلا سنة ينتقلان في ربوعها ، وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى قصدا البرازيل وحلا في سانباولو ، وفي أول حزيران سنة ١٩١٤ أنشأت سلوى مجلة «الكرمة» ، وهي مجلة علمية تاريخية أدبية فكاامية انتقادية ، فلاقت رواجاً كبيراً واقبالاً شديداً ، ودرت عليها أموالاً وفيرة ، لما كانت تتمتع به سلوى من موهبة أصيلة وسمعة حسنة ، وكانت المجلة النسائية الوحيدة في المهجر ، استمرت في الصدور خمسة وثلاثين عاماً دون انقطاع ، وكان زوجها ينضد حروف مجلة الكرمة وجريدته «الزهرراوي»^(١) في منزله ، حيث أفرد غرفة خاصة للحروف وعدة الطباعة ، وهكذا عمل الزوجان في حقل الصحافة بوقت واحد ، وكان منزلها ندوة دائمة لمعظم أدباء المهجر .

وعلى الرغم من وفاة زوجها سنة ١٩٢٦ ، وهو مسافر في الأرجنتين ، تاركاً لها ستة أولاد ، أصغرهم في الشهر الأول من عمره ، فقد استطاعت أن تنهض بهذا العبء الثقيل وحدها ، في تربية الأولاد ، وإصدار الكرمة التي لم تتوقف حتى وفاتها عام ١٩٤٩ . كذلك ألقت ثلاثة كتب هي «المن والسلوى» و«كلمات خالدة» و«تاريخ البرازيل» ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الخطب ألقتها في عدد من المناسبات .

احتفلت الجالية العربية في البرازيل بيويل مجلة الكرمة الفضي عام ١٩٣٩ ، فجمعت مبلغاً من المال وفي بنفقات الحفلة الرائعة التي أقيمت لها ، وخصص المبلغ الباقي لشراء منزل لائق تقطنه مع أولادها الأذكىاء ، قُدم لها مفتاحه الذهبي في الحفلة نفسها ، وحضر الحفلة عدد كبير من الأدباء والصحفيين وأبناء الجالية ، وكان ابنها «جوليو» محرر القسم البرتغالي في جريدة «الأنباء» التي كان يصدرها الدكتور عبد اللطيف اليونس في سانباولو ، قبل انتقاله إلى الأرجنتين وإصدار جريدة «الوطن» في عاصمتها ، كما كان الشاعر نبيه سلامة ، نسيب سلوى ، محرر القسم العربي .

لقد أجمع الناس في الوطن والمهجر على احترام السيدة سلوى سلامة ، وتقدير ما

تحلت به من أدب وتقى وصلاح ، وكانت مثال الزوجة الوفية لزوجها ، أحسنت معاملته ، وحفظت عهده ، وأحيت ذكره بعد وفاته ، فنشرت له مجموعة من الخطب أحسن في التقديم لها الأديب الحمصي داود شكور .

كانت سلوى شديدة الذكاء ، حاضرة البديهة ، سريعة الخاطر ، تفهم حتى من الإشارة ، ومما يُروى عنها أن الشاعر القروي - وهو من عشاق التورية والتلاعب بالألفاظ - كان يتناول الطعام يوماً على مائدتها ، فالتفت إلى زوجها وسأله أن يعطيه قلبه ، فلم يفتن إلى قصده ، ولكن سلوى بخاطبته قائلة : « أعطه السَّلطة ! » .

يقول توفيق ضعون في كتابه « ذكرى الهجرة » ، وكان أحد المشاركين في حفلة تكريم سلوى سلامة : « . . . وقد اشتركت في حفل اليوبيل ، بالأصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن ابنة الخال الأدبية ماري يني عطاالله المقيمة في سانتياغو عاصمة تشيلي ، فقد عهدت إلي أن أقدم للمحتفى بها ، باسم أولادها الثلاثة : منيرفا (وهو اسم المجلة التي كانت تصدرها في بيروت) ، وأدونيس ، وغاندي ساعة يد ، فقامت بهذه المهمة ، وأرفقت الهدية التذكارية بهذه الأبيات :

أولادُ ماري يا صديقةً قدموا	هذي الهديةً للولا تذكارا
عرفوكِ عن بعدٍ بأختك أمهم	ولطالما هتَكَ الهوى أسارا
زرعتِ ودادك في صميم قلوبهم	والحقلُ خصبٌ أنتج الأثمارا
هي ساعةٌ نباضةٌ كقلوبهم	بالذكر ليلاً والحنين نهارا
أسمائهم نُقِشتْ عليها مثلما	وجدتِ رسومهمُ بقلبكِ دارا
فتذكرهم كلما استنبأتها	فَوَقَّتْكِ إخلافاً يجرُّ العارا
وتقبلها من يذي أنا خالهم	وأخاك ساعة قلدوك الغارا

وقال في مناسبة أخرى يشيد بذكر مجلة الكرمة ، وكتاب صاحبها «المن والسلوى» .

يا «كرمة» أسكرتِ بالراحِ أنفسنا	فكان سُكْرٌ ولكنْ يُفْضَلُ الصحو
المنُ يا قوم والسلوى (لمَّاظَيْهَا)	وللحزين إذا اشتد الأسى «سلوى»

تلك هي سلوى سلامة أطلس التي كانت مجلتها الكرمة رائدة المجلات النسائية

في المهجر ، ومهدت الطريق لزميلتها مريانا دعبول فاخوري لانشاء مجلة «المراحل»
فيما بعد ، وكانت في طليعة أدبيات المهجر عامة كما هي بني عطالله ، وسلمى
صائغ ، وأنجيل عون شليطا ، ونجلا أبي اللمع معلوف وغيرهن .

* * *

(١) عندما علق السفاح جمال باشا أحرار العرب على أعراف المشانق سنة ١٩١٦ ، وبينهم الشهيد عبد الحميد
الزهرابي صديق جورج أطلس الحميم ، أصدر على الفور جريدته التي ساهم الزهرابي تقيدا له ، ونظم فيه قصائد
ثورية لاهبة .

سلوى محمصاني مومنة

(١٩٥٧ - ١٩٠٨)

ولدت في بيروت سنة ١٩٠٨ في بيئة تحب العلم ، وتهوى الأدب ، وتلتق علومها في كلية المقاصد الاسلامية للبنات ، ثم في كلية القديس يوسف الفرنسية للبنات أيضاً ، ودرست اللغة العربية على العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني . عملت في حقل التعليم ، فدرّست اللغة العربية وآدابها في كلية المقاصد التي تخرجت منها ، مدة ثلاث عشرة سنة .

تفتحت مواهبها على الكتابة والتأليف في سن مبكرة ، فكتبت أولى مقالاتها في مجلة «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية ، وكانت أصغر الكاتبات اللواتي حملن القلم في ذلك العهد مثل ماري يني عطاالله ، وسلمى صائغ ، وحبّوبة حداد ، ونجلا أبي اللمع وغيرهن ، فنشرت في جريدة «السياسة الاسبوعية» التي كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل في مصر تحت اسم مستعار ، ثم مجلة «صوت المرأة» اللبنانية .

تزوجت عام ١٩٤١ من السيد محمد عزيز مومنه ، صاحب المدرسة العزيزية ، فكانت له خير رفيق ومعين . ورغم أنها لم ترزق أطفالاً ، فقد أحبت الصغار ، وبرعت في تأليف الحكايات الجميلة لهم ، ومن قولها فيهم : «ما أرى القلوب عند الصغار ، إلا كنهاج من قلوب الكبار . . . بعضها كالزجاج إذا كسر لا يلتئم ، وبعضها ككرة المطاط ، فهي تعود إلى شكلها الأول مهما ضغطنا عليها . . .» .

أصدرت مجموعة قصصية واحدة بعنوان «مع الحياة» وتركت عددا من المقالات المنشورة في الصحف والمجلات ، دافعت فيها عن حقوق المرأة العربية ، وقد عثرت على بعض هذه المقالات في مجلد السنة الثامنة لمجلة «صوت المرأة» التي كانت تكتب فيها دائماً عام ١٩٥٢ ، فلا تكاد تمر مناسبة دينية أو اجتماعية أو قومية ، إلا ويتحرك قلمها فيها . تقول في ذكرى المولد النبوي الشريف ، الذي كانت تحببها كلية المقاصد كل عام : «ولكن ذكريات البطولات مع أمجادها جميعاً ، ما هي إلا شموع خافية الأشعة أمام الضياء الأعظم من سناء محمد بن عبد الله ، وانها لتتضاءل أمام ما تحمل هذه الذكرى المباركة من مثل عظيمة ، تثير في النفس الاحساس بالاكبار والتعظيم ، وترسم من الأخيلة صوراً تملأ القلب خشوعاً وتمجيداً» .

وتتحدث عن معنى الايمان الحقيقي عند البشر ، فتبين أنه عندما يملأ القلوب ، يصوّب قوس الانسانية نحو الخير ، ويوجه ميولها نحو الصلاح ، ويسمو بمناها نحو

الحقائق الرفيعة ، فتتكشف عن البصائر حجب من زيوف الحياة ، ليستقر نور الاله في أعالي الكمال .

وإذا مر أسبوع المرأة ، راحت تنعته بأسبوع الكرامة الوطنية الشاملة ، لأن نهضة المرأة للمطالبة بحقوقها ، دليل على اكتمال الشعور الوطني العام ، وتشبعه بالعزة القومية التي تليق بالشعوب الناهضة ، وهي تطلب الحياة .

وتؤكد في مقالها أنه ما من كرامة لأمة الا بتحرير جميع أفرادها من عقد نفسية تشعر أصحابها بالضعف ، وبالذونية دون سائر أفراد الشعوب . . . وهكذا تخرج من موضوع تحرير المرأة ، إلى تحرير الشعوب المستعبدة قاطبة ، لأنه «لا يليق بانسان كريم ، ولا بشعب عزيز ، أن يتأخر عن أخذ حقه ، ولا أن يتركه بأيدي الظالمين» .

وترى السيدة سلوى محمصاني أن المجتمع لا ينهض إلا إذا تحرر جناحه الآخر - وهو المرأة - من العبودية ، وتربط بين تحرر المرأة وتحرر الوطن ، وبين استقلالها الذاتي واستقلاله فتقول : «وما نهضة المرأة إلا نتيجة حتمية لهذا الشعور الكريم بوجود استقلال الذات ، واستقلال الوطن» .

وتهاجم بحدة الأوساط الرجعية المتحجرة التي تقف في وجه تحرير المرأة ونيلها استقلالها وتؤكد أنه «عندما تسفر الحركات الفكرية عن النهضات الحقيقية ، لا يمكن حينئذ للرجعية المتحجرة أن تصمد في طرق معاكستها . ان النهضات لا تقاوم بالأفكار البالية ، والأوهام الواهية» .

ولا تكتفي بهذا بل تطالب باعطاء المرأة حقوقها السياسية واشراكها بالعمل في جميع الميادين الوطنية ، لأن ذلك «خطوة حاسمة في طريق التحرر الكامل من بلبلة الماضي وظلمة جهالته» .

ولا تشك السيدة محمصاني بأن العفة والصيانة تنموان عند المرأة الفاضلة خارج الحجر المظلمة بالأوهام ، وأنها كثيراً ما تضعفان داخل ستائرهما المسدولة من الجهل والخرافات .

وتختتم مقالها باظهار الدور المهم الذي تلعبه المرأة في الحياة ، فهي «التي تخلق الشعب الذي ينهض ، وتوحي المدنية التي تنشأ ، وتلهم الفكر الذي يضيء ، والعقل الذي يعلم ويقود . . .» .

وتتحدث في مقال آخر عن أثر النظام في حياة الفرد والمجتمع ، فتبين أن الارتجال

وعدم مراعاة الأنظمة والاستهزاء بالقوانين ، من أهم عوامل الفساد ، وأن النظام في كل مجتمع دليل على مقدار رقيّه وحضارته ، لأنه ميزان العدل والأمن والاستقرار ، وعنوان الحياة العقلية القائمة .

وعندها أن كل ما في الطبيعة يسير حسب نظام دقيق عجيب ، يرتكز على أسس علمية ثابتة ، ولولاه لتزلزل الكون وماد ، وما الانسان إلا من هذا الكون الذي يكمله النظام .

وتلح على نقد المجتمع الاتكالي اللامسؤول ، الذي يلقي كل فرد فيه التبعة على غيره ، دون أن يقرر حظه من هذا التقصير ، وقسطه من هذا التشويش ، وتضرب مثلاً على ذلك أنها حضرت يوماً اجتماعاً لأحدى الجمعيات ، سادته كثير من الفوضى ، فكان كل فرد ينتقد هذا الاضطراب السائد ، ويلوم الجميع إلا نفسه ، مع أنه كان من مسببي هذا الفساد ، وتعلق على ذلك بقولها : «ان هذا الاجتماع ليس إلا صورة لما نراه في سائر أعمالنا من قلة التنظيم» .

وتضرب مثلاً آخر على التنصل من المسؤولية ، والقاء تبعاتها على الآخرين من صميم عملها كمدرسة فتقول : «عندما يرسب أحد التلامذة ، لا ينظر الأهل إلى الإهمال الذي اقترفوه بحق الولد ، ولا إلى اللامبالاة التي أبدوها للتلميذ ، بل يوجهون النقد إلى المدرسة ونظامها متناسين واجباتهم نحو الدرس والتدريس ، فتحصل البلبلة ، ويكون التقصير» .

وتنهي مقالها في النقد الاجتماعي بالاصرار على أن يتعود الطفل النظام منذ الصغر في البيت والمدرسة والطريق ، تحت حراسة المرأة ، ومشاركتها عقلياً وعملياً داخل البيت وخارجه ، ومن تنمُ عنده مزية العدل ، فهو يعرف واجبه ، كما يعرف واجب غيره ، ويعرف خطئه كما يعرف خطأ غيره ، لأنه يستطيع ارجاع الأمور إلى نصابها ، وحكمتها في هذا الموضوع أن «مصارحة النفس بالخطأ ، أولى خطوات الإصلاح : اصلاح الفرد ، واصلاح المجتمع» .

لقد كان هدف سلوى محمصاني مومنه اصلاح المجتمع ، بدءاً بالفرد ، فإذا حرص الفرد على ضبط سلوكه ، وتقييد تصرفاته ، ووجهها نحو الأكمل والأفضل والأحسن ، اقتربنا من المجتمع المنشود .

عائلة بيهمر الجزائري

(١٩٧٥ - ١٩٠٠)

«إذا كنا نريد لبلادنا أن تنمو وتزدهر ، ولشعبنا أن يحقق التقدم والنصر ، فلا بد أن تأخذ المرأة دورها كاملاً ، وأن تتهيأ لها كل العوامل التي تمكنها من أخذ هذا الدور . من أجل هذه المعاني كانت يقظة المرأة بداية درب عادلة بيهم الجزائري» .
الرئيس حافظ الأسد

ولدت السيدة عادلة بيهم الجزائري في بيروت عام ١٩٠٠ في بيت عريق بعروبتة ، فقد كان عمها مختار بيهم ، والدها عبد الرحيم بيهم من كبار المناضلين الوطنيين ضد الحكم التركي الغاشم .

نما عندها الشعور القومي في سن مبكرة ، فلما تأسست الجمعيات السرية من المفكرين والسياسيين والنواب والعسكريين للدفاع عن الوجود العربي ، اتصلت بهذه الجمعيات وآزرتها ، وكتبت عدة مقالات وطنية في صحيفتي «المفيد» لعبد الغني العريسي ، و«الفتى العربي» لعبد الغني العريسي وفؤاد حتس بتوقيع «الفتاة العربية» تحت فيها الفتيات على العمل مع الرجال يدأ بيد .

وفي عام ١٩١٥ أسست مع رفيقات لها جمعية «يقظة الفتاة العربية» لايقاظ الشعور القومي عند المرأة ، وتعليم الفتيات الفقيرات ، كما اشتركت في تأسيس «جمعية الأمور الخيرية للفتيات العربيات» ، وكان لهذه الجمعية ناديها ومدرستها ، وترأست عام ١٩١٦ لجنة تشرف على دار للصناعة تقدم وجبة طعام وأجوراً للعاملات ، وقد ضمت هذه الدار ألفاً وثمان مئة عاملة يعملن في مختلف الحرف اليدوية .

وحين زارت بيروت بعثة الموفد الأميركي «كرين» عام ١٩٢٠ للاستفتاء حول الاستقلال ، قابلته السيدة عادلة ، وطالبت بالاستقلال التام للبلاد العربية ، ورفضت أي شكل من أشكال الوصاية أو الحماية أو الانتداب ، ولما وقع الاحتلال الفرنسي شاركت في المقاومة السرية ضده ، وراحت تمد ثوار الثورة السورية بالمؤن واللباس والعلاج ، واشتركت في المظاهرات على مدى ربع قرن ، حتى تم الاستقلال ، كما اشتركت مع عدد من المواطنات بتأليف لجنة لإغاثة ومساعدة عائلات الثوار وأبناء الشهداء .

وفي عام ١٩٢٧ اشتركت أيضاً في تأسيس جمعية «يقظة المرأة الشامية» لتشجيع اليد العاملة النسائية في الريف ، وإحياء الصناعات اليدوية ، وفي تأسيس جمعية «دوحة الأدب» ومدرستها عام ١٩٢٨ لتنشئة الفتاة العربية الجديدة تنشئة وطنية

صحيحة ، وتربيتها تربية قومية سليمة ، فلم تنل الترخيص إلا بعد مضي ثلاث سنوات ، ولا تزال هذه المدرسة حتى اليوم منارة للعلم والأخلاق الوطنية .
وفي عام ١٩٣٣ أسست الاتحاد النسائي العربي السوري الذي ضم إحدى عشرة جمعية نسائية سورية ، وقد أسهم هذا الاتحاد برئاستها وتوجيهها بتأمين العيش للعمال المضربين أيام إضراب عام ١٩٣٦ الذي استمر خمسين يوماً ، وفي مشروع إنعاش الريف ، وفي المؤتمر الفلسطيني الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٨ بدعوة من السيدة هدى شعراوي .

وفي عام ١٩٤٤ انضمت تسع جمعيات أخرى إلى الاتحاد النسائي ، وانتخبت عادلة بيهم الجزائري رئيسة له ، بغية الاشتراك في مؤتمر الاتحادات النسائية العربية في القاهرة ، فانبثق عنه الاتحاد النسائي العربي العام الذي انتخبت السيدة عادلة رئيسة له أيضاً وأصبح مقره دمشق ، وظلت تشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٦٧ .
وبعد أن تم الجلاء ونالت سورية استقلالها عام ١٩٤٦ اتجهت السيدة عادلة بيهم الجزائري للتفكير بقضايا المرأة وتوعيتها وطنياً وقومياً ، فطالبت بحقوق المرأة السياسية ، وقدمت عدة مذكرات لرؤساء الجمهورية والمسؤولين لتسلافي بعض الثغرات في قانون الأحوال الشخصية في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات والراتب التقاعدي بعد الوفاة ، وإفساح المجال أمامها في الوظائف القضائية والتنفيذية . . . حتى تحققت هذه المطالب كلها ، كما مثلت الاتحاد النسائي في لجنتي تحرير وانقاذ فلسطين .

وفي عام ١٩٢٩ مثلت سورية في لجنة حقوق المرأة التابعة للأمم المتحدة ، وحضرت المؤتمر الثاني للاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في بيروت ، وفي عام ١٩٥٤ أيد الاتحاد النسائي برئاستها ثورة الجزائر وقام بجمع الأموال من أجل هذه الثورة ، وفي عام ١٩٥٥ أسهم الاتحاد في جمع التبرعات لدعم أسبوع التسليح ، وكانت السيدة عادلة عضواً في اللجنة المركزية العليا ، وفي اللجنة التنفيذية لهذا الأسبوع .

وفي عام ١٩٥٦ ترأست وفداً لحضور حلقة دراسية لحقوق المرأة أقامتها الأمم المتحدة في موسكو ، فاستقطبت السيدة عادلة أنظار معظم المندوبات بخبرتها وحنكاتها ، وتدارساً معاً موضوع عقد مؤتمر نسوي آسيوي - أفريقي ، وانتخبت رئيسة للجنة التحضيرية فيه .

وفي عام ١٩٥٧ عقد الاتحاد النسائي العربي العام مؤتمره الرابع في دمشق لمناقشة وضع المرأة ودورها في الوطن العربي ، فانتخبها الوفود المشاركة رئيسة للاتحاد النسائي العربي بالاجماع ، وأصبحت دمشق المقر الدائم لمكتب الاتحاد حتى عام ١٩٦٣ .

وفي عام ١٩٦٠ تلقت دعوة الاتحاد النسائي الصيني لزيارة الصين الشعبية وحضور العيد الوطني في بكين ، فلبت الدعوة ، كما لبت دعوة جمعية عموم نساء الهند في دلهي ، وفي عام ١٩٦١ اشتركت مع وفد الاتحاد النسائي العربي السوري في المؤتمر الآسيوي - الأفريقي الذي عقد في القاهرة ، وفي عام ١٩٦٦ عينت في المجلس الوطني لقيادة الثورة في سورية ، كما دعيت عام ١٩٦٩ لحضور حفل اليوبيل الذهبي لاشتراك المرأة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩ ، وفي عام ١٩٧٣ للمشاركة في اليوبيل الذهبي لتأسيس الاتحاد النسائي المصري في القاهرة .

* * *

هذا غيظ من فيض من الأعمال الجليلة التي اضطلعت بها السيدة عادلة بيهم الجزائري ، وقد كانت في هذه الأعمال كلها مثال الفائزة بالحكمة التي لا تجازف ولا تنهور ، والرائدة الرزينة التي تشق طريقها ، فلا تنهاون ولا تتخط . . . وكانت مخلصه وفية للشعب ، فحفظ لها الشعب هذا الاخلاص وهذا الوفاء .

كانت - كما تقول ابنتها السيدة أمل - «طليعية في تأليف القلوب ، وتوحيد الصفوف ، ولما أدت رسالتها في وطنها الصغير التفتت إلى وطنها العربي الكبير ، فقامت مع أعلام الأقطار العربية تجمع الشمل وتوجه الخطى للسير في طريق النضال من أجل المرأة وحق الشعب» .

كانت تؤمن أنه لا نهضة ولا تقدم إن ظل نصف المجتمع مشلولاً جاهلاً يقبع في الظلام ، وظلت طوال حياتها وفية لهذين الهدفين العظيمين : الوطني والاجتماعي ، إلى أن لقيت وجه ربها في الثالث من كانون الثاني ١٩٧٥ ، وقد منحها السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية ، نتيجة لهذا الجهاد الدائب والجهود الحثيثة المضنية وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة بتاريخ ٦ / ٥ / ١٩٧٥ وسُميت باسمها مدرسة ثانوية في حي المهاجرين بدمشق ، تقديراً لكفاحها الطويل ، وخدماتها الكبيرة في سبيل تقدم المرأة العربية .

عزیزة ہارون

(۱۹۸۶-۱۹۲۳)

الزمان ١٩٢٣ والمكان حي القلعة في مدينة اللاذقية . . الناس يقبلون على منزل
الحاج عمر هارون يهثونه بالمولودة الشقراء ذات العينين الخضراوين والوجه
الجميل . . اسمها عزيزة . . هكذا راح الوالد يجيب سائله في موجة من الغبطة
العارمة والفرح الغامر . .

لم يتشام من البنت إذ بشر بها ، ولم يسود وجهه وهو كظيم كما اعتاد أن يفعل
بعض الجهلة منا . . كلا . . بل انه سرور . . متفائل . . سعيد . . لأن
أمارات النجابة والذكاء بادية على سيمائها . . انها حركة ، نشيطة . . رضية
الطباع ، فلا تزعج البيت بالبكاء . . يا لها من شاعرة طفلة تحس بأعباء أمها المتعبة
فتوفر لها النوم الهنيء . .

وتكبر الطفلة سريعاً وينمو جسمها . . سنوات وإذا طفلة الأمس صبية يافعة ،
يانعة كالزهر الندي . . ينظر إليها الناس بنهم لا يرتوى . . وقبل أن تنهي دراستها
الابتدائية أخذ الأنساب يتهافتون على طلب يدها . . لا . . لن ينتظروا أكثر فرمما
حليت الضبية الحسنة في أعين الآخرين . . لنخطبها إذن من والدها . . وهكذا
كان ، فليس بين الأقرباء تكليف ، والخطاب ابن عمها . .

غير ان الصبية التي لم تنهياً جسمياً ونفسياً وفكرياً للزواج المبكر سرعان ما تأنف
من حياة الزواج للتفاوت الكبير في السن والعقلية والمزاج . . ولم يمض غير أشهر
وإذا الفتاة تعود لبيت أبيها لتستأنف سيرتها مع الكتاب الذي أحبته فأخذ يشغلها عن
كل شيء . . تقرأ الشعر وتحفظ أجوده ضاربة عن الزواج صفحا . .

وتخرج مرة برفقة أبيها للتجوال في الطبيعة ، فيعن لها أن تقطف زهرات تصفرها
باقية . . تزين بها طاولتها المليئة بأشتات الكتب ، بيد أن الذبول سرعان ما عصف
بالزهرات فتأسى وتحزن لمصيرها ثم تردف قائلة لأول مرة :

بنت الطبيعة ما دعاكِ إلى الذبولِ المسرعِ

فلئن حزنتِ على الندى فخذِي الندى من أدمعي

والشعرُ عندي روضةٌ بجهاها فتمتعي

قلبي إليك هدية والشعر أئمن ما معي

ولهت قلبي بالاسى ، ذكرتني في مصرعي .

انها شاعرة ! هكذا راحت العائلة تردد . . وسرى الخبر بسرعة البرق بين

الجيران والأقرباء ، ثم في الأوساط الصحفية والأدبية . . هذه هي قصة السيدة عزيزة هارون مع الشعر ترويحاً لسائلها : كيف صرت شاعرة ؟ . . وتشرق بالدمع كلما ذكرتها بحياتها الخاصة ، لأنها لا ترجوها لامرأة ، وبخاصة المرأة التي تريد أن توفق بين فنها وحياتها الزوجية . .



يقسم شعر عزيزة هارون إلى ثلاثة أقسام : وجداني ووطني واجتماعي ، غير أن شعرها الوجداني يفوق شعرها الوطني من حيث الكمية والنوع ، وإن طابع التجديد يسم معظم قصائدها . . صحيح أن عزيزة بدأت بداية كلاسيكية ولكنها اتجهت إلى التجديد اتجاهها واضحاً كفدوى طوقان ونازك الملائكة وسلمى الخضراء الجيوسي ، وهو في شعرها الوجداني أوضح وأظهر بكثير ، لأن جل شعرها الوطني قيل في الحفلات الرسمية والمهرجانات العامة ، والمناسبات القومية التي تتطلب شعراً عمودياً يحرك ضمائر الجماهير بموسيقاه الصاخبة وقوافيه المنحدرة انحدار السيل يهبط من عل كما في قصيدتها «أقبال» - شاعر باكستان الأكبر - و«جزائرية مناضلة» . ومهما يكن من أمر فتجديد عزيزة هارون يختلف كثيراً عن تجديد بعض اللبنانيين في أنها رغم ترمدها على الوزن والقافية الواحدة لم تستهن باللغة ، ولم تلجأ إلى التعمية الناتجة عن الرمز ولم تطعم شعرها بالرؤيا الخضارية التي اجتذبت جماعة التجديد المتطرف من تأثروا بالفكر الأوروبي الحديث . . ومن يدري فلو أتيح لعزيزة أن تطلع على صراع هذه التيارات العالمية وانسرابها في مدارس ومذاهب لا تحصى لأكسبت شعرها بعض العمق . . من هنا تبدو ضرورة الثقافة الأجنبية للشاعر وعدم الاكتفاء بالاطلاع على الأدب المترجم .

لقد استلهمت عزيزة الشعر من حياتها المضطربة المتألمة ، من تجربتها الخاسرة مع الرجل ، من غربتها القاسية ، من حيرتها وضبابها وقلقها وهمومها . . من مصيرها مصير الزورق بلا شراع ولا مرفأ . . ألوان حياتها هي التي لونت شعرها كما تقول ، فجاء قائماً حيناً وزاهياً غير حين ، باسماً ومكتشياً ، ضاحكاً وعابساً . . تبرد سماؤها بالغيوم فتتهتف :

متى يا تراب ؟
تضمُّ كياني . . بغير عذاب
صحارى . . جياتي . . عواءُ ذئاب
وكلُّ حياتي
سراب . .
بفجر شبابي . . ضممتُ الأغاني
إلى النازحين
ضممت كنوز الجمال الأبي
إلى العارفين
ولكن . . لصوص الحياة
استبدوا بكل الضياء الثمين
ركنت أغني . . وأبكي ضياعي
بذوب الحنين
وكل انتحاي . . ذوى واكتثاي
واغلقت بابي . . .
متى يا تراب ؟ . . .

سجينة في قفص قيودها . . تريد الانطلاق وليس من ينطلق معها في
الدرب . . تريد أن تحلق في سہاوات الحب الذي لا يعرف الحدود ولا السدود . كما
تهوى . . حرة . . لا تثقلها مواضع البشر ولا سخافاتهم وتفاهاتهم . . تريد
وما أكثر ما تريد ولكن :

وهذي القيود بدري وأي حبيب يطير معي
وقلبي يضم الوجود

وهذا الهوى كانطلاق العبير يثير
يسير ويأبى الركود

أطير بهذا الفضاء الرحيب وأي حبيب يطير معي
وهتف في مسمعي أن أعود
أعود إلى أين يا صاحبي لأي مكان
وليس لقلبي زمان وليس لروحي حدود
أعود إلى الأرض . . لالذ أعود . .

هكذا يبدو تجديد عزيزة . . في الشكل والقالب ، وليس في المضمون ، في
الهيكلة والصورة وليس في الروح . . في رقص القوافي وتمزقها على ضفاف
السطور . تأتي أن تجس فكرة ، أو تعيق حركة خاطرة . يفيض بها الطبع الشعري
السليم :

على رعشة من شعاع أسير
وبعضي يلهم بعضي
وأمضي

أسير ومني العبير يذوع بأرضي

* * *

أهيم لحبي وافتح قلبي لكل الوجود

فأبصر دربي

وكيف أعيش بنور الشموع وشمسي بين الضلوع

تريد السطوع

وناري سر انطلاقي وسر انعتاقي ومنها انبشاقني !

وعلى هذا النهج يسير معظم شعر عزيزة الغزلي ان لم أقل كله ، ولعمري لا اخطيء
إذا قلت ان هذا الضرب من تلوين القوافي ومناوحة الأبيات بين طويلة وقصيرة ،
يعطي صورة طبق الأصل للنفس الشاعرة المحبة التي تحيا نوعاً من الفبذبات غير
المنتظمة ، فهي ماثجة تروح وتغدو كالجزر والمد . .

ان الشعر الحر الذي يعتمد على تلوين القافية - تتوج البيت الشعري حيناً ،
والكلمة حيناً آخر - إنما يسير وفق الدفقات الشعورية وسايورها ، فعندما تكون
الدفقة الشعورية عارمة يمتد البيت ويطول ، وعندما تأتي واهنة ضعيفة يقصر
ويتقلص إلى حدود الكلمة الواحدة :

أسلج من نفسي الوارفة
لأغمر بالسحر والعاطفة
أنا خائفة

من العين دنيا حنان وحب رحيب
من النور يلمع بين ثنايا حبيب
من الوجد ناراً ودنيا ولوع

ومن حركات الدموع
إذا التهب في يدي الشموع
أغمر نعمتي به

وأوغل في قلبه
وأنعم في حبه

وأدخل في قابه
منى راعفه
أيسجن شوقي وحيبي
ويقفل قلبي
على عاصفه ؟
أنا خائفه !!

قد تمر بعزيزة فترات صمت وهدوء ، تسكن فيها النفس سكون الطبيعة بعد
العاصفة . . . تمهد انفعالاتها . . . تموت . . . وتتأبى على الثورة . . . تخرس صوت
وجدانها لتعيش لحظة تأمل نفسي حالم ، تزجر القلق الذي لا يفتأ يمرمرها ، لتغرق
في خضم النغم الدافئ نغم الموسيقى الكلاسيكية ، فيوحى إليها هذا الاستغراق
بقصيدة «شلال» :

أحبه من غير أن أفهمه	شلاله	الحنان
يظل في حيرته	مولها	ظمان
أوتاره من اللظى	كأنها	بركان
ملوناً ابداعها	يا لهفة	الألوان
أحبه من غير أن أفهمه	شلاله	الحنان . .

بوركت أيها الحب ما دمت تخلصب النفوس ، وتنطق الأحاسيس المبهمة بأعذب
الشعر .

* * *

أما شعرها الوطني فليس له غضبة شعر الدكتورة طلعة الرفاعي ولا جلجلته ،
إلا أنك نحس بالنقمة الدفينة تنفجر منه ، تقرؤه فتشعر بالقساوة من غير عنف ، بالنار
تحرق من غير فرقة ولا دخان . . . ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الطبيعة النفسية عند
كل منها : فعزيزة مستسلمة تغزو شعورك من حيث لا تدري ، وطلعة متأبية ،
ثائرة . وإذا كان الشعر القومي يحتاج - أكثر ما يحتاج - إلى التأبي والثورة فطلعة
لاشك تسبق عزيزة في هذا الميدان ، فمن شعر عزيزة الوطني قولها في قصيدة
«ثائرة» :

ان في قلبي آلام بلادي حزن قومي في فؤادي
ومتى تعسبى بالسطيب تنادي للجهاد
وكأن النار في قلبي تغني ولهيب الشأر في اشعاع ناري
وأرى حلمي في ضوء النهار
يا رفيقي في المنى والوثبة الحمراء هيا انما الفجر تهبها
حان لي أن أتغني هات لي ما أتمنى
أعطني السيوم سلاحي لا تبال في كفاحي
سأبأسي بجراحي انها ورد صباحي

شعرها الوطني شعر مناسبات ، يؤرخ للأحداث التي مرت بها سوريا خلال
السنوات الأخيرة ، ونظمت من وحيها قصائد رائعة عبرت فيها عن مشاعرها
بعفوية ومشاعر قومية بعامة ، منها قصيدة «غنية وحدة أمي» التي تقول فيها :

ماذا أرى يا موطني ماذا أحس وأشعر
قل لي بأن الوحدة الكبرى تعود فتزهر
قلني يهيم وليس لي إلا هوائك مسير
أهلي وأحبابي وخلافي فممن أثار ؟
جرح ينأم على العزاء وألف جرح يسهر
في سوريا قومي يثور على القيود ويزأر . .
وقصيدة «سورية» التي تقول فيها :

أغلى من الدم والدموع ديسارنا وأحب من نعم الجنسان كفاحنا
أشبالنا نسا نار الفداء وسحره والنار تعلم من همو أشبالنا
يسا سوريا عاش الكفاح ولم يزل هذا الكفاح به تشع ساؤنا . .
وقصيدتها «الوطن الكبير» :

قالوا ديارك فانشيت أعانق الفجر النضيرا
ولمحت في وهج العيون تماوجا وهوى أثيرا
ورأيت زغب الطير في الساحات توشك أن تطيرا

ولا تنسى الشاعرة أن ترمي بنظرها خلف حدود بلادها ، إلى الجزائر أرض
البطولات والكرامات الذبيحة ، لتعيش مع أحرارها معركة تحقيق الذات وتقرير
المصير . . فتقول بلسان «جزائرية مناضلة» :

لم لا أثور وكل شيء ثائر ضجت براكيني وضج سمعاري
أتهان في سجن الدخيل جزائري وتذل في أعماقه احراري
أنا ثورة الدنيا على آلامها أنا نقمة الدنيا على الأشرار
يا جرح خولة في جراح نسبية ونضال كعب في نضال نزار
أرفيقة الثوار ألف جميلة في دفقة التيار كالتيار

* * *

إلى جانب هذين اللونين المذكورين هنالك قصائد اجتماعية قليلة عبرت فيها عن
عطفها الكبير على الفقراء واليتامى والمشردين ممن فقدوا حنان الأم وعطف الأب .
ان حرمانها من نعمة الأطفال وامتعة ضجيجهم وموسيقى لغتهم ، لم يزدنها إلا
تأججاً وشوقاً إليهم . . ليت شعري أب شيء يبقى للمرأة إذا أجذبت دنياها .
وأفقر سريرها الصغير من صوت «ماما» يهددها ويترع حنجرتها بأبداع
الألحان ؟ . .

سئلت عزيزة عن أحب قصائدها إليها ، فأجابت دون تردد : قصيدتي «نداء
الأمومة» . . ولو بحثنا عن السبب لرأيناه يكمن في هذا الوجد المقيم والحنين
الصارخ من الأعماق كله لهفة وشوق إلى رائحة الأمومة . . هذه الלהفة المعذبة
المحرقة . .

اسمع عزيزة (الأم) تقول في قصيدتها «نداء الأمومة» التي أهدتها «إلى الطفلة
البائسة المحرومة من الحنان . . «إلى التي نادتنى (ماما) وتعلقت بي دون معرفة
سابقة . . إلى من فجر نداؤها في نفسي ينابيع حب عميق كنت أجهله . . إلى
«سامية» الطفلة الشاحبة الملهممة التي عصرت قلبي بنداؤها الحنون» :

أنا ماما يا بنيه

هكذا ناديتني

فانتشت بي آه

في كل حنيه

ياسخيه
أنت أغليت الهديه
أنت أترعت كؤوسي
بالنداءات النديه
فأنا ظمأى إليها
يا بنيه . .

وفي قصيدتها «حنان العطاء» تصور حالة مستعطية صغيرة مدت إليها الكف، تستجدي لكن الشاعرة لم تجد في حقيبتها إلا ما اعتادت المرأة أن تحمله من أشياء ترضي غرورها لأنها دفعت جميع ما تملك ثمن رداء جديد وعقد فريد . . وهكذا رجعت السائلة صفر اليدين ، غير ان خيالها الملحاح ظل يرافق الشاعرة ويسري في عظامها ، يبكتها ويشعرها بكابوس الندم والتوبة :

ومدت إلي يدا تريد نقودا

وتنشد جودا

فتاة صغيره

فقيره

فتحت الحقيبه ، ما في الحقيه غير عطوري

وأشياء ترضي غروري

وأين نقودي ؟

شريت رداء جديدا

وعقدا فريدا

تركت الفتاة ورائي

وسرت بثوبي الأنيق

لكن لمحت خيالا

بجو الفضاء الطليق

خيال الصغيره يمشي أمامي

بل في عظامي

ويشرب من قوتي

دموع الندامة والتوبة . .

تلكم هي الشاعرة عزيزة هارون صاحبة الصوت الدافئ بحمله الأثير من إذاعة دمشق ناقلاً إلينا أجمل ما تقرأ من أعذب الشعر قديمه وحديثه ، موضوعه ومترجمه . . تختاره بذوق رفيع وتنتقيه كما ينتقي الصائغ الحاذق خالص الذهب من خليطه . .

● توفيت في ١٢ / ٢ / ١٩٨٦ ، وقد قامت الندوة الثقافية النسائية ، بطبع ديوانها وقدم له كل من : الفة الإدلبي ، وعفيفة الحصني ، وعبد اللطيف الأرنؤوط .

السبأ - عدد (٤٢) في ١٩ حزيران ١٩٦٢

كلثوم عودة فاسيليڤا

(١٨٩٢-١٩٦٦)

ولدت السيدة كلثوم عوده فاسيليفا في بلدة الناصرة بفلسطين عام ١٨٩٢ ، وهي خامس بنت لأسرة تتلهف لأن يرزقها الله صيباً ، فاستقبلت يوم ولادتها بدموع الحزن والخيبة ، ورافقتها كراهة والديها زمناً طويلاً . كانت سمراء اللون ، حتى صار أهلها يعيرونها بـ«السوداء» ، ولما انكشمت على نفسها ، ولاذت بالصمت ، صاروا يعيرونها بـ«الست سكوت» ، ولكي تعوض عن هذا النقص الذي غرسه الأهل البسطاء فيها ، انكبت على العلم ، بالرغم من ارادتهم ، فالتحقت بالمدرسة الروسية أو «مدرسة الجمعية الفلسطينية الروسية» كما كانت تسمى ، وبعد أن تخرجت فيها عام ١٩٠٨ راحت تعمل مدرسة في المدرسة نفسها .

ولكي تهرب من جو الأسرة الخائق اقترنت سنة ١٩١٤ بطبيب روسي يدعى ايفان فاسيليف ، وسافرت معه إلى روسيا ، حيث درست فن التمريض خلال الحرب العالمية الأولى ، فلم يغفر لها والداها ذلك الذنب الذي اقترفته إلا بعد سنوات عديدة .

عملت ممرضة في الجيش الروسي الذي كان يقاتل في الصرب والجبل الأسود مدة سنتين (١٩١٤ - ١٩١٦) وبعد تقهقره عادت إلى روسيا عن طريق ألبانيا - فرنسا - أسوج - نروج - فنلنده - لتعمل ممرضة في الجبهة الروسية حتى عام ١٩١٧ ، ثم ذهبت إلى أوكرانيا لمكافحة وباء التيفوس الذي انتشر فيها .

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها عام ١٩١٨ حتى تركت مهنة التمريض نهائياً وسافرت إلى بطرسبرغ ، فالتحقت بقسم اللغات الشرقية في جامعتها ، وأخذت تعلم اللغة العربية تحت إشراف المستشرق الروسي الكبير أغناتي كراتشكوفسكي ، فتدرجت من رتبة أستاذ مساعد إلى رتبة أستاذ «بروفسور» ، وهي أول امرأة عربية تنال هذا اللقب . لكن فرحتها به لم تطل ، لأن زوجها توفي عام ١٩٢٠ ، تاركاً لها ثلاث طفلات كبراهن في السنة الخامسة من عمرها ، وصغراهن في الشهر الثاني ، لا معين لهن في هذا المحيط الغريب بالنسبة لها .

ظلت في بطرسبرغ حتى عام ١٩٤١ ، ثم انتدبت بعدئذ للعمل في جامعة موسكو ، حيث علمت ودربت عدداً من الطلاب الروس ، ليقوموا بنقل مختارات من الأدب العربي إلى اللغة الروسية ، وفعلاً ترجمت معهم مجموعة من الكتب العربية القيمة لمشاهير الأدباء العرب في العصر الحديث ، باذلة أقصى جهودها لنشر اللغة العربية في روسيا ، فقد علمتها لأناس كثيرين تخرجوا عليها ، واستلموا أرفع

المناصب من سفراء ، وأساتذة ، ومراسلي صحف ، ووكالات أبناء . ولم تكتف بذلك بل علمت اللغة العربية لحفيدها ، دليلاً على تأصل محبة هذه اللغة في نفسها .

زارت فلسطين عام ١٩٢٨ لتطلع على حالة النهضة النسائية في وطنها الأم ، ثم عادت إلى روسيا لتستأنف رسالتها السامية ، وتتابع العمل الذي نذبت نفسها إليه .

أ - مؤلفاتها :

- ١ - «المنتخبات العصرية لدراسة الآداب العربية» . طبع عام ١٩٢٨ ، وظل يدرس حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كأفضل كتاب مدرسي لتعليم اللغة العربية للأجانب ، واشتهر على نطاق واسع داخل روسيا وخارجها . .
- ٢ - «كتاب اللغة العربية للروس» طبع عام ١٩٣٦ .

ب - ترجماتها إلى اللغة الروسية :

- ١ - كتاب «الأرض واليد والماء» و«قصة قضية مجيد رحيم» للكاتب العراقي ذى النون أيوب عام ١٩٦٠ .
- ٢ - كتاب «القصص المصرية» عام ١٩٥٦ ، وكتاب «١٩ قصة مصرية» عام ١٩٥٧ .
- ٣ - ترجمت كتابين يضم الأول قصصاً مختارة لمجموعة من الكتاب السوريين ، والثاني قصصاً مختارة لمجموعة من الكتاب اللبنانيين عام ١٩٥٨ .
- ٤ - ترجمت نماذج مختارة من القصة العربية الحديثة ونشرتها عام ١٩٦٣ .
- ٥ - كذلك ترجمت معظم أبحاث «الموسوعة السوفيتية الكبرى» فيما يتعلق بالأدب العربي وأشهر أعلامه .

ج - ترجماتها إلى اللغة العربية :

- ١ - كتاب كراتشكوفسكي ، عميد مستشقي الروس ، عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي المصري (١٨١٠ - ١٨٦١) الذي يعتبر أول رجل عربي علم اللغة العربية في روسيا .
- ٢ - كتاب «حضارة العرب في الأندلس» .

- ٣ - لخصت دراسة كراتشكوفسكي عن أقدم مخطوط عربي في آسيا الصغرى .
- ٤ - ترجمت كتاب «تانيا» للأديب الروسي «ليدوف» ، الذي يتحدث عن بطولة الفتاة الروسية «كوساديميا تسكايا» في الحرب الوطنية .
- ٥ - مجموعة قصص عن لينين للكاتب «كونوف» .
- ٦ - كتاب «أساطير شعوب الاتحاد السوفيتي» .
- وتقديرا لهذه الجهود الكبيرة التي بذلتها السيدة كلثوم عودة في حقل التعليم وتعريف شعوب الاتحاد السوفيتي بالأدب العربي والعكس ، فقد منحتها الحكومة السوفيتية وسام «شعار الشرف» عام ١٩٦٢ بمناسبة بلوغها سن السبعين ، وكانت من قبل قد نالت الميدالية الذهبية مرتين ، تقديراً لبطولتها في الحرب .
- توفيت عام ١٩٦٦ عن أربع وسبعين سنة قضتها في العمل المضني والكفاح المتواصل في ميادين التمريض والتعليم والترجمة ، تاركة ذكراً لا يحصى بين طلابها الكثيرين وقرائها العديدين ، بينهم طائفة من كبار المستشرقين .
- وهذا نموذج من مذكراتها التي بعثت بها إلى الأديبة الفلسطينية أسمى طوي ، حينما عازمت على تأليف كتابها «عبير ومجد» ، وهو يبين قصة صراعها الدامي في الحياة ، ولاسيما بعد وفاة زوجها .
- «لقد كنت في ساحة الحرب في البلقان وفي روسيا ، ولكن ألم أكن سعيدة لمعافاة كل جندي أو لتخفيف آلامه ؟ لقد علمت . . . زرت الفلاحين في منازلهم . . . عالجتهم . . . طببت عيون أطفالهم عملت الأعمال الشاقة لأعيل نفسي وطفلاتي الثلاث ، فاستأجرت أربعة أفدنة من الأرض لأزرعها ، وكنت بالفعل أزرع وأسير وراء الحصادين لأجمع لفائف القمح» .
- «كان علي أن أزود الآلة البخارية التي تدرس القمح بالوقود ، وهو من القش والتبن يومئذ ، ويحتاج هذا التزويد إلى حركة دائمة تضني طوال النهار . . . في كل تلك الحالات كنت أحسب عيشي هنيئاً لأنني لم أشعر وطفلاتي بالجوع والعوز . . . لم يكن لدى وقت أضيعه بالملل والضجر . . . لم أعرف الاحتياج المادي أو النفسي حتى ابان تلك المجاعة الهائلة وتلك الحروب الفظيعة» .
- «مع الفلاحين لم يضع وقتي سدى . . . كنت أدرس أخلاقهم وعاداتهم عندما أفرغ من العمل في ليالي الشتاء الطويلة ، كنت ألقى عليهم المحاضرات في نظافة المنزل ، وفي بعض الأمراض البوائية والجلدية . . . كنت أقرأ لهم عن أمراض

المواشي فيجتمعون حولي مشوقين للسماع . . . كانت ثقة القرويين بي كبيرة والحمد لله ، فكنت أجمعهم أيام الأحاد وأحدثهم عن كل موضوع مفيد وكم كانت فرحتي كبيرة حينما أرى امرأة في الأربعين تكتب اسمها لأول مرة» .

«عندما توفي زوجي سمعت إحدى المعلمات السائرات خلفي في الجنازة تقول لرفيقتها . . . ما أتعس هذه المرأة ! لم يبق لها سوى أن تحمل «الكشكول» وتطرق الأبواب متسولة . . . فهي غريبة لا معين لها وطفلاتها يعقنها عن العمل ، وخاصة الصغرى ابنة الشهرين . . . ثم انها لم تصل إلى هذه القرية إلا من ثلاثة أيام» .

«لم أكن أشغل في عهد زوجي ، لذلك لم يعرفني أحد ، ولكن لم يكد يمضي عام حتى قالت تلك المعلمة نفسها . . . سعيدة أنت ، ما هناك !» .

«كنت في كل أدوار حياتي أعمل راغبة لا مكرهة . . . ولا أجد الراحة إلا عند تذليل المصاعب . لقد أحببت الناس كل الناس ، فكان اعطائي لهم هذا الحب باعشاً على سعادتي . . . كنت أعمل طوال الحرب الأهلية بلا أجر وأسعد بهذا . . . كل عمل كان شريفاً بالنسبة لي . . . لم أخجل من أي عمل كان ما دام هذا العمل لا يمس شرفي أو شرف سواي» .

«لقد علمني الرجل الكبير العلامة كراتشكوفسكي أشياء كثيرة جميلة عن شعبي العربي لم أكن أعرفها من قبل ، فزادت سعادتي بالأمل أنه لا بد لنا نحن العرب من مستقبل لا يقل مجداً عن الماضي» .

لبیبة هاشم

(١٨٨٢-١٩٥٢)

ولدت لبببة هاشم في بيروت سنة ١٨٨٢ ، وكان والدها يدعى ناصيف ماضي ، وتعلمت في مدرسة راهبات المحبة أولاً ، ثم في الجامعة الأميركية في بيروت . نزلت مع أسرته إلى مصر في مطلع القرن العشرين ، وهناك تعرفت بالأديبة وردة ناصيف اليازجي ، صاحبة ديوان (حديقة الورد) وأخيها العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي ، فدرست عليه اللغة العربية ، وتعلمت منه أصول كتابة الخط الفارسي الجميل ، فأجادته كل الاجادة ، وكان يشجعها على الكتابة ، مما حملها على انشاء مجلة (فتاة الشرق) في ١٥ تشرين الأول عام ١٩٠٦ . عينتها الجامعة المصرية خلال عامي ١٩١١ و١٩١٢ أستاذة في القسم النسائي ، وعهدت إليها بالقاء محاضرات في التربية ، فنالت محاضراتها كل توفيق ونجاح ، ويقال إن أحد أنسبائها حاول أن يجمع هذه المحاضرات في كتاب مستقل ، لكنني لم أعثر لها على شيء من هذا القبيل .

دعتها الحكومة العربية (حكومة الملك فيصل الأول) إلى دمشق سنة ١٩١٩ ، وكلفتها بوظيفة التفتيش في وزارة المعارف ، فقامت بهذه المهمة خير قيام ، وهو منصب رفيع لم يسبق لامرأة عربية أن تقلدت مثله . سافرت إلى سانتياغو عاصمة جمهورية تشيلي في أميركا الجنوبية سنة ١٩٢١ وأصدرت فيها مجلة (الشرق والغرب) في ١٥ أيلول سنة ١٩٢٣ ، لكن الم تلبث أن عادت إلى مصر في السنة التالية ، واستأنفت إصدار فتاة الشرق ، بما عرف عنها من قلم سيال ، ونشاط جم .

آثارها :

أصدرت لبببة هاشم رواية (قلب الرجل) سنة ١٩٠٤ ، وهي رواية اجتماعية ، تبدأ حوادثها في لبنان ، أثناء فتنة عام ١٨٦٠ ، ويتنقل أبطالها بين لبنان ومصر وأوروبا ، وتنتهي أخيراً في مصر ، فكانت المؤلفة أرادت أن تجمع بين هاتين البيئتين في قصة واحدة . تبدأ الرواية بغرام حبيب نصر الله - وهو شاب مسيحي من أبناء جبل لبنان - بفتاة درزية أنقذها من الموت .

أرادت المؤلفة من وراء هذه الرواية أن تظهر شهامة المرأة ، وتقلب الرجل وخداعه ، لذلك غلب عليها طابع الدفاع الصريح عن المرأة ، ولا غرو فقد كانت الكاتبة في طليعة اللواتي حملن القلم للدفاع عن المرأة الشرقية وحقوقها ، وقد

أصدرت مجلتها فتاة الشرق لهذا الغرض .
والحكاية قوية محكمة السرد - كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم - لكنها تعتمد كثيراً على عنصر المصادفات ، وتكثر فيها المبالغات الميلودرامية ، وتكرر حوادث الوفيات (وفاة فاتنة وسلمى ويوسف) كما ان نهايتها متكلفة بعيدة الاحتمال ، وشخصياتها حية واضحة الملامح .

اهتمت بتحليل العواطف تحليلاً ظاهرياً ، وحاولت تحليل الصراع الداخلي والحياة الباطنة للشخصيات وقد وفقت في معالجة العواطف العميقة التي ظهرت في حب روزة لعزيز .

أما أسلوب الكاتبة فجميل ومتقن ، ولعله من أجمل الأساليب القصصية في هذه الفترة ، وقد تخلصت من الوعظ والاستطراد إلى النصائح والارشادات ، كما اهتمت بتصوير البيئة والجو العام للحوادث ، وكثيراً ما كانت تمهد لها تمهيداً نفسياً ، يساعد على فهم الصورة العامة لها .

وهي تعتمد على الحوار ، ويعينها ذلك على احياء الشخصيات ، وبث النشاط في الحوادث ، وبالأجمال فهذه الرواية نعتبر في طليعة الروايات الاجتماعية التي كتبت في هذه الفترة .

وللسيدة لبيبة هاشم عدة قصص تاريخية واجتماعية قصيرة وأقاصيص ، نشرتها في مجلتها فتاة الشرق سنة ١٩٠٧ منها قصة (شيرين) التي اعتمدت فيها على ما ورد في كتاب الشاهنامه للفردوسي فيما يتعلق بهذه القصة العالمية التي دارت حول الأميرة الأرمنية شيرين التي أقسم الملك الفارسي كسرى أن يتزوجها ، ولكن القدر أبى عليها أن يتساقيا كؤوس الهوى والحب صافية ، وغايتها من هذه القصة أن تبين أن القاتل سوف يقتل ، وأن القدر لا بد أن ينتقم يوماً ما .

ومن أقاصيصها أيضاً (جزاء الاحسان) وهي وعظية تبين لنا أن فاعل الخير لا بد أن يكافأ على عمله . (شهيد المروعة والوفاء) التي تتحدث فيها عن فتاة اسمها ليلي أحبت شاباً اسمه سالم ، وتعاهدا على الزواج ، ولكنها سافرت قبل زواجها منه إلى أميركا بصحبة أمها ، ثم عادت إلى حبيبها وهي في أشد الشوق إليه ، لكنها تفاجأ بمرضه بالجدري ، ثم بموته بمكيدة دبرها أخوه وزوجته فتصاب بالجنون .
وهذه الاقصوصة بعيدة كل البعد عن الواقع ، وتعتمد فيها على المبالغة غير المعقولة .

وللكاتبة مقالات كثيرة نشرتها في مجلة «فتاة الشرق» أشهرها (القمار والزواج)
وتحدث فيها عن مساوىء هذه العادة الذميمة التي تفتشت بين ذوي اليسار من أهل
الطبقات البورجوازية تاركين زوجات «في مقتبل العمر ، وقد لبسن من الحسن
أكمل سربال ، تستعر صدورهن بالزفرات . . وقد هجر أجفانهن النعاس» .

ما يهمها من القمار هو انعكاسه على المرأة التي تظل في بيتها ساهرة ، تتقلب على
جر الانتظار ، بينما الرجل لاه عنها ، مستسلم إلى لذاته وشهواته . تقول : «واني
لأجد للمقامر عذراً إذا قصر عن تصوير حال قرينته ومقدار شقائها ، متى كان مكباً
على مائدة القمار ، تاركاً أياها بين أيدي الهواجس ، تستعد لما سوف تأتيها به الخسائر
والأضرار ، بل لا ألومه إذا بهر بريق الأصفر الغرار ، فلم يفتن إلى أن تلك جناية
يجنيها ، ووديعة لأولاده يتصرف بها ، ولكني أعجب كيف يجوز له سرقة الغير على
تلك الصورة التي يسمونها المقامرة ، وهو يرى من نتائجها في سواه من المقامرين ما لا
ترضاه أحقر النفوس ، وأخط الأخلاق ، وكفاه نذيراً ما يراه من ضياع أموالهم ،
وشقاء أسرهم ، وتعريضهم مستقبل أولادهم على أثرهم ، وتمهيدهم السبل أحياناً
لنسائهم للانضمام إلى حلقة القمار» .

«فلا أهلاً بعصر جر على الشرق أمثال هذا الداء ، ولا مرجحاً بفرنجة اقتبسنا
عنهم هذه الخلة الشنعاء ، وسلام على زمن قضاه أجدادنا في بسطة العيش وصفو
المسرات ، وسقيا لأيام سادت فيها الجهالة ، ولكنها امتازت بالفضل وصيانة
الذات ، بل تعسا لدهر غدونا نشكوفيه الحاضر وتلهف على ما فات ، فقد قنعوا
من دهرهم بالراحة ورخاء البال . . . حتى أصبح الزواج في عصرنا مثلاً يضرب في
اجتناء الشوك دون الأزهار ، وباتت بناتنا هدفاً لسهام الذل وشفار البوار ، وغدا
شباننا يتسابقون في مضمار هذا التقليد الذي أخف ما فيه من الويلات عار القمار» .

«وليت تفشي هذا الداء قد وقف عند حد الرجال ، بل ان عدواه تناولت قسماً
كبيراً من ربات الحجال ، فغدون لا يلذهن إلا الاشتغال بأسبابه ، ولا يفكرون من
الواجبات إلا في إتقان أبوابه» .

ماری عجیبی

۱۸۸۸-۱۹۶۵

عندما أردت أن أكتب عن ماري عجمي ، لاح لخاطري شريط طويل مما كتبت عن هذه الأديبة السرائدة المناضلة يوم كنت أول من دعا للكتابة عنها ، بعدما ظن الكثيرون أنها فارقت الحياة ، في حين أنها كانت لا تزال تعيش في منزلها في حي «باب توما» بدمشق ، بعيدة عن الناس والأضواء والصحافة والأدب ، مع أختها ايلين ، عازفة البيانو الشهيرة ، لا تفتح بابها لانسان إلا للأخوات (عويشق) اللواتي كن جارات لها .

كنت عام ١٩٥٦ طالبا في صف البكالوريا ، في ثانوية الآسية الارثوذكسية . وفي يوم كنت عائداً إلى البيت ، فلمحت في مكتبة «جورية» الصغيرة كتاباً يحمل هذا العنوان «ماري عجمي - في مختارات من الشعر والنثر» وعلى غلافه هذان البيتان للمرحوم فارس الخوري :

يا أهيلَ العبقريه سجلوا هذي الشهاده
إن ماري العجمية هي مي زيادة
ولما سألت صاحب المكتبة عن سعره قال : «خمس ليرات سورية فقط» مع أن عدد صفحاته هو ١٠٤ صفحات ، فترددت في شرائه ، لان ثمنه باهظ جداً بالنسبة لطالب لم يكن مصروفه الشهري يتجاوز خمس ليرات ، ولما رأي صاحب المكتبة ذو الوجه الأسمر النحيل ، راغباً في الكتاب قال : «خذه وادفع ما تشاء» فدفعت له نصف ليرة كانت كل ما في جيبى ، وعدت إلى البيت فرحاً مغتبطاً بهذه المختارات ، أقرؤها بنهم لا يرتوي وجوع لا يشبع أحملها في حقيبتي المدرسية يومياً ، أطلعها في الفرص بين الدروس ، إذ أنتحي زاوية مهمة ، لا يصل إليها شغب المشاغبين أو صراخ المتشيطنين من أولئك العفاريت الذين كان همهم الركض والقفز وإثارة الفوضى !

لقد وقع حب تلك الأديبة في نفسي منذ ذلك اليوم ، وكم فرحت عندما عرفت أن منزلها لم يكن يبعد عن المدرسة غير بضعة أمتار ، ولما حدثت صديقاً لي عن رغبتى في التعرف إليها قال : تعال نقرع بابها ، فاما أن تستقبلنا ، واما أن تعتذر ، فنعود أدراجنا . وفعلاً تم لنا ما أردنا ، إلا أننا عدنا بخفي حنين ، دون أن نعرف سبباً للرفض ، واعتقدنا أنه ربما يعود إلى كوننا حديثي السن ، فكيف تستقبل أديبة في السبعين من عمرها طالين ناهضين ، ليست لهما باع طويلة في الأدب ! لكن يكفيني على كل حال ، أنني نفذت رغبتى المكتومة ، واسترحت مما كان يؤرقني .

وبعد أن تخرجت من الجامعة عام ١٩٦١ وصرت قريباً من حلب ، شاءت الظروف أن أتعرف بالاديب الكبير سامي الكيالي (١٨٩٨ - ١٩٧٢) ، وبينما كنا نتحدث ذات يوم عن أدب المرأة السورية ، دفع إلي بالعدد الجديد من مجلة «العربي» الكويتية ، لأقرأ ما كتبه عن أدبيتين سورييتين هما : مريانا مراش وماري عجمي ، وأكد لي في حديثه أن الثانية قد توفيت من زمان ، فاستغربت الأمر وقلت له : أعتقد جازماً بأنها ما تزال على قيد الحياة ، فأجاب : إذا كان ما تقوله صحيحاً فأنت مكلف منذ الآن بالاتصال بها وتقديم محاضرة عنها في حلب ، وكان الكيالي يومئذ مديراً للمركز الثقافي العربي ، ولما عدت إلى دمشق في أول عطلة مدرسية ، سعت للاتصال بالأسرة لأجمع المعلومات اللازمة وأطلع على مجلتيها «العروس» وأهيم من خلالها محاضرتي ، ولحسن الحظ وفقت في مهمتي . . . فقد فتحت لي الباب المقفل هذه المرة ، واستقبلتني أختها «إيلين» ، لما عرفت اسمي وقصدي من الزيارة ، وبعد أن استأنست بي قدمت لي أحد عشر مجلداً من مجلة «العروس» التي كانت تصدرها أختها ، ونسخة من رواية «المجدلية الحسنة» التي ترجمتها عن الانكليزية وأهدتها إلي مشتركتي مجلتيها ، واستطعت بهذه المناسبة أن أحصل على عدد من الصور التذكارية المعلقة على جدران منزلها ، وأصور في الوقت نفسه هذا المنزل الأثري الذي كنت أتمنى أن يصبح في يوم من الأيام متحفاً يضم تراث ماري عجمي وأشياءها ، وهو دار دمشقية واسعة ، في صحنها بركة ماء ، وأشجار نارنج ، وأزاهير شتى ، ومرايا و . . . وما زلت أحتفظ بهذا الفلم المصور إلى اليوم . ولما عدت إلى حلب حملت للأستاذ الكيالي بعض الصور التي تؤكد أن ماري عجمي حية ، لكنها متوارية ، تكره الناس ، كل الناس ، وحملت له أيضاً أحد عشر مجلداً من مجلة العروس هدية لمكتبة المركز الثقافي أودار الكتب الوطنية ، ومحاضرة عنها قدمتها في كل من المركز الثقافي العربي والنادي الكاثوليكي بحلب في فترتين متباعدتين ، وبينت في المحاضرة أن ماري أحببت أن تعزل الناس وتحتجب عنهم ، ولا تريد أن تقابل أياً كان ، وأنا نفسي لم يتح لي أن أراها إلا بعد لأي ومشقة ، وبعد أن تواریت وراء شجرة النارج ، وكانت هي في الدور الثاني تنشر بعض ثياب غسلتها بنفسها وكان من عاداتها ، أواخر أيامها ، أن تزاول أعمالها وأمورها الخاصة بنفسها ، ولا تترك ، حتى لأختها ، مجالاً لذلك .

لم أكتف بتلك المحاضرة في حلب ، بل قدمت سواها في النادي الفني بدمشق ،

والمركز الثقافي في كل من اللاذقية وإدلب ، وكتبت عنها أكثر من مرة في مجلات : الأديب والمعارف ودنيا المرأة في بيروت ومجلتي المعلم العربي ، والفتوة ، وجريدة الثورة ، وكان آخر ما كتبت عنها في عدد تموز ١٩٧٤ من مجلة المرأة العربية وقصرت المقال على مجلتها «العروس» فقط .

أما اليوم فإنني أعود للكتابة عن المجلة وصاحبته بشيء من الاسهاب ، لأغني الجوانب التي أوجزتها هناك ، ولأضيف أشياء أخرى كنت قد أغفلتها ، أو اكتفيت بالإشارة إليها ، مبيناً من خلال ذلك الدور المهم والفعال الذي لعبته ابان الاستعمارين التركي والفرنسي ، فكانت بحق مثال المرأة الطليعية المناضلة .

* * *

انشئت مجلة العروس في دمشق في مطلع كانون الأول عام ١٩١٠ بتشجيع من السيد قسطنطين يني ، وكانت تطبع في مطبعة جريدة حمص في حمص ، ثم نقلت طباعتها إلى دمشق ، وتحملت أعباءها التحريرية والمادية بنفسها ، وعمرها لم يتجاوز الثانية والعشرين^(١) ، وهي «مجلة علمية أدبية صحية فكاهية» وشعارها «ان الاكرام قد أعطي للنساء ليزين الأرض بأزهار السماء» . ولا غرابة إذا جعلتها تهتم بالصحة ، وهي التي درست فن التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٦ ومارسته في مستشفيات الجامعة نفسها ، لكنها لم تكمل الدراسة إلى النهاية بسبب انحراف صحتها ، أما زميلتها الدمشقية أديل كساب ، فقد تابعت دراستها ، وكانت أول ممرضة سورية تنال اجازة رسمية في فن التمريض ، وتروي أديل قبل هجرتها إلى كندا ان ماري كانت شديدة الولع بالأدب منذ ذلك الحين ، حتى انها كانت تقدم لوائح درجات حرارة المرضى مصحوبة بالأشعار . وكانت فكاهية لأن ماري كانت صاحبة نكتة فريدة وسخرية لاذعة - كما حدثني بذلك الشاعر أبو سلمى (عبد الكريم الكرمني) وكانت صديقة له ولأخيه المرحوم أحمد شاكر الكرمني صاحب جريدة الميزان - ولا يكاد يخلو عدد من أعداد مجلتها من بعض النكات التي تنقلها لقرائها ممن برعوا في هذا الفن كمارك توين وجورج برناردشو ، وكم مرة تندر على نفسها لتضحك الحضور كما كان يفعل الجاحظ في زمانه .

كان عدد صفحات العروس في أول عهدها اثنتين وثلاثين صفحة ، ثم ازداد إلى

أربعين ، وظلت تصدر هكذا إلى خريف سنة ١٩١٤ حيث توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، وأصدرت منها ثلاثة مجلدات وتسعة أعداد في أكثر من ألف وخمس مئة صفحة ، وكانت كما ذكرنا محررها بمفردها انشاء وترجمة ، وتتولى بنفسها كل شيء ، وتكتب ، بالإضافة لذلك ، في صحف : المراقب ، والوطن ، والسهام وزجلة الفتاة وغيرها .

وما ان وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى أعادت إصدارها في تشرين الأول عام ١٩١٨ ، وزادت عدد صفحاتها حتى صار أربعاً وستين صفحة ، واستمرت محررها بقلمها الجريء حتى سنة ١٩٢٥ حيث توقفت نهائياً ، بسبب مناهضتها الصارخة للاحتلال الفرنسي ، وقد حاول الفرنسيون شراء ضميرها بالمال ، فباؤوا بالخيبة والخذلان ، إذ رفضت رفضاً باتاً أن تتعاون معهم ، أو تجعل من مجلتها بوقاً لهم ، كما رفضت من قبل الاذعان والاستسلام للأتراك ، وأبت إلا أن تقابل جمال باشا السفاح لعلها تستطيع أن تشفع لشهداء السادس من أيار ، ولاسيما صديقها الشهيد بيثرو باولي الذي كانت تلقبه بالباتر ، ولكن شفاعتها كانت محدودة .

كان مجموع ما صدر من المجلة في المرحلة الثانية سبعة مجلدات تقع في حوالي خمسة آلاف وأربع مئة صفحة ، وهكذا يكون مجموع ما صدر من العروس أحد عشر مجلداً في ستة آلاف وتسع مئة صفحة ، وبعد توقف المجلة لم تنقطع عن الكتابة ، بل استمرت تكتب في صحف ومجلات عديدة منها : حرمون ، والاخاء ، ونور الفيحاء ، وسورية الجديدة ، والرابطة الأدبية ، وألف باء ، والميزان ، والفيحاء (في دمشق) ويقظة العرب (في الأرجنتين) ، والحقيقة ولسان الحال ، والهدية ، والاحرار ، ومنسرفا (في بيروت) والحياة والشعب (في الاسكندرية) .

كانت توقع مقالاتها الخطيرة باسم (ليلى) ، ونحمت عنوان «حديث ذوشجون» ، وفي ذلك يقول الشاعر نبيه عبده :

لَرَشْفُ السَّحْرِ مِنْ ثَغْرِ «العروس» أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رَشْفِ الكَوْسِ
بِهَا دَرُّ المَعَانِي قَدْ تَجَلَّتْ شَمُوساً دُونَهَا حَسَنُ الشَّمُوسِ
فَأَبَدْتُ مِنْ سِنَا (ليلى) جِالاً يُقَدِّمُهُ البَخِيلُ عَلَى الفُلُوسِ
وبالإضافة إلى باب «حديث ذوشجون» ، الذي كانت تكتبه من حين لآخر ،

تحدث فيه شهرياً عن انطباعاتها ، وتضمنه أبرز آرائها وأفكارها ومطالعاتها في اللغات الأجنبية . . . هنالك أبواب أخرى هي : باب المباحث النفسية ، وكان لها ولع فيه ، وباب الفنون الجميلة ، وباب الرواية ، وباب تدبير المنزل ، وباب الاجتماع ، ثم زاوية للاخبار الأدبية والاخبار الخاصة المتفرقة ، وكانت تزين الصفحة الأولى من كل عدد بصور المشاهير العرب والأجانب ، كهلن كيلر ، والكونتيس دي نواي ، وميخائيل نعيمة ، وأحمد شاكر الكرمي ، والدكتورة أنس بركات باز ، وجون رسكن ، وعارف النكدي ، وصفية حرم سعد زغلول ، والشاعرة اليونانية سافو وسواهم .

كان من كتاب المجلة آنذاك عدد كبير من رجال الفكر والأدب في الوطن العربي والمهاجر ، معظمهم من الرجال لأن عدد النساء الكاتبات كان يعد على الأصابع ، فمن النساء العربيات : روز شحفة ، والدكتورة أنس بركات - زوجة نصير المرأة جرجي نقولا باز الذي كتب سير العشرات من النساء اللامعات ، وألف كتابه المشهور «اكيليل غار لرأس المرأة» وزينب فواز ، وأديل عجمي ، وسلمى كساب ، وسلمى جنبلاط وفاطمة اليشرطية ، ونازك العابد ، وسوزي كحيل . . . وكانت تترجم لعدد من الكاتبات الاميركيات والانكليزيات مثل دوروثي دو كس ، وليزا الكوت ، وألن روبنسون ، وهرييت ستانسون . . . أما الكتاب والشعراء فنذكر منهم على سبيل المثال أولئك المداومين على الكتابة في العروس مثل أديب فرحات ، وأحمد شاكر الكرمي وسليم حمدان ، وعبد المجيد رمضان ، وجورج قصاص ، وايليا أبو ماضي ، ومحبوب الشرتوني ، والرصافي ، والزهاوي ، وعبدالله النجار ، والدكتور خالد الخطيب ، قسطنطين تيودوري ، وجورج ميداني ، وميخائيل الله ويردي ، وبدوي الجبل ، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) الذي قال في حفلة يوبيل العروس الفضي :

خمس وعشرون جهاداً كلُّها ملء عيون الفجر تلك العبقرية
(قال) خذوا لغتكم عن أعجمي فهل ترى أضمر هذي «العجميه»
لا أستطيع أن أقدر عدد النسخ التي كانت تطبعها من مجلتها شهرياً ، لكن يمكن أن نستنتج من المدن التي انتشر وكلاؤها فيها ، أنها كانت موزعة توزيعاً واسع الانتشار في الوطن والمهاجر ، ومقروءة على نطاق بعيد . . . فقد كان لها وكلاء في كل من : بونس آيرس ، والقدس ، وبيروت ، ونابلس ، وسوق الغرب ،

وكندا ، وبغداد ، وكاليفورنيا ، وسانباولو ، واللادقية ، والاسكندرية ، ويافا ،
وحما ، وعمان ، ومرجعيون ، ومشغرة ، وجزين ، ويبرود ، ودير الزور ، ووادي
شحرور ، وطرابلس ، وبشمزين ، والقاهرة ، وصور ، وبعيدا ، وعبيه . . .

ماري والاستعمار التركي :

لقد ارتبط كفاح الأنسة ماري عجمي ، بالدرجة الأولى ، بشهداء السادس من
أيار ، فزارت السجون غير مرة ، ووصفت أحوالها وأحوال من فيها من السجناء
السياسيين ، ورأت بأم عينها الأوضاع السيئة التي كانوا يعانون منها ، وألوان
العذاب والاضطهاد التي تحملوها بصبر الجبال ، ووصفت جمال باشا بأنه شر طاغية
ابتليت به البلاد ، غير خائفة من عقابه ، ولا متهيبة مشانقه وجواسيسه ، فقد كان
الشهداء أولئك الذين قتلوا حباً بالاستقلال ، بعد أن جعلهم جمال باشا بمنزلة
الواشين المجرمين على حد تعبيرها .

تقول : «لقد كنت أسمع أنين أولئك الشهداء ، وأبصر مواكبهم المزمعة على
الرحيل ، وأرى المشائق المنصوبة كأنها مواقف مناطيد المجد المحلقة إلى
السماء . . .» .

«كنت أول من لبي دعوة بعض الأدباء السجناء ومن الساعين لانقاذهم ، ففي
ذات يوم هرعت إلى السجون وهي تعج بالمجرمين ممن ساغ لهم شرب الدماء ،
واختلاس أموال الناس ، والأبرياء الذين وشي بهم من أنهم حفار قبور الترك ،
وجلهم من الأدباء وأعيان البلاد ، أتى بهم إلى الشام من كل أطراف سورية
وشواطئها ليلاقوا من محكمة الموت العرفية جزاءهم . . . دخلت باباً قام على
جانبيه وفي صدره ثلاثة سجون منفصلة لكل منها حاجز خاص مصنوع من القضبان
الحديدية ، وهي مجموعة سجون أو عبارة عن كهوف صخرية يوصل إليها بشافي
درجات فرأيت وراء أحد تلك الأبواب نخله مطران جالساً عن كئيب من مدخل
مغارته الضيقة المنخفضة السقف ، أمامه سلسلة ضخمة معلقة إلى قدمه تزن ثلاثين
رطلاً لقعقتها كلما تحرك صدى أجش ، وكان يرفعها بيديه إذا مشى ، ولما رأني
رفع بصره إلي وأشار بالصمت تخافة الجواسيس والرقباء ، وأنا أعجب لحالته وتجلده

بعد أن نال تلك الاهانات ، ولطخ وجهه بالاقدار ، وصفع مئآت الصفعات بأيدي أناس لم يكن يرضى أن يكونوا له عبيداً . يلي عجبت وايم الحق عجباً شديداً كيف لم يقع مريضاً في الفراش على الأقل» .

«وقد كنت لا ترى يوم تشهيره بين عقلاء المسلمين وكافة المسيحيين إلا أناساً مرتعشين واجفين مفتتي الأكباد ساقطي الرؤوس يهتزون كأوراق الخريف عند هبوب العاصفة . . . خرجت من ذلك المكان ، فإذا غلام يحمل قصعة من اللبن أرسل طلبها أحد معارفي من الأدباء ، فإذا الخفير يحفر بأنامله القذرة حفرة في تلك القصعة لتثبت مما فيها ، ثم يلحس أنامله لتطهيرها مما علق بها ، فيفحص غيرها من القصاص على اختلاف ألوان الطعام» .

ثم تتحدث عن سجن جامع المعلق فتقول :

وجامع المعلق جامع أثري قديم يجري تحت ردهته الرحبة أحد فروع نهر بردى . وكانت ردهته تضم ٤٢٠ سجيناً من كل طبقات الأمة ، وكانت النوافذ محكمة لأفوهة ، صغيرة في باب الجامع الخشبي يخال لناظره أنها فوهة مدخنة لما احتشد فيها من الأبخرة المتعفنة ، وكنت أتمكن من محادثة من أريد من الشهداء برشوة الخفير ليدعوه إلي ويخرجه إلى البهو» .

«وما زالت زياراتي للسجون تتوالى حتى رأيت أن أسعى جهدي لانقاذ بعض الأدباء ساعة علمت أن لا مفر من حكم الاعدام . وكانت المحكمة العرفية لا تسمح بدفاع المحامين ، فرأيت أن أدلي بالتجارب لعل لي إلى تخليصهم من سبيل ، يستعينة بنفوذ الفضلاء أمثال : غالب الزالقي ، وحسين ايش ، وحسن المغربي غيرهم ، فتمكنت بواسطة محمود زكي صاحب جريدة العدل من تمزيق أوراق التهمة التي وجهت إلى أحد الأدباء . . .»

«كنت إذا وقفت أحدث أحداً من الأدباء السجناء سددت أنفي بالمنديل لتتانة الروائح التي يستنشقونها ولا يميزون ، وقد رأيت الخفراء مرة يخرجون جثة من السجن مضى عليها أربع وعشرون ساعة» .

«وكان أولئك الشهداء يجودون بالقسم الأكبر من طعامهم ولفافاتهم وملابسهم على المجرمين ، ويتلهون بكتابة رسائل وعرائض يرفعها المجرمون إلى حكاهم أو نوابهم ، ولم يكن الشهداء يجروون على أن يردوا لهم طلباً نجاة من تعدياتهم . فكانوا تحت رحمتهم ورهن إشارة الخفراء والحكام الظلام ، وإني لعلى ثقة بأن أعظمهم رحمة

من كل هؤلاء هم المجرمون ! ! . »

« وكان الأدباء يفتشون الكراسي في الليالي الباردة مخافة سراية البعوض المناسب
مزدحماً على تلك الفرش البالية المتهافتة . »

« وجئت مرة إلى السجن فاعتذر إلي الحفير بأن السلام وراء الباب ملأى بسجناء
وصلوا حديثاً ، فلا سبيل إلى رؤية من أطلب ، وتلطف - أو تلطفت بربيع مجيدي -
فأرشدني إلى فوهة قسطل الماء ، وهو قناة توصل مياه عين الفيحة إلى ذلك السجن
الأرضي ، فناديت باسم الشهيد ، وأصخت السمع ، فإذا أصوات جياشة ،
وضحكات متقطعة وأنات عميقة أشبه بعاصفة ثائرة مخيفة بينها صوت ذلك الشهيد
يجيب ندائي ، فهلع قلبي خوفاً وحزناً ، ثم استجمعت قواي وبلغته الرسالة
بواسطة ذلك التلفون المائي - على قدر ما مكنه خرير الماء من فهم ما أقول . »

« نعم أنقذت بعضهم من السجن ، والبعض الآخر من الاعداء ، ولكني لم
أسلم من الظنون . . . ولما نقل الشهداء إلى عالية أخذت رسائلهم تتوالى علي
بطرق خفية ، وقد عادوا إلى عيشتهم الاشتراكية وانقطعوا فيها إلى التفكير في عسف
تلك الآلام التي ترهق أمتهم ، وإلى المطالعة والمناقشات الأدبية ونظم الشعر .
وكثيراً ما قطع عليهم الدكتور حسين حيدر تناول الطعام ، وسقطت اللقمة من
شفاهم إثر قوله : « أنسيتم المشنقة يا اخوان » فيلتجئون إلى زوايا حجراتهم فاقددين
الشهية ، تائهين في فدادن تلك الحقيقة الموحجة . »

وبعد أن وقعت كارثة الاعداء المشؤومة ، في السادس من أيار سنة ١٩١٦
انفجرت حقداً ونقمة على الأتراك الذين ساقهم القدر الغاشم للفتك بأحرار البلاد
وتقتيلهم ، من خلال خطابها أرواح الشهداء قائلة :

« ردي علي يا أرواح الشهداء ، هل كانت تلك الأوسمة مطمحك الوحيد ؟ وهل
أنت راضية عن تلك الأعواد التي علقت عليها ؟ وهل أفرخت فأزهرت آمالاً جالت
في أحلامك ، وعقدت ثماراً سقيت بدمائك ، فأمنت عليها شر العقم والجفاف
ووثقت بأنها لن تصير فيما بعد وقوداً ؟ . . أو تصلح لتعليق آخريين من
الشهداء ؟ » .

ما أمر خطابها أرواح الشهداء الذين قضوا في مطلع أيار ، وما أقساه وآله ! لأنها
خبرت فعلاً أحوال الشهداء وما عانوه من قهر واذلال قبل الاعداء ، وأسفت كل
الأسف على تلك الأرواح البريئة التي أزهدت دون ذنب ، إلا مناداتها بالحريية

والاستقلال وطرد الأتراك الغاصبين :

«أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون ؟

أما تعبت أجنابكم ، وملت من اللصوق بالرمال ؟

قوموا ، فقد نمت نوماً طويلاً !

ان نفحات الربيع تملأ الفضاء

والأطيّار تتسابق على الأفنان

والجداول تناديكم «أن هيا عودوا إلينا»

لقد كفى القلوب وجداً وأنيباً .

لأنستطيع أن نرحب بالربيع وأنتم بعيدون عنا !

ولا يطيب لنا فوح الأزهار ، وفي الأرواح نفحات دمائمكم البريئة» .

وهكذا استمرت تقارع الاستبداد وتندد بالمستبدين وتتخذ من قلمها سلاحاً

فعالاً تحارب به بلا هوادة غير عابئة بالنتائج التي تترتب عليها ، وكان ان أوقفت

مجلتها أكثر من مرة ، وتعرضت لغرامات باهظة في سبيل إعادة إصدارها ، ومنيت

بالاخفاق المادي لكنها لم تخفق معنوياً وفكرياً ، إذ استطاعت أن تحرك الأذهان

الغافلة ، وتوقظ الضمائر النائمة .

ماري والاستعمار الفرنسي :

لقد كان رد الفعل على اعدام شهداء السادس من أيار اعلان الثورة العربية بقيادة

الشيخ حسين ، فانضم إليها العرب ، كل العرب ثم دخلت الجيوش العربية

سورية ، ظافرة منتصرة ، بعد أن هزمت فلول الأتراك ، وقام الحكم الوطني إلا أن

الفرحة لم تطل كثيراً ، إذ أعلنت فرنسا حربيها على سورية ، المستقلة ، واقتحمت

حدودها في معركة ميسلون . . . وبعد أن تم الاحتلال الذي لم ينقلنا إلا من تحت

الدلف - دلف الاستعمار التركي - إلى تحت المزارب - مزارب الاستعمار الفرنسي -

على حد تعبيرها ، راح الفرنسيون يراودونها ، ويحاولون اقناعها بالكف عن

مهاجتهم في مجلة العروس وسواها ، مقابل مبالغ ضخمة من المال تدفع لها ، لكنها

رفضت أيما رفض ، وزادت المحاولة عناداً وتصلباً ، وحدة في المهاجمة . . . وعندما

أقضت مضاجع الفرنسيين بمقالاتها الثورية اللاهبة ردوا عليها بتعطيل المجلة نهائياً ،

تقول :

«بعد أيام قليلة انقضت على استيلاء فرنسا على دمشق ، جاءني شرطي برقعة

يدعوني فيها رئيس الوزراء إلى اجتماع أراد عقده ، فخطت عليها كلمة «تبلغت» وأبيت أن ألبى الدعوة . وبعد انعقاد الاجتماع ، سألت عن القصد منه ، فقيل لي إن مدير ادارة المطبوعات الفرنسية خطب في الحضور ، وهم الكتاب وعلمهم (كيف يكتبون) ووزع عليهم رقعاً بلا ثمن ، ووعدهم بالمساعدة . . . »

« ولم يمر رده طويلاً على ذلك حتى جعل أحد معارفي يتردد إلي كل مساء ، محاولاً اقناعي بأنني إذا هتفت لفرنسا ، وأنشأت الفصول معددة الاصلاحات التي تقصد الانتداب علينا من أجلها فزت بأجر شهري ضخيم من الذهب الوهاج ، وشهدت منه ذلك بعض زائري ، فحاولوا مساعدته على اقناعي بالقبول ، ثم طفقوا يسخرون معه مني لاصراري على الرفض إلى أن فاجأته يوماً بقولي : ماهي تلك الاصلاحات التي تريد أن أكتب عنها ؟ قال : علي أن آتيك بقائمتها مرة بعد أخرى ، وعليك اقناع القوم بها شفاهاً وخطابة وكتابة ، قلت لتنجز فرنسا أولاً ما تعدنا به من الاصلاحات فأترنم بذكرها مجاناً ! وكان جوابي هذا آخر عهدي به . . . »

« مرت الأيام والأسابيع والشهور والسنون ، وأنا أترقب فرصة القيام بما وعدت من الهتاف لفرنسا مكافأة على الاصلاحات التي تمت على يدها ، فلم أجد غير المحاكم المختلطة التي يثن فيها القوم ، والديون المتراكمة ، والضرائب تتكاثر في غير اصلاح ولا تحسين ، والشركات الفرنسية تطرد هذا وتستبد بذلك ، دون أن يسمع أحد شكواه ، ولو ملأ أنينه عنان الفضاء ، والمال الذي كان في أيدينا مفقود ، وأكثر النفيعين - وهو الأنكى - هم وحدهم الذين تمتعوا بما أحدثته فرنسا من الاصلاحات . »

لا أعتقد أن مجلة نسائية عربية تحملت من الأعباء ، مثلما تحملته «العروس» وقليلات هن اللواتي خرجن إلى ميدان العمل السياسي ، ومواقف النضال المشرف كماري عجمي ، فحاضرت وخطبت في الجماهير ، وتنقلت بين سورية ولبنان وفلسطين ومصر والعراق ، تارة تنشر آراءها الثورية عن طريق القاء الدروس في المدارس ، وتارة عن طريق الكتابة ، توزع مقالاتها على الصحف والمجلات التي كانت تحثها على المزيد ، وظلت هكذا حتى شهدت جلاء آخر جندي فرنسي عن أرض الوطن في السابع عشر من نيسان عام ١٩٤٦ ونعمت سورية بالاستقلال والحرية في ظل الحكم الوطني .

نشاطات أخرى :

قلنا ان ماري عجمي درست فن التمريض في الجامعة الأميركية سنة ١٩٠٥ لكنها لم تكمل الدراسة بسبب انحراف صحتها ، فاتجهت في البداية إلى التعليم ، وعينت معلمة أولى في المدرسة الروسية بدمشق عام ١٩٠٦ ، ثم راحت بعد ذلك التاريخ تراسل كبريات الصحف والمجلات كـ«المقتبس» في دمشق و«المهذب» في زحلة و«الاخاء» في حماه ، والحسنة ولسان الحال في بيروت مدة سنتين .

ثم انتقلت إلى الاسكندرية عام ١٩٠٩ حيث عينت ناظرة لمدرسة الأقباط ، فقضت سنة واحدة ثم عادت إلى دمشق لتتشيء مجلة العروس في كانون الأول عام ١٩١٠ .

أسست النادي الأدبي النسائي في حي القصاع بدمشق ، ثم جمعية نور الفيحاء وناديا ، ومدرسة بنات الشهداء عام ١٩٢٠ ، وانتخبت عضواً في لجنة النقد الأدبي في جمعية الرابطة الأدبية عام ١٩٢١ ، وأسهمت في تحرير مجلة الرابطة المذكورة التي لم تعش أكثر من عام واحد ، وكانت المرأة الوحيدة في تلك الرابطة .

عربت عن الانكليزية ، بالاضافة إلى روايتها «المجدلية الحسنة» التي صدرت عام ١٩١٣ كتاب «أحمد الغايات» سنة ١٩٢٧ للكاتب باسيل ماسيوز ، وقد أهدت الرواية إلى فليكس فارس «الكاتب الرقيق الروح والقلم ، والقائد الذي بث في روح الشجاعة الأدبية ، والأخ الذي رفع ستار الشقاء وأراني سبيل الواجب ، ودعاني إلى الجهر بما في جسد الاجتماع البائس من السوس الناخر ، أهدي روايتي هذه عربون شكر وولاء» .

درست الأدب العربي في مدرسة الفرنسيكان (دار السلام) مدة أربع سنوات في مطلع الثلاثينات وسافرت إلى بغداد بقصد التدريس أيضاً عام ١٩٤٠ ، لكنها لم تمكث هناك أكثر من سنة ، عادت بعدها لتتصرف إلى النشاطات الأدبية والاجتماعية فانتخبت عضواً في جمعية حلقة الزهراء لسيدات ورجال الأدب عام ١٩٤٤ .

احتفلت بها الأوساط الأدبية فاقامت لها حفلة يوبيل فضي . في بيروت سنة ١٩٢٦ بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على كفاحها وعملها في ميادين الخطابة والكتابة والصحافة . . . ولقيت مثل ذلك التكريم في حفلتين أقيمتا لها في حيفا ويافا سنة ١٩٢٨ ، كما كرمها النادي الارثوذكسي بدمشق عام ١٩٢٩ ، وفازت

بجائزتين من الاذاعة البريطانية عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ أحدهما عن قصيدتها
«الفلاح» الذي تقول فيه :

هو الزارع الفلاح لولا جهادهُ لما شمتَ بالريحانِ حسنَ المخايلِ
نبيُّ فقد أوحى إلى القفرِ بالشذا وعلّقَ أقراطَ الغصونِ الحواملِ . .
توفيت ماري عجمي في ٢٥ كانون الأول ١٩٦٥ عن سبعة وسبعين عاماً ، فأقام
لها اتحاد الجمعيات النسائية في سورية حفلة تأبين على مدرج جامعة دمشق في ٢٥
نيسان ١٩٦٦ تكلم فيها كل من : فؤاد الشايب ، رثيف خوري ، جان كميد ،
وداد سكاكيني ، الدكتور كاظم الداغستاني ، عفيفة صعب ، أمين نخلة ،
والدكتور جدعون محاسب نيابة عن أسرة الفقيدة .

ثم طبعت لها وزارة الثقافة والارشاد القومي مختارات من الشعر والنثر تحت عنوان
«دوحة الذكرى» . وما يزال قسم كبير من مخطوطاتها غير منشور .

(١) ولدت ماري في دمشق في ١٤ أيار سنة ١٨٨٨ وتعلمت في المدرستين الروسية والاييرلندية ، وخطبت في الحفلات
المدرسية وهي في الرابعة عشرة ، ونشرت أول مقالة باسمها في جريدة «المحبة» ولم تتجاوز الثالثة عشرة . . .
استفادت من مكتبة نعيان قساطلي ، ثم حظيت بمجلة «الجامعة» لفرح أنطون فاستفادت منها ، وتشبعت ساء
صاحبها الثورية وبعد أن ارتوت من اللغة العربية وأدائها ، التفتت إلى الانكليزية ، فعبت منها ما شاءت .
راسلت فيليكس فارس وتأثرت بأفكاره ، قال عنها خليل مردم : «لا أحب من غواية المرأة إلا غوايتها في الأدب ،
وأكثر ما يعجبني من أدب المرأة سحر الحياء وهذان المعنيان ماثلان في الأنسة ماري عجمي» .

ماري يني عطا الله

(١٨٩٥ - ١٩٧٥)

قد لا يعرف قصة حب الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي لماري يني ، الا نفر قليل من الناس ، لأن قصة حبه لمي زيادة طغت على هذا الحب الأول ، وهي التي ذاعت بين الخاصة والعامة ، وتناقلها الرواة ، وتناولها الكتاب في الصحف والمجلات والكتب بشيء من التفصيل ، كطاهر الطناحي ، وكامل الشناوي ، وجميل جبر ، ووداد سكاكيني وغيرهم . . . ولولم يكشف الأستاذ محمد سعيد العريان النقاب عن هذا الحب الأول في كتابه «حياة الرافعي» ، ومقدمته لكتابي الرافعي «رسائل الأحزان» و«أوراق الورد» ، لظلت قصة هذا الحب الجارف طي الكتمان ، لا سيما وأن الرافعي لم يبح لأحد به ، حتى العريان نفسه لم يشر إلى اسم هذه المحبوبة صراحة ، بل أوما إليه بطرف خفي ، لأنه عندما نشر هذه الكتب ، كانت السيدة ماري يني لا تزال على قيد الحياة . أما الآن ، وبعد أن توفيت في آب عام ١٩٧٥ ، فيمكننا أن نكتب عن هذه العلاقة بشيء من الصراحة والوضوح ، ولكن قبل أن نتحدث عن قصة هذا الحب الذي عصفت بقلب الرافعي وهو شاب في مقتبل العمر ، لا بد أن نسلط الضوء على حياة ماري يني صاحبة مجلة «منيرفا» ، واشتغالها في ميادين الصحافة والخطابة والتعليم والادارة .

* * *

ولدت ماري يني في بيروت عام ١٨٩٥ ، وتعلمت في المدرسة الانكليزية خمس سنوات ، ثم في مدرسة زهرة الاحسان» ثلاث سنوات ، حيث تلقت مبادئ اللغة الروسية ، بالاضافة إلى اللغتين العربية والفرنسية ، وكان من أساتذتها الشيخ ابراهيم المنذر ، ومن زميلاتها الأدبية سلمى صائغ ، أما اللغة اليونانية فتلقته على يدي والدها في البيت ، لأنها لغة أجدادها .

وعندما وثقت من نفسها ، أخذت تكتب في الصحف ، وأول مقالة نشرتها كانت بعنوان «نصيحة مفيدة» في مجلة «الحسناء» التي كان يصدرها نصير المرأة جرجي نقولا باز ، باسم مستعار هو «وداد ريجان» ، ثم أخذت تكتب في صحف : النفائس ، والأحوال ، والوطن ، والمراقب ، وحمص ، والمهذب ، ولما أصدر أخوها قسطنطين يني جريدة «دليل حمص» شاركته في تحريرها ، فأثبتت على صفحاتها أفكارها التقدمية في سبيل تحرير المرأة ، واعطائها كامل حقوقها ، ودفعها لارتياح مناهل العلم .

كذلك عملت في التعليم ، فعلمت اللغة الفرنسية في المدرسة الروسية بحمص ، ثم انتقلت إلى بيروت ، فأدارت مدرسة المخلص ، وعلمت فيها اللغة العربية .

أنشأت مجلة «منيرفا» في بيروت بتاريخ ٢٤ أيلول سنة ١٩١٦ ، وكانت أسبوعية تكتبها أختها ألكسندرة بخطها الجميل بسبب ظروف الحرب ، فصدر منها حتى الرابع من آذار سنة ١٩١٧ اثنان وعشرون عدداً ، ثم توقفت لتصدر شهرية من جديد في نيسان ١٩٢٣ ، وتصبح منبراً حراً لأقلام عدد من أدباء ذلك الوقت ، وكانت أحسن مجلة نسائية في الشرق الأدنى ، باعتراف جبران لها في إحدى رسائله^(١) . ولم تكتف بالكتابة في مجلتها ، بل راحت تنشر مقالاتها في مجلات : «الفتاة» لهند نوفل ، و«الفجر» لنجلا أبي اللمع و«المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية ، و«الخدر» لعفيفة صعب ، و«الكرمة» لسليمة سلامة أطلس ، ومجلة «سركيس» ، و«المعارف» لوديع نقولا حنا . وفي جرائد : لسان الحال ، والبرق ، والحقيقة ، والنصير ، والهدية ، والشعب ، والأحرار ، والسلام ، والبريد ، والميزان ، والسائح وغيرها من صحف بيروت ، ودمشق ، وحلب ، ومصر ، وسانباولو ، ونيويورك . . . كما نالت جائزة جامعة السيدات في مباراة كتابية في الأزياء سنة ١٩٢٠ وطبعت مقالاتها الفائزة في مجموعة خاصة ، وترجمت عن الفرنسية كتاب «رسائل أب إلى ابنته» ونشرت قسماً منه في منيرفا .

واشتهرت بالخطابة شهرتها بالكتابة ، فوقفت على منابر بيروت ، وحمص ، ودمشق ، وصيدا ، وطرابلس ، وزحلة ، وبكفيا ، والشويعر ، والحدث ، والشويفات ، وتحديث في حفلات تكريم مي زيادة ، وأمين الريحاني ، وسلمى صائغ ، وماري عجمي ، ورثت كلاماً من ولي الدين يكن ، والمنفلوطي وغيرها . عملت في جامعة السيدات اللبنانيات أعواماً طويلة ، وصادقت الأديبات ، واستقبلت الأدباء حتى غداً منزلها مجمعاً لأهل الأدب ، أشبه ما يكون بمنزل مدام دي ستال .

تزوجت في ١٥ أيار سنة ١٩٢٦ من السيد إبراهيم عطالله ، وهو من كرام مهاجري حمص في سانتياغو عاصمة تشيلي وسافرت معه ، تاركة المجلة في عهدة أخيها قسطنطين ، وهناك وضعت كتاب «تاريخ تشيلي» بالعربية ، ليطلع المهاجرون العرب على حوادث البلاد التي يقطنونها ، وطبعته على نفقتها الخاصة ، ثم وزعته

مجاناً ، فنالت بهذا العمل ثناء الجالية وتقدير حكومة تشيلي .
لم تلهها مهام الزواج وواجبات الأسرة والأولاد^(١) عن مواصلة الكتابة في مجلة
«الوطن» التي كان يصدرها الشاعر اللبناني جان زلاقط ، ومجلة «العصبة» في
البرازيل ، وقد سعت إلى تأليف «الندوة الأدبية» في عاصمة تشيلي على غرار العصبة
الأندلسية في سانباولو ، وانشاء جناح عربي في مكتبة سانتياغو الوطنية ، فاستطاعت
بذلك بعث اللغة العربية في محيط لا أثر فيه لأداب الضاد^(٢) .

حب الرافي لها :

لقد ذكر الكثير عن حب الرافي لمي زيادة ، لكن أحداً لم يشير إلى حبه لماري
يني ، غير الأستاذ محمد سعيد العريان الذي وضع سيرة الرافي ، وكتب مقدمتي
رسائل الأحزان وأوراق الورد ، وقليلون من يعرفون أنه ألف من أجلها كتابه
«حديث القمر» ، إلا أن عمر هذا الحب لم يطل ، إذ تزوجت ماري يني عام
١٩٢٦ ، وهاجرت مع زوجها إلى أميركا ، وبعد سبع سنوات من هذا الفراق أخذ
ينشر خواطره وذكرياته التي تغشاه في خلواته ، وتداعبه في أحلامه .

يقول محمد سعيد العريان في مقدمته لكتاب رسائل الأحزان : «كان بعض من
أحب الرافي فتاة أدبية عرفها في لبنان - وهي سمية صاحبتة في مصر - وكان بينهما
رسائل أثبت بعضها في كتاب أوراق الورد ، وهي التي أنشأ من أجلها كتابه حديث
القمر» .

ويقول في مقدمته لكتاب أوراق الورد^(٣) : «ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي
حبيبته (فلانة) - يقصد مي زيادة - وليست كل رسائله في الكتاب إليها ، فهناك
(فلانة أخرى) - يقصد ماري يني - هنالك صاحبة «حديث القمر» تلك التي عرفها
في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة» .

«هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني
الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة - يعني ماري يني - وهذه يستوحىها معاني
الكبرياء والصد والقطيعة ، وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر ،
وأفعم قلبه بالألم ! - يعني مي زيادة .

لكن من الصعب ، بل يكاد يكون من المستحيل التفريق بين الرسائل التي كتبها

لماري يني ، والرسائل التي كتبها لمي زيادة ، لأنها رسائل بوح باللهفة والحنين والشوق والذكريات الأفلة ، لم تحمل أي عنوان ، ولم يكن ينقلها البريد ، يناجي بها هذه أوتلك في خلوته ، أو يتحدث بها إلى نفسه ، أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، أو يترسل بها إلى طيفها . هي بالاجمال خواطر وجدانية كانت تخرج من عاطفته المشبوبة ، وقلبه الملتهب بنار الحب ، فيسطرها على الورق

لقد مات الرافي عام ١٩٣٧ دون أن يعلن شيئاً عن حبه الأول الذي ظل سراً مخبئاً في صدره ، وذهب معه هذا السر إلى مثواه الأخير .

ومهما يكن من أمر فإن أول حب تفتح عليه قلب الرافي كان حبه لماري يني ، فلما تزوجت وسافرت ، راح يبحث عن حب آخر بديل ، يعوضه عن حبه السابق ، فوقع في حب مي زيادة ، وقد كان حبه في المرتين أحادي الجانب ، بدليل اكثاره من الاستعطاف والشكوى واطهار الغضب ، وثورته على الكبرياء .

يقول الرافي انه جمع في كتابه أوراق الورد رسائلها ورسائله ، فيتساءل العريان قائلاً : «أما رسائله فنعم ، ولكن على باب المجاز ، وأما رسائلها فما أدري أين موضعها من الكتاب ؟ الا رسالة واحدة (حبذا لو أشار إليها) وجزازات من كتب ، ونتاج من حديثها وحديثه» .

حسب هذا الحب العاصف أنه أوحى له تأليف «حديث القمر» و«رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» و«أوراق الورد» التي تعتبر قمة شاهقة في النثر العربي ، وكنزاً فريداً في معاني الحب والجمال . وكان الرافي يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما كتب في أدب الانشاء ، ويتعزى بقراءة هذه الكتب عن صاحبتة التي رحلت ، وخلفت ذكرها معه ، ذكرى حية ناطقة ، تتمثل في المعاني والكلمات التي دبجتها يراعتة في خلواته الصوفية لتعوضه عن شخصها ، وقد صار طيفاً من الأطياف .

* * *

-
- (١) مجلة منيرفا - العدد الخامس - السنة الأولى - ١٩٢٣
(٢) أنجبت ماري ثلاثة أولاد هم : منيرفا ، وأدونيس ، وغاندي .
(٣) أدبنا وأدبنا في المهاجر الأميركية لجورج صيدح - صفحة ٥٢٠ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥٧ - الطبعة الثانية .
(٤) أوراق الورد - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة الخامسة ١٩٥٢

مړيانا مړاش

(۱۸۴۸-۱۹۱۹)

إذا ما ذكرنا وردة اليازجي ، ووردة الترك في لبنان ، وعائشة التيمورية في مصر ، ذكرنا مريانا مراش في سورية . . فهي شاعرة حلب الأولى بلا منازع ، وأخت العالم والطبيب والشاعر فرنسيس مراش ، والتاجر الأديب عبدالله مراش ، أما أبوها فهو فتح الله مراش صاحب المكتبة المراهية الكبيرة التي سارت بذكرها الأبناء .
ولدت مريانا في حلب عام ١٨٤٩ في بيت عُني بقضايا الأدب والفكر ، فمنذ أن فتحت عينيها على النور ، رأت نفسها محاطة بالكتب ، وعندما ايفعت بدأت تتلمذ على أخيها فرنسيس الذي لقنها العربية ، أما الفرنسية فتلقته في مدرسة راهبات مار يوسف .

كانت بيروت تعيش في ذهن الصبية الحسنة ، تحلم بها وتتمنى لو تنهي دراستها في معاهدها الأجنبية الكثيرة ، وكيف لا يحلم بتلك المدينة كل أديب ، وهي التي كانت ولا تزال مصدر الإشعاع الفكري ، وملتقى التيارات الأدبية في العالم ، حتى لقبت بباريس الشرق . . . وهكذا غادرت الطالبة الشاعرة مدينة الشهباء ، لتدخل المدرسة الانجيلية التي أنشأها يوحنا وورثبات ، وتغني ثقافتها العربية والانكليزية ، لأن ثقافة البيت لم تعد تنفع غليلها وتشيع نهمها ، وتروي ظمأها إلى العلم .

ويشاء القدر أن لا تمكث طويلاً في بيروت ، فعادت من حيث ذهبت ، أسفنه لتستأنف الدراسة على أبيها علامة عصره ، فأتقنت عليه قواعد الصرف وأصول النحو والعروض . . . ولم تقف عند ذلك بل طفقت تتعلم الموسيقى على نفسها حيناً ، وتتلقى بعض الدروس في العزف على القانون والبيانو حيناً آخر ، حتى أجادت ذلك كله . ومضت سنوات وإذا الفتاة تأنس من نفسها القدرة على النظم فتتنظم بضع قصائد تبعث بها إلى مجلة «الجنان» التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني - أول من دعا إلى تعليم المرأة - فتقع من نفسه موقعاً حسناً . . . وهكذا راح اللغوي الكبير يشجعها من بعيد ويرعى موهبتها الشعرية ، وينشر لها مقالاتها النثرية التي تنتقد فيها عادات فتيات عصرها ، وتحضهن على التزين بالعلم والتحلي بالأدب . . . ومثل ذلك فعل خليل سركيس صاحب جريدة «لسان الحال» .

يقول الأديب سامي الكيالي : «كانت مريانا مراش تنتقد التقعر في أساليب الكتاب ، وتدعو بنات جنسها إلى معالجة الكتابة ، وإلى تحسين الإنشاء ، وتنويع الموضوعات والتفنن فيها ، وقد سافرت إلى أوروبا واطلعت على أخلاق الأوروبيين

وعاداتهم عن كتب ، فاستفادت منهم كثيراً ، ثم عادت إلى وطنها لتبث بين بنات جنسها روح التمدن الحديث والأخلاق الصحيحة» .

ويقول في مكان آخر : « كانت مريانا لزمناها من الشاعرات المشهورات . . . فهي أول أديبة سورية كتبت في الصحف ، ولا سيما بعد زيارتها لديار الغرب . . . وظهور امرأة تكتب في الصحف ، وتنظم الشعر في تلك الفترة المظلمة حادث له دلالة ، وتاريخنا القريب يقول إن الذين يقرؤون ويكتبون من الرجال في تلك الفترة بالذات من الندرة بمكان ، لذلك كان ظهورها في خضم تلك الليالي المظلمة أشبه بالنجمة المضيئة في كبد السماء» .

إن ما خلّد هذه الشاعرة في تاريخ أدب المرأة الحديث ، ليس ديوان شعرها « بنت فكر» فحسب ، بل صالونها الأدبي الذي يعتبر الوحيد من نوعه في الشرق ، قبل أن يكون صالون مي زيادة الذائع الشهرة في وادي النيل ، ولعل رحلتها إلى أوروبا ، ومشاهدتها الكثير من أمثاله عند السيدات الغربيات كمدام دي ستايل ، ومدام دي نواي شجعناها على إقامته ، رغم ضيق الحياة الاجتماعية في تلك الفترة المظلمة من العهد العثماني .

كان رواد صالونها نخبة من أدباء حلب يومذاك كقسطاكي الحمصي ، وجبرائيل الدلال ، وكامل الغزي ، ورزق الله حسون ، وغيرهم ، يجيئون فيه كأسرة واحدة ، ويتطرحون الشعر ، كل واحد يلقي ما كتبه أو نظمه في فترة غيابه عن الصالون ، أما مريانا الشاعرة فكانت تلف الجميع بأغمار الحب الدافئ ، والأنوثة الناعمة ، والمرح البريء ، وتوزع ببراعة فائقة ظرفها ورقة شمائلها ، وإشراقات مبسمها الجميل ، حتى يخرجوا وهم يلهجون بلطفها وحسن معشرها ، مسحورين بأنغام قانونها العذبة .

يقول قسطاكي الحمصي أحد رواد صالونها الدائمين : « كانت مريانا مليحة القد ، رقيقة الشمائل ، عذبة المنطق ، فكهة الأخلاق ، طيبة العشرة ، تميل إلى المزاح ، حسنة الجملة ، عصبية المزاج . . . وكان منزلها مثابة الفضلاء وملتقى الظرفاء والنبهاء ، وكان لنا عندها منزلة ترتد عنها أعين الحساد كليلة ، لما كان بيننا وبين شقيقها عبد الله من المودة الجزيلة الطويلة ، فسقيا لأيام الشباب ، ومجالس الآداب والأحباب ، ومساجلاتنا بالمحفوظ والبديه من الأشعار ، ورقصنا على العود والمزمار» .

عندما أسرف الأتراك في تضيق الخناق ، وبث الرعب والفوضى ، وإشاعة الذعر في صفوف المواطنين وبخاصة حملة الأقالام منهم ، وغالوا في نفيهم أوسجنهم ، أوتقتيلهم ، اضطروا هؤلاء إلى مغادرة البلاد مرغمين ، تاركين في الوطن أحباباً يذوبون شوقاً إليهم ، وحينئذ إلى تنشق عبيرهم ، ولا سيما من عمروا صالون مريانا بنكاتهم الطريفة . . . لقد انفرط عقد هؤلاء الأدباء ، وأقصر الصالون إلا من مريانا . . . فرجبرائيل الدلال ، وهو في طليعة المغضوب عليهم ، إلى باريس ، بلد الحرية والنور ، ومن هناك أخذ يرسل صديقه المقيم قسطاكي الحمصي ، ويصف له حياة الفرنسيين الطليقة من كل قيد ، وحريرتهم التي يعتبرونها لا أئمن ولا أغلى ، وأنه بالرغم من كرهه الغربية ، راضٍ بها مادامت تصون كرامته ، وتحمي شرفه من الأذى . يقول :

وإذا لم يكن هنا غير أن الحر فيها يعيش دون منازع
فهو يكفي حظاً لقلبي وإن سألت على غربي غروب المدامع
لم تبق لي الأراذل في الشهباء من مأرب ولا من مطامع
وعندما يذكر الشهباء ، لا بد أن يذكر مريانا ربة الفضل والفضائل كما يقول ،
ومجالس الأدب اللطيفة في ردهتها الأنيقة ، ويتحسر :
لا ولا أشتهي سواكم ولا أرغبُ فيها من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات الصون والحسن والذكا والبدائع
ربة الفضل والفضائل (مريانا) التي ذكرها يسرُ المسامع
والتي زانها الكمال إذ زان سواها الحلي وسدلُ البراقع

شعرها :

من يتصفح ديوان مريانا الصغير الحجم (بنت فكر) يجد فيه قصائد بعضها في المدح وبعضها الآخر في الغزل والرثاء وشعر المناسبات والالهيات والاخوانيات ، ذلك أن الشاعرة مدحت عددا من رجال السلك الدبلوماسي الذين كانوا يفدون على صالونها ، كما مدحت نفرا من رجال الحكم من عرب وأتراك ، ولكن لا يقعن في الظن أنها كانت تمدح بغية صلة من مال أو بغية عطاء ، بل عن إعجاب وتقدير ، ولذلك نحس عندما نقرأ هذا الشعر ، بأنه يفيض بالود ، وينضح بالإخلاص ، ويبعد عن التزلف . . . فمن قولها تمدح السيد إيفانوف قنصل روسيا انذاك :

بزغت شمس السعد بالشهباء فجلت لياليها عن الظلما
قشعت غيوم الضيم عنها فانجلت كمروسة تزري ببدر سماء
وغدت بها السكان تمرح بالهنا وتجر ذيل مودة وهناء
ومن قولها تهنيء جميل باشا بولاية حلب سنة ١٨٨١ :

أفديه لا أفدي سواه جميلا أولى المحب تعطفاً وجميلا
بدرُ عنت دول الجمالِ لحسنه فأبى لذا تمثاله التمثيلا
فإذا تجلّى فوق عرش كماله تجشوله زهر النجوم مُثولا
وإذا توارى في حجاب سنائه لا تبلغ الجوزا إليه وصولا
وقالت تهنيء إحدى الجميلات من صديقاتها :

من كل غانية زهت بجمالها ودلالها كالروضه الغناء
ماست كغصن فوقه بدر له مرأى الثريا في بديع بهاء
بحواجب مقرونة قد أوترت قوساً ترن بها سهام فنائي
إن كلمت صباً بنبل لحاظها كان الشفاء له بعذب الماء
حتى ترد إليه ذاهب روحه فيعود معدوداً من الأحياء
وقالت أيضاً :

من كان من أهل الفضائل والنهى وغدا أسير شمائل وعيون
يهوى الجفاء من الحبيب فإن حفا يزدد به كلفاً وفرط شجون
يشكوله ويظل يشكو فعله إن التعفّف شيمه المفتون
أمارثاؤها فيكاد ينحصر في أهلها وأقربائها ، وكلهم عزيز عليها ، أثير
عندها . . رثت أخواها فرنسيس المتوفى سنة ١٨٧٣ رثاء ينم عن عاطفة جياشة لا
تقل عن عاطفة الخنساء نحو أخيها صخر . وما دامت وحدة المصاب قد جمعت
بينهما - كلتاهما فقدت شاباً كريماً شهماً - فلا غرو أن تلتقيا في أكثر من نقطة ، وتتقابلا
في أكثر من زاوية ، ويقع الخاطر على الخاطر ، كما يقع الحافر على الحافر . . . لقد
لجأت مريانا إلى تعظيم أخيها وإظهار فضله وعلمه وأدبه ، والإشادة بمناقبه وشهرته
الواسعة ، وتهويل فاجعتها به ، حتى إنها أشركت الورق والأزهار والرياض ،
ومظاهر الطبيعة كلها من جو وماء ، وهي لا تخفي تأثيرها بالخنساء ، بل تصرح به
تصريحا فتقول :

مالي أرى أعين الأزهار قد ذبلت ومال غصن صباها من ذرا الشجر

مالي أرى الروض مكموداً وفي كرب
مالي أرى الوُرق تنعي وهي نادية
نعم لقد سابق الأحياء أجمعها
من فقه الناس في علم وفي أدب
أبدى من الفضل ضوءاً لا خبوله
وإنه بحر علم لا قرار له
هذا الذي جابت الأقطار شهرته
خنساء صخر بكته حينما نظرت
أقلام أهل النهى ترثيه وأسفي
قد غاب شخصك هذا اليوم عن نظري
فيا لدهر خؤون لا ذمام له
فحزن يعقوب لا يكفي لندبك يا
ويلاه من حزن قلب نال غايته
في لجة الحزن نفسي ضاق مسكنها
لقد كانت عواطفها كعواطف كل امرأة ، وهل تحتاج عواطف المرأة إلى دفع أو
إثارة أو تحريك لتنفجر ؟ أفلا يكفي أن أقول إنها عاطفة أخت وكفى ؟ .

ولريانا هذان البيتان في رثاء صبية من نسياتها توفيت محترقة بالبتروول :
عفاة نفس مع بديع محاسن ورقة أعطافٍ فله كم تُسبى
لقد جمعت ضدين في حد ذاتها ففي اللحظ إيجابٌ يشير إلى السلب
أما غزلها فهو الوجه الآخر المقابل لراثتها ، لأن كلا الفنين يقومان على العاطفة
الرقية والوجدان المضطرم . . . إنه صدى لحبها العميق ، وانفعالاتها الداخلية ،
فلنسمعها تقول :

بذكر المعاني هام قلبي صباةً فيا نور عيني هل أكون على القرب ؟
عسى الشمس في مرآك للعين تنجلي فتنقل للأبصار ما حل بالقلب
ولنسمعها تشطر إحدى قصائد الغزل الشهيرة - والتشطير كان «موضة» ذلك
العصر وما قبله - فتصف أفاعيل الغرام بالمغرمين ، وثبات بعضهم على الحب لا
يروم لسنته تبديلاً :
«للعاشقين بأحكام الغرام رضاً» يمسون صرعى به لم يأنفوا المرصاً

لا يسمعون لعذلِ العاذلين لهم
«روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا»
جاروا وما عدلوا في الحب إذ تركوا
«قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا»
أصابه سهمٌ لحظ لم يبال به
«رأى فحبّ فرامَ الوصلَ فامتنعوا»
تقطّع القلبُ منه بانتظارِ عسى
لم يكن في وسع مريانا أن تكون غير ما كانت ، لأن طبيعة الفترة التي عاشت فيها
فرضت عليها نوعاً من النمطية ، وجعلتها تنحومنحى من تقدموها من الشعراء ،
وتسير على خطاهم التي رسموها ، دون أن تحيد عنها قيد شعرة . . . تكرر ذاتها ،
ليس لأن الجراءة كانت تعوزها فحسب ، بل لأن الجمود السياسي فرض عليها شيئاً
من الجمود الفكري . . .

لقد أقبل الشعراء في زمنها على شعر التصوف والتعبد ، نتيجة اشتداد الحروب
وتفاقم المحن ، لعل الله يكشف عنهم ظلام الكروب . . . فزع الناس إلى ربهم
يعتصمون بحبله ، يمدحونه حيناً ، ويتوسلون إلى رسله حيناً آخر بقصائد أطلق
عليها اسم «البديعيات» لعله يفرج عنهم الأزمات ويحل وئاق الشعب المغلوب على
أمره ، ولا غرو فالله كان ولا يزال ملجأ كل ملهوف ، وملاذ كل مستضعف ،
وكهف كل حائر . . . ولورجعنا إلى دواوين شعراء عصور الانحطاط لرأيناها
حافلة بالقصائد الدعائية والابتهالية . . . حتى لتوشك أن تكون تسابيح وصلوات
ترتل في الكنائس والمساجد ، علماً بأن من كانوا ينظمونها ليسوا من رجال الدين
فقط . قالت مريانا في ذكر خالق السماوات وبارئ الكائنات :

الله أكبر أنت الحي والصّمد
لا ينعم المرء في الدنيا بلا أمل
إن قل رزق فأنت الفضل أوسع
وكل من رام شيئاً من سواك غوى
إذا مددت يداً في يوم معركة
يا مبدع الكون يا مهدي الأنام إلى
يا من يجيب نداء المستغيث به
مقصود كل البرايا واحد أحد
فالوعد منك وأنت العون والمدد
أوحل بؤس فأنت الرفق والعضد
ولا يقر له حال ولا سند
فتخمد النار والأبطال ترتعد
سراط حقلك إن ضلوا فيرتشدوا
يا من عليه جميع الناس تعتمد

وقبل أن أنتهي من هذه الدراسة ، لا بد أن أشير إلى ضرب أخير من شعرها ، كان بمثابة حجر الغلق في مدماك البناء الشعري ، أو هو الحلقة الذهبية التي لا تتم دورة النظم إلا بها ، تلکم هي الحكمة ، مسرح آراء الشعراء في الحياة ، ومنطلق نظراتهم الفلسفية . . . إنها القلب الذي يصب الشعراء فيه خلاصة تجاربهم ، أو الإناء الذي يستوعب اختباراتهم . تقول الشاعرة :

شرفُ الفتى عقلٌ له يسمو على كل الوری فينال غايات المني
وكذاك حسنُ الخلق فخرٌ مسود متسربلٌ بالعطفِ نعمَ المقتني
ما كل من طلبَ الكرامةَ نالها من رام صيدَ الظبي حلُّ به العنا
ذو المالِ يذهب ذكره مع مالِهِ لكن ذكر الفاضلينَ بلا فنا
بقي أن أشير إلى هذه الأبيات الأربعة من اخوانياتها التي تطالب بها أحد الفضلاء بإنجاز وعد وقد ضممتها المثل المعروف «وعد الحردين» :

يا ذا الوفا والدين أنت وليه وعلاء فضلك دونهُ الجوزاء
هل تذكرُ القول الذي سمحت به الـ نفسُ النفيسةُ واليدُ البيضاء
فالوعدُ عندَ الحردين ثابتُ ويوعدُ مثلك يحسنُ الايفاء
أنجز به واقبلُ ثنای ودّم على طولِ المدى تخضعُ لك البلغاء
لم يصف الدهر لمريانا مرآش كل الصفاء ، فبعد أن فقدت أخاها فرنسيس -
الذي كف بصره - وأباها وأمها شعرت بأنها وحيدة ، ولذلك آثرت الزواج
واختارت حبيب الغضبان الحلبي ، إلا أنها لم ترزق أولاداً .

اصطلحت عليها الأدواء في شيخوختها حتى جردتها من كل أثر من آثار الصبا
والجمال ، وصبغت وجهها الجميل بصفرة الفناء ، لكنها ظلت تروّح عن شيخوختها
اليائسة بلمسات ناعمة واهية من أصابع بيانها الساحر ، فتبعث في نفسها الأمل
بالبقاء قليلاً ، إلى أن أطفأ الموت عينها في حلب عام ١٩١٩ تاركة صدى أديباً يتردد
على مر الزمان .

* * *

مقبولة الشلق

(١٩٨٦-١٩٢١)

ولدت الأديبة السيدة مقبولة الشلق عام ١٩٢١ في حي المهاجرين بدمشق ، وتلقت دراستها الابتدائية في مدرسة المهاجرين ، والاعدادية في مدرسة تجهيز البنات ، أما المرحلة الثانوية فكانت في معهد «اللايك» المختلط ، وحين نالت شهادة الفلسفة (القسم الثاني) لم ترغب في الانتساب لدار المعلمين العليا ، شأن جميع زميلاتها ، بل آثرت الانتساب إلى معهد الحقوق عام ١٩٤١ حيث تحملت الكثير من المضايقات ، لأنها كانت الطالبة الوحيدة فيه ، وكان بعض الطلاب يستغربون دخولها هذا المعهد ، وينظرون إليها من خلف النوافذ وقد ألصقوا وجوههم بالزجاج ، وأحاطوها بأكفهم ، كي يستطيعوا مشاهدتها ، لشدة توهج الشمس خارج القاعة ، وكانت - كما تقول في ذكرياتها عن الجامعة - لا تجد الشجاعة في نفسها لتستفسر عن شيء ، أو تلقي التحية على زملائها ، وكثيراً ما كانت تسمع عبارات السخط ، لأن المجتمع كان آنذاك متزماً إلى أبعد الحدود ، فالمرأة محجبة بملاءة ونقاب أسود ، أما هي فسافرة عن وجهها ، متحررة بفكرها ، وكان بعض أساتذتها في الجامعة يتضايقون منها كثيراً ، ولا يريدون أن تقع أعينهم على بنت بين الرجال ، ويتجاوزون قراءة اسمها عند أخذ التفقد ، ويتعمدون ترسيبها في الامتحانات الشفوية لئلا يفتحوا أبواب كلية الحقوق أمام الفتيات ، فالمطبخ هو المكان المناسب لهن ! .

لقد وضع أحد أساتذتها شرطين لنجاحها الأول : عدم ممارستها مهنة المحاماة والمرافعة أمام القضاء بعد تخرجها ، والثاني : دخولها الامتحان والنقاب على وجهها ، لكنها أبت ذلك النفاق وقالت : « كيف أضع على وجهي نقاباً لمدة قصيرة ، وأنا التي كنت أناضل طوال سني دراستي الثانوية بقلم على صفحات الجرائد والمجلات ، مطالبة بسفور المرأة ، ونيل حريتها الطبيعية ، ودخولها ميدان العمل ؟ » .

ولكي تتلافى الرسوب مرة أخرى ، عمدت إلى ارتداء ثوب أسود طويل ، ووضع شال أبيض على رأسها ، حتى استطاعت أن تفوز بشهادة الحقوق عام ١٩٤٤ ، وكأنها تحمل وسام النصر ! .

عملت بعد تخرجها في تدريس مادتي التاريخ والتربية الوطنية في تجهيز البنات بدمشق ، ثم سافرت مع زوجها إلى فرنسا ، وتخصصت في دور الحضانة ورعاية الطفولة والأمومة ، لكنها لم تستطع تحقيق حلمها بإنشاء دور حضانة لأطفال

الموظفات والعاملات لظروف اجتماعية في ذلك الزمن ، فاكتفت بتأسيس «جمعية حماية الطفل» في قرى غوطة دمشق ، وفي بلدي دمر وداريا .

* * *

كتبت مقبولة الشلق القصة القصيرة والشعر في الصحف والمجلات السورية كالصباح ، والمعلم العربي ، والمرأة العربية ، والموقف الأدبي وغيرها ، وأحيت الأمسيات الأدبية والشعرية في العديد من المتدييات ، وكانت تنشر مقالاتها أحياناً باسم «فتاة قاسيون» ، كما أصدرت أربعة كتب هي : «قصص من بلدي» ١٩٧٨ ، و«عرس العصافير» (قصص للأطفال) ١٩٧٩ ، و«مغامرات دجاجة» (قصة مصورة للأطفال) ١٩٨١ ، وديوان «أغنيات قلب» ١٩٨٢ . وكانت عضواً في اتحاد الكتاب العرب .

تمحور معظم كتابات مقبولة الشلق حول حبها الصادق والعميق لمدينة دمشق التي «خلقها الله في حضن قاسيون ، وجرى بردي في أرجائها» ليهبها الغلال الوافرة ، والخضرة اليانعة ، والشمار اللذيذة . . .

كتبت عن أصالة تاريخها ، وعن نشوء الحضارات فيها ، واستقرت الآثار التي تركها الأجداد ، وصورت بقلمها لوحات لتلك الكنوز العظيمة الخالدة . . . ففي قصتها «قصة بستان» تتحدث عن بستان في حي الديوانية بدمشق ، كيف قلعت أشجاره في أواسط الخمسينات ، ودرست أرضه ، وارتفعت مكانه بناية مروحية الشكل من الاسمنت .

وفي قصتها «الأب الحنون» - وتعني به جبل قاسيون - تتحدث عن ماضي هذا الجبل وحاضره ، وحبه لابنته دمشق وأبنائها وذرائعها ، وفي قصة «لي عرس كل عام» تتحدث عن حديقة الجاحظ عندما أقيم فيها لأول مرة معرض للزهور ، وتعتقد حواراً بين الجاحظ الذي يجلس على رابية في حديقته ، وبين الوردة الجورية التي كانت شعار ذلك المعرض ، وكانت غايتها من هذه القصة أن تقدم نموذجاً من حدائق دمشق المستحدثة .

وفي قصة «عطاء مدى الدهر» تتحدث عن نهر بردى ونبع الفيحة وجريهما معاً في فروع سبعة تدخل مدينة دمشق ، وتذكر كل فرع باسمه ، والمكان الذي يجري فيه بالمدينة .

* * *

لقد صورت مقبولة الشلق في قصصها البيئة المحلية التي عاشت فيها بشكل دقيق وأمين ، منذ أن كانت طفلة ، فطالبة على مقاعد الدراسة ، وإلى أن أصبحت موظفة تحتك بنهاج ونوعيات مختلفة من الناس ، فتصور نفوسهم الخبيثة أو المعقدة تصويراً حياً نابضاً ، ببساطة متناهية ، وأسلوب سهل رشيق ، وعبارة لا تكلف فيها ولا حذقة ولا تصنع .

تتحدث الكاتبة في قصتها «كفاح» عن المتاعب والهموم التي يلاقيها الموظف المثقف النشيط المخلص ، إذا أرغم على العمل مع موظف آخر جاهل ، وهو أعلى مرتبة منه . . . ف«كفاح» - بطلة القصة - فتاة هي كبرى أخواتها ، عملت مع أمها في الخياطة ، لتعيل أسرتها المستورة الحال ، لأن أباهما قتلتها صخرة كبيرة وهو نائم في غرفته التي بناها فوق المطبخ ، في بطن قاسيون .

درست كفاح حتى تخرجت من الجامعة ، ثم نجحت في مسابقة الموظفين ، وعينت في أحد الدواوين ، فرحب بها رئيس الديوان في اليوم الأول أجمل ترحيب ، لكنه أخذ يغار من الشهادة الجامعية التي تحملها ، ويقول لها : «لا فائدة من الشهادة في هذا المكان عُينت في هذه الوزارة قبل ثلاثين عاماً ، لكنني أعلم من أمور هذا الديوان ما لا يستطيع أن يعلمه حامل الدكتوراه .

إنه نموذج لفئة كبيرة من الموظفين الذين يتعلقون بالروتين ، ويعارضون كل عقلية متطورة متفتحة على الحياة والأنظمة الجديدة التي يمكن أن تسير المعاملات وتنجزها بسرعة ، لذلك اصطدمت به ، وراحت تصفه لنا وصفاً دقيقاً من الخارج والداخل فهو «أشيب ، نحيل قصير القامة ، عيناه غائرتان ، ووجهه شاحب كالنومياء ، ينحني أمام رئيسه كما ينحني قائد فرقة موسيقية تحية للمصنفين ، علّمت أمه منذ قلبه في أحشائها ، كيف يكون موظفاً ، يستقبل كل مدير جديد بالمدح والاطراء» . هذه الدقة في الوصف والتحليل من أولى ميزات القاص

الناجح ، والعمل القصصي الجيد ، لأن الكلمات المختارة بعناية تستطيع أن تقوم أحياناً مقام الأصباغ والألوان والريش ، أو تحل محلها .

ويستمر الصراع بين كفاح - الموظفة الجامعية الجديدة - ورئيس الديوان ذي العقلية الجامدة المتحجرة المتخلفة ، فيمنعها من أن تسير آية معاملة ، حتى أصبحت تنجس من نفسها ، فهي تتقاضى راتباً دون أن تعمل شيئاً ، وتجلس خلف مكتب أنيق ، عليه جميع ما يحتاجه الموظف من «محبرة بلونين وأقلام تنام هادئة على درجات سلم معدني أسود ، ووراقة فيها الكثير من الأوراق البيض ، المطبوع عليها اسم الدائرة ، ونشافة . . .» ، وكل هذه الأدوات تهزأ بها لأنها لا تستعملها .

وكثيراً ما كانت كفاح تلجأ إلى مناجاة نفسها ، وهي تحلم خلف مكتبها فتقول : «ما هذه الإقامة الجبرية ؟ الأنني نلت شهادة جامعية ؟ لشد ما ألعبنا كما يلعبنا في هذه الأيام التاجر الذي علم ابنه فحملها وصار موظفاً . . . ليتني وظفت وأنا أحمل الشهادة الثانوية . . .» .

كم من موظف لا عمل له في دوائر الدولة ، ويقوم مثل هذه الإقامة ، والفرق بينه وبين كفاح أنها تريد أن تعمل باخلاص واندفاع ، وهو لا يعمل ، ولا يريد أن يعمل ، بل يتقاضى مرتبه آخر كل شهر ، وهو لا يشعر بتأنيب الضمير ، كما شعرت كفاح . وعندما يأتي موظف آخر إلى الديوان يكون مصيره نفس مصيرها ، فيضطر للخروج إلى غرفة المستخدمين الصغيرة الضيقة ، والجلوس معهم ليقول الوقت الذي كان يمضي عليه ثقيلاً بطيئاً مملاً ، ويشاركهم في الحديث وشرب الشاي ! وكان رئيس الديوان يتباهى أمام زملائه الموظفين القدامى بأن لديه موظفين يحملان شهادة جامعية ولا يجبان العمل ، وليس لديها أي استعداد لفهم الروتين ! . . . وهكذا تسخر الكاتبة من أمثال هؤلاء الموظفين ذوي العقليات الرجعية الذين تغص بهم دوائرنا ، وتمسكون بالروتين تمسكاً أعمى ! .

ثم يشتد الصراع ويحتدم التمزق أكثر فأكثر عندما يعين رئيس الديوان في إذلال كفاح ، إذ يكلفها بإزالة الغبار عن الأضابير التي طال عليها العهد ، لكنها تجيبه بجرأة قائلة : «أقوم بهذا العمل إذا قمت به أنت أيضاً . . .» . وتبقى كفاح على هذه الحال من القلق والتوتر النفسي حتى تصاب بالمرض ، وترتمي في الفراش ، فينصحها الطبيب بالراحة في البيت لمدة أسبوع . ولما لم تجد مهرباً من شبح رئيس

النراجيل تتعالى قرقرتها في الفضاء ، وينصرف بعضهم إلى السماور لتهيئة الشاي

«وفي ليالي الصيف ، عندما يرسل القمر أشعته إلى أعماق القلوب ، يجلس جماعات الرجال فوق أضلاعي اليمنى ، وتشرف عليهم قبة «السيار» ، يرسلون الأغاني والآهات والموايل ، ومن بعيد تجلس الصبايا يستمعن إليهم»
والحديث عن قاسيون لا بد أن يقودها بالتالي إلى الحديث عن صفحة ناضجة مشرقة من صفحات البطولة ، أيام الاستعمار الفرنسي لسورية ، حين كان الثوار يلجؤون إلى مغاور الجبل وكهوفه ليتحصنوا فيها وعن الطنابر التي تنقل الحجارة منه لبيعها ورد غائله العوز وعن بردى وحفلات الأنس التي كانت تقام على ضفتيه ، وسباقات الخيل ، ونداءات الباعة على الصبارة «طيبة ناهية هالصبارة» والحلباس «بيشرب من يزيد هالحلباس» و«حب الماس هالحلباس» وعن البيوت السطينية وسطوح التراب والقرميد ، ونقل الماء بـ«الراوي» الذي كان يحمل إلى البيوت على ظهور البغال ، وحافلة الترام بقسميها للرجال والحريم ، وعن زمارة الكمساري .

وتصعب نقيمتها على تلك الأقبية التي يتناسل فيها الناس ، ولا يتوافر فيها أي شرط من الشروط الصحية إلى أن تتساءل دمشق نفسها : «أين بيوتي وحدائقها ؟ وأين حواكيري وثمارها ؟ وأين نهري وماؤه ؟ انظروا إلى الأبنية كيف بنيت ، وإلى طبقاتها كيف رفعت» . وتسترسل في الوصف حتى تنسى أنها تكتب قصة قصيرة ، يجب أن تتوافر فيها شروط فنية معينة ، وتتحول قصتها إلى قطعة نثرية جميلة ، تسحر بنكهتها الحارة ، وتبهر بألوانها البلدية الصارخة ، ولذلك نستطيع أن نقول إن قصصها توشك أن تكون في بعض مقاطعها لوحات فنية رائعة ، وصوراً فولكلورية جذابة ، يفرح بها أولئك الذين تستهويهم دمشق الماضي والتاريخ ، بعاداتها وتقاليدها التي يريدونها أن تبقى خالدة على مر الزمن ، تعاند تيار الحضارة الزاحف عليها بقوة .

ثم تحدثنا الكاتبة في قصة «ودار الزمن دورته» عن أبي محمود صاحب العربة الخشبية التي يظللها قماش أبيض ، ويجرها حمار تتدلى من عنقه أجراس صغيرة ، وعقود من الخرز المختلف الألوان ، وكانت تزدهم دائماً بالأولاد الجالسين على

مقعدتها الجانبيين ، وبالواقفين الذين يفوق عددهم عدد القاعدين ، يدفع كل واحد منهم خمسة قروش ليركب العربة ، وكيف كانت تقطع المسافة من جانب قبر الشيخ يحيى الدين بن عربي إلى آخر السوق في حي الشركسية ، وأبو محمود يصيح بأعلى صوته «يا ولاد محارب» فيرد الجميع مصفقين «يويو» .

وتسرد - من خلال قصصها - طائفة من ذكريات طفولتها التي شهدت الأعمال الوطنية البطولية ، فشاركت في المظاهرات ، وساهمت في الاضرابات ، احتجاجاً على وجود الاستعمار الفرنسي ، فتختلط عندها الذكريات بالقصة ، ويطغى الوصف على سياق الأحداث ، فلا يعرف القارئ أي لون من ألوان الأدب يقرأ . . . الاطار اطار قصة بطلها أبو محمود الذي حطم المستعمر الفرنسي عربته وأدخله السجن ، لأنه اشترك في المظاهرات الشعبية ضده ، أما المضمون فيجنح في أكثر من موضع إلى الاستطراد وسرد الذكريات الشخصية ، ورسم اللوجات الفولكلورية .

ويقودها الحديث عن الاستعمار الفرنسي ، إلى الحديث عن الجنود المغاربة الذين أجبرتهم فرنسا على قتال إخوانهم العرب السوريين ، ثم «دار الزمن دورته» فإذا بأولاد أو أحفاد هؤلاء الجنود يأتون إلى سورية مرة أخرى عام ١٩٧٣ ليحاربوا إلى جانبنا في معارك تشرين تحت اسم «التجريدة المغربية» أليس هذا من المفارقات الغريبة ؟ كيف كانوا بالأمس يقاتلوننا - مكرهين - وهم اليوم يقفون إلى جانبنا وقفة الأخ من أخيه . . . وتنتهي حرب تشرين التي تسفر عن عشرات الشهداء ، فترى الكاتبة في أحد المواكب رجلاً يتوسط الصف الأول ، يرتدي قميصاً أزرق وسروالاً أسود ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ، يمشي هادئاً صامتاً شامخاً . . . إنه أبو محمود عينه ، صاحب عربة الأولاد التي حطمها الفرنسيون ، يشيع ابنه الضابط في الجيش العربي السوري . . . وكان قد شيع قبله ابنه المجند الذي استشهد في معارك جبل الشيخ .

مهما قيل في قصص السيدة مقبولة الشلق ، ومخالفاتها الفنية ، وخروجها عن قواعد القصة الفنية المعروفة ، فانها تظل تشد القارئ إليها بلطف ومودة وحب ، وتشعره قراءتها بلذة سحرية أسرة ، لأنها تنقله إلى أجواء من نشوة الماضي القريب ، على أجنحة من البوصف البارع بالكلمات العذبة المختارة بدوق ومهارة ، وتشير في نفسه مشاعر عميقة يختلط فيها الألم بالسعادة واللذة ، كما في قصة «الغادرة» التي

تحدثت فيها عن مدفأة المازوت التي أحببتها ، وبينت أسباب كرهها لمدفأة الحطب من خلال ذكريات حميمة في الطفولة والشباب ، ثم كيف غدرت بها هذه الصديقة - مدفأة المازوت - في ليلة عاصفة من أحلك الليالي وأشدّها هولاً ، إذ نفضت دخانها وهبائها الأسود في البيت ، إثر عاصفة هوجاء مجنونة ، فاستحال كل ما فيه إلى لون أسود داكن ، حتى وجهها ووجه طفلتها التي كانت تشوبها الحمى في تلك الليلة .

أبطال مقبولة كلهم يتحركون ، الجمادات كالأحياء : من مدفأة البيت ، إلى جبل قاسيون ، إلى نهر بردى . . . وكلهم يتكلمون ، ويحبون ، ويتألمون ، ويسعدون ، ويكرهون . . . مما يدل على سمو خيالها الخلاق ، وقدرتها الفائقة على الوصف والتصوير ، وخلع الصفات الانسانية على كل شيء . . .

ملك حفني ناصف

(باحثة البادية)

(١٨٨٦ - ١٩١٨)

ولدت باحثة البادية (ملك حفني ناصف) في القاهرة عام ١٨٨٦ ، وتلقت
دراستها في المدارس الفرنسية ، ثم دخلت المدرسة السنية في عهد كان فيه الآباء لا
يخاطرون بادخال بناتهم إلى تلك المدرسة ، فكانت أول فتاة دخلت المدرسة ، وأول
فتاة نالت شهادة في مصر عام ١٩٠٠ وعمرها لا يتجاوز ثلاثة عشر عاماً . وبعد أن
درست ثلاثة أعوام ، ونالت دبلوم التعليم ، أخذت تمارس تعليم البنات
والأطفال ، وتحدث السيدات المصريات على السماح بادخال بناتهن المدارس ، بعد
أن كانت مقتصرة على بنات الفقراء ، وتنشر في جريدة «المؤيد» وجريدة «الجريدة»
مقالات في مساواة المرأة بالرجل ، وتربية البنات ، والزواج ، وتعدد الزوجات ،
وسن الزواج ، وزواج الأختين ، وجمال المرأة ، والسفور والحجاب ، والاقتصاد
المنزلي . . . فكانت بذلك أول من تعلمت وعلمت وكتبت .

ووجدت عام ١٩٠٧ من الشيخ عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم ،
سكت تكتب من هناك باسم «باحثة البادية» ، وقد جمعت بعض مقالاتها في قضايا
المرأة بكتاب أسمته (النسائيات) صدر عام ١٩١٠ وقدم له أستاذ الجيل أحمد لطفي
السيد الذي قال فيها : «إنها أكتب سيده قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر ، بل هي
تعطينا في كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات اللاتي تفوقن على كثير من الكتاب ،
وليس نبوغها عملاً من أعمال الصدفة ، بل هو قضية علمية مقررّة ، لأن هذه
الكاتبة من بيت علم وأدب ، انتقل إليها من أبيها حفني ناصف بحكم الوراثة
الطبيعية» .

ولباحثة البادية مقالات أخرى لم يضمها كتاب «النسائيات» نشرت في جريدة
«جون ترك» في استنبول ، وفي جرائد ألمانية وفرنسية ، ورسائل باللغتين الفرنسية
والانكليزية تبادلتها مع المشتغلات بالقضايا النسائية في أوروبا ، وقد أثنت عليها
الكاتبة الانكليزية «شارلوت كمرون» في كتابها «شتاء امرأة في أفريقيا» ووصفت
منزلها وأخلاقها وحياتها العائلية .

كذلك ألفت العديد من الخطب في دار جريدة «الجريدة» وفي الجامعة المصرية ،
حول قضايا المرأة المصرية ، وأنشأت جمعية النساء التهذيبية التي جمعت فيها نخبة من
السيدات المصريات والأجنبيات ، لأن وجود هؤلاء فيها يشجع المصريات على الثقة
بها ، ويدعو الحكومة إلى عدم التدخل في أعمالها ، ووضعت برنامجاً لإنشاء مشغل
للفتيات الفقيرات وملجأ للنساء ، وكانت تنوي أن تهب هذين المعهدين كل ما لها

من ميراث ، وأقامت في منزلها مدرسة صغيرة لتعليم التمريض ، واستحضرت لذلك عدداً من المعلمات الخبيرات بهذا الفن ، وكانت في كل تلك الجمعيات تسند الرئاسة لإحدى السيدات الفضليات ، كالسيدة هدى شعراوي ، لثلاثتهم بالأناية وحب الذات .

كانت تنفق كل مواردها على أعمال الخير وتعليم الفتيات الفقيرات ، والتبرع للمحتاجات من النساء ، وقد باعت أكثر حليها : واشترت به أرضاً لتنفق ريعها على مختلف وجوه البر والإحسان .

لم تنجب باحثة البادية أطفالاً ، فوزعت حنانها على الأطفال المساكين الذين كانت تمطرهم بهداياها في كل مناسبة لتشعرهم بالسعادة ، وتشعر هي بالراحة النفسية وقد دفعها ذلك للانصراف إلى الخدمة العامة ، وحفظ الشعر ، وقراءة كتب الفلسفة والاجتماع ، حتى إنها كانت قادرة على أن تناقش في فلسفة دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب ، كما تقول شارلوت كمرون .

كانت تحب الفنون الجميلة ، وتهوى قراءة كتب الأدب والشعر والتاريخ ، وكانت سريعة التأثر ، مشبوبة العاطفة ، تتألم من كل مشهد حزين تراه أو تسمع به ، وتفويض دموعها من ظلم الانسان لأخيه الإنسان ، وقد زادت هذه العواطف المتأججة من حدة مرضها الذي انتصر عليها في النهاية ، وفاضت روحها إلى بارئها في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩١٨ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها .

* * *

لقد كان لباحثة البادية فضل كبير على الحركة النسوية في مصر ، فهي التي شجعت المرأة على التعليم والنهوض ، وفتحت أمامها أبواب العلم ، وكانت مي زيادة في طليعة من شجعتهن على الكتابة في الصحف والمجلات ، وتبادلت معها العديد من الرسائل ، فردت عليها مي تشكرها قائلة :

«ترنمت باسمك قبل أن أعرفك ، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل أن أطلع مقالاتك ، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك ، غير أنني عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلة ،

خيل لي فيها أنني أقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة» .
«بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك فعثرت على جراح بليغة ، وددت تقبيلها
بشفتي روعي ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بناني على غير هدى ، ولم يكن ذلك
إلا إجلالاً لصفحات قلبتها ، وحباً لنفس استجوبتها فعرفتھا» .
وتقول لها أيضاً :

«ضمي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجليل من هوة الحيرة والتردد .
ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتاً خارجاً من أعماق القلب ، بل
من أعماق الجراح كصوتك ، قد يفعل في النفوس ما لاتفعله أصوات الأفكار» .
«لا يهمننا أن نخفي تلك اليد النحيلة وراء جدران خدرك ، وأن تحجبي هيئتك
الشرقية وراء نقابك الشعري ، مادمننا نسمع صوتك في صرير قلمك ، ونعرف منك
روحك العالية» .

«فهنيئاً لوطن يضم بين بناته مثيلاتك ، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من
ابتسامتك ، ويسكبون حياتهم في قالب حياتك» .

ولم تكتف مي بذلك بل ألفت عنها كتاباً بعنوان «باحثة البادية» صدر عن مطبعة
مجلة المقتطف عام ١٩٢٠ تناولت فيه حياتها ، والدور الريادي الذي اضطلعت به في
دفع الحركة النسوية إلى الأمام ، كما درست شخصيتها وآراءها وأدبها دراسة وافية .

* * *

بعد مضي سبع سنوات على وفاتها أقامت لها سيدات مصر في ٢٤ تشرين الثاني
عام ١٩٢٥ حفلة تأبينية كبيرة في حديقة الأزبكية برئاسة السيدة هدى شعراوي
تكلم فيها كل من : هدى شعراوي ، والشاعر خليل مطران ، ومجد الدين حفني
ناصر ، ونبوية موسى ، ومي زيادة ، ومما جاء في قصيدة خليل مطران قوله :

يا آية العصر حقيق بنا تجديد ذكراك على الدهر
جاهدت لكن النجاح الذي أدركته أعلى من النصر

بدأت تبشير الحياة التي جئدت ، فحيي طلعة الفجر
أمامي فقالت : « . . . وكما كانت موحية لي أول كتاب عربي عن كتابة
عربية ، كذلك كانت أول امرأة مصرية - وأكاد أقول شرقية - تعاون الرجال والنساء
على الاحتفاء بتأبينها رسمياً ، فأقام الرجال حفلتهم بعد مرور أربعين يوماً على
وفاتها ، وأقام النساء حفلتهن بعد مرور العام في دار الجامعة المصرية القديمة ، وقد
كان لي الشرف والسرور والحزن أن أكون من أعضاء اللجنة التي عنيت بتهيئة تلك
الحفلة ، ومن الخطيبات اللاتي تكلمن فيها» .

وختمت كلمتها بقولها : «إنكم تدركون أنه لا خير في وطن يجري الرجال منه
والنساء مقعدات ا بل الخير كل الخير في وطن يتعاون الرجال فيه والنساء على تنشئة
الفرد الصالح تنشئة للعائلة فالمجتمع فالأمة الزاهرة بتيارات الرفعة والكرامة» .

* * *

هذه هي ، سثة البادية التي كان لها الفضل الأكبر والأول في إرساء حجر الأساس
للنهضة النسائية في مصر خاصة والوطن العربي عامة ، وسلكت طريق الاعتدال في
هذا العمل - والاعتدال أمان من الزلل - لكي لا تصطدم بالعادات الموروثة ،
وشعائر الدين ، بعكس قاسم أمين الذي استعمل شجاعته أكثر مما يجب فصدم
الجمهور صدمة قوية ، وأخفق في دعوته رغم سلامة قصده ، وصدق نيته .

مبي زيادة

(١٨٨٦ - ١٩٤١)

كانت مي * أشهر أديبة عربية سبقت عصرها ، فقد أقامت صالوناً أدبياً في منزلها بشارع المغربي رقم ٢٨ في القاهرة ، استقبلت فيه كبار رجال السياسة والأدب والفكر والفن في وادي النيل ، وبعض الوافدين إلى الديار المصرية ، وكتبت في الصحف والمجلات ، وأصدرت سبعة عشر كتاباً بين مؤلف ومترجم ، وألقت العديد من الخطب والمحاضرات ، وعقدت الصلوات الأدبية مع كبار الكتاب والمستشرقين ، وداومت على دروس الفلسفة في الجامعة المصرية ، وأتقنت خمس لغات هي : العربية والفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية ، وألمت بالاسبانية واللاتينية والسريانية واليونانية القديمة .

* * * *

ولدت مي زيادة في الناصرة في ١١ شباط عام ١٨٨٦ من أب لبناني من قرية شحتول بقضاء كسروان غريب عن فلسطين هو الياس زخور زيادة ، جاء إلى الناصرة ليعلم في إحدى مدارسها الابتدائية ، وأم فلسطينية من أصل سوري تدعى نزهة خليل معمر ، كانت تحفظ ديوان ابن الفارض ، ومئات الأبيات الشعرية ، ولم يرزق الزوجان غيرها من الأولاد ، سوى طفل صغير لم ينعم بالحياة .

دخلت مدرسة الراهبات اليوسفيات في الناصرة في السادسة من عمرها ، وتخرجت فيها وعمرها ثلاثة عشر عاماً ، وأرسلت إلى مدرسة راهبات الزيارة في «عينطورة» ، وهكذا تفارق أمها لأول مرة ، وفي المدرسة كانت تبدو غريبة الأطوار ، تحير معلماتها وصديقاتها بتصرفها الشاذ ، فهي رضية الخلق ، حادة الذكاء ، لكنها سريعة التأثر ، عزيزة النفس ، تعيش في الواقع مرة ، ومرات في غمرة الأحلام .

كانت في تلك الفترة تسجل خواطرها في كل صباح ، تحت عنوان (من يوميات عائدة) - وعائدة هي نفسها مي - كتبت : (كيف أتخلص من شعوري ؟ كيف ألاشييه ؟ كيف أصير صخرة ؟ حدثيني أيتها الحجارة السعيدة كيف صرت حجارة ؟) .

وكثيراً ما ترك اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس ناظرة إلى البحر البعيد وزرقته واستدارة الأفق المخيم عليها ، فترى السفن وقد تضاءلت

بشاسع المسافة ، وفي تلك الخلوة أيضاً كانت تتنهد وتشكو وتكتب وتحسد العصافير المرفرفة حولها ، تزقزق على هواها حرة طليقة ، لا تراعي واجبات اجتماعية ، ولا تحترم القوانين .

وعندما أنهت دروسها في عينطورة عام ١٩٠٤ ، وقضت عدة أشهر في مدرسة الراهبات العازاريات في بيروت ، عادت إلى الناصرة ، وبدأت تطالع ، فطالعت لامارتين ، وكورني ، وشيلر ، وشلي ، وبايرون ، وساحت معهم في أثير الشعر ، كما طالعت سير الأدبيات العظيمة ولا سيما مدام دي سيفينييه ، وجورج صاند ، ومام دي ستال ، وتساءلت غير مرة : لم لا تسير في اثرهن ، وهي التي لا يعوزها الحسن والعزم والذكاء . . . ؟ وعندما تسأم الدراسة تمتطي جواداً وتمضي متنزهة في مرج ابن عامر ، مطلقه لخيالها وجوادها العنان .

في مصر :

انتقلت مع أبويها إلى مصر عام ١٩٠٧ وعاشت على هامش الحياة حيناً ، ولكنها لم تياس ، بل وجدت عزاءها في الموسيقى والكتابة والشعر ، ثم أتيح لها أن تعمل معلمة لأولاد ثري مصري يدعى (ادريس بك راغب) الذي وهبها جريدة (المحروسة) ومطبعتها سنة ١٩٠٩ ، وانفتحت الحياة في وجهها ، فذهبت لزيارة لبنان ، وأقامت في برمانا التي (تتوارى بين خضرة الأشجار) ، وكم مرة انطلقت تنتقل في الجبال ، وقد عصبت هامها أكاليل من المرجان ، وغمرت أعماق أوديتها (الظلال) .

ثم عادت إلى مصر لتعمل في طبع مجموعة أشعار لها بالفرنسية ، غلب عليها الطابع الرومانسي هي (أزاهير حلم)^(١) وأصدرته باسم مستعار هو (ايزيس كوبيا)^(٢) وأهدته إلى الشاعر الفرنسي (لامارتين) شاعرها المفضل ، وقد أحدث الديوان ضجة في المجالس الأدبية ، فتساءل الناس : من تكون تلك الأدبية الفذة ؟ حتى اكتشفوها في نهاية الأمر ، فعادت توقع باسمها الحقيقي .

والحق أن باحثة البادية هي التي حفزتها على الكتابة بالعربية ، ثم ذهبت إلى لبنان ثانية عام ١٩١١ وأقيم لها حفل تكريمي في ضهور الشوير ، وبنى لها فارس مشرق كوخاً أخضر على جبل (مرحاتا) دشنته بحفلة أنيقة ترأسها الأمير (قبلان أبي اللمع) . وحضر الحفلة كبار الأدباء والأعيان ، فألقت فيها أول خطبة لها . أما

كوخ مي فكان من خشب الغصون ، مسقوفاً بالأعشاب اليابسة ، ليس فيه شيء غير مقعد وطاولة عليها بعض الكتب ، كما جعلت جدرانها من الداخل خضراء اللون ، وفي هذا الكوخ الأخضر ترجمت كتاب الحب الألماني لـ (ماكس مولر) بعنوان (ابتسامات ودموع) وكانت قد درست الألمانية في القاهرة إبان الشتاء .

عادت مي إلى القاهرة خريف ١٩١١ فكتبت باستمرار في (المحروسة) وغيرها ، فأثارت اعجاب القراء ، وفي تلك السنة بدأت صلتها بجبران الكاتب اللبناني المهاجر ، فكان أول ما طالعت له مقالة (في مثل هذا اليوم ولدتني أمي) فلقيت لديه صوتاً حاد النبرة ، يחדش الأذان الشرقية ، ثم راحت تستوضح سيرته وأوضاعه باهتمام فعلمت أنه لبناني بائس هجر قرية بشرى في شمالي لبنان مع أمه واخوته إلى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك في الحي الصيني الموبوء القذر أخذ يدرس اللغة الانكليزية ، ويرسم عوض أن يساعد ذويه في تجارة الخردوات ، وعلمت أنه فقد أخاه وأمه وأخته صغيراً ، فعاد إلى بيروت ودرس العربية في مدرسة (الحكمة) ، ثم قصد باريس وتلقى أصول الرسم الحديث خلال سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ، حيث التقى الفنان اللبناني (يوسف الخويك)^(٣) ، ثم عاد إلى بوسطن ، وعاش من ابرة أخته مريانا في بيئة تعاسة وحرمان .

علاقتها بجبران :

بينما كانت مي تطالع في غرفتها الموحشة قصة (مرتا البانية) ذات مساء ، إذا بها تتوقف بغتة وتتأمل . لقد خطر لها أن تكتب إلى المؤلف مبدية اعجابها به . ولكن كيف تكتب له وهي لا تعرفه ؟ . وإذا كتبت ماذا سيكون موقفه منها ، وهو تلميذ نيتشه المتعجب ؟ ! ألا يهمل رسالتها ، ويجيبها شاكراً من فوق ، وفي تضاعيف شكره استصغار واشفاق ؟ . أتتطفل وتكتب إلى شخص غريب ، وهي من هي في مصر ، وفي أوساط الأدب ؟ وهل بلغت شهرتها الولايات المتحدة حتى يعلم جبران منزلتها الأدبية ، فيقدر أعجابها به ؟ خواطر متضاربة حركت ذهنها وكانت انتفاضة عصبية هيجت يدها ، فإذا بها تقول معرفة نفسها : (أمضي «مي» بالعربية وهو اختصار اسمي ، ومكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو «ماري» ، وأمضي «ايزيس كوبيا» بالفرنسية غير أنه لا هذا اسمي ولا ذاك ، اني وحيدة والدي ، وان تعددت ألقابي) .

بلغت جبران الرسالة في امضى ساعاته . . . فالوساوس تتناهبه ، والخيبة تحز في صميمه ، لاصديق يفهمه فيواسيه ولا حنان ، اللهم إلا حنان أخته ، وقد فترت علاقته بـ (ماري هاسكل)^(٤) بعض الفتور ، فطالع الرسالة بامعان ، وتلمس خلفها نفسا كثيبة حائرة تشكو غربتها هي أيضاً ، ونهض لساعته فأجابها إجابة رقيقة ، استهلها بالثناء على جرأة الأديبة المتحررة ، وأخذ يحدثها برمزيته الخاصة عن ماضيه وتصاميم غده ، حتى انتقل إلى كتاب (الأجنحة المتكسرة) آخر ما أصدر ، فلمح لها بالظروف التي أوحته ، وأهداها نسخة منه .

طالعت مي الأجنحة المتكسرة بلهفة ، إذ وجدت فيه تلك الخفقة اللاهبة التي تلمستها لدى لامارتين ، فراحت تقارن بين (غرازيلا) و (سلمى كرامة) وتتأمل ووجدت فيها أيضاً مزيجاً وثيقاً من ظمأ بيرون ورقة شيلر ، وحسرة شوبان ، أولئك الأعلام الذين احتلوا المكانة الأولى عندها ، فازداد أعجابها بالمؤلف ، فكتبت إليه في أيار ١٩١٢ تشكر له هديته ، وتطري نهجه ، وتناقشه في موضوع الزواج قائلة : (إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيمنا ، مخلصاً في الدفاع عنها وأشاركك في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة ، فكالرجل يجب أن تكون لها الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب) إلى آخر هذه الرسالة الطويلة التي تدور كلها حول الزواج وحرية المرأة . . . ولم تنس مي في آخر رسالتها أن تحدث جبران عن كوخها الأخضر وأيام لبنان الجميلة قائلة : (فلا أساتذة لي إلا أحلامي وتأملاتي ، ولا أقرأ من الكتب إلا الكتاب الذي أحبه ، وكل واحد من مؤلفاتك صديق عزيز علي ، بل أرازي تلميذة أفكارك في مواضيع كثيرة) .

مي الخطيبة :

أهدى الخديوي عباس حلمي الشاعر خليل مطران الوسام المجيدي ، فدعا سليم سركيس شعراء الوطن العربي وأدبائه لتكريم مطران في بهو الجامعة المصرية عام ١٩١٣ ، فأسهم جبران من أميركا بهذا التكريم ، وأرسل كلمة بعنوان (الشاعر البعلبكي) اقترح سركيس على مي أن تلقيها ، ليكون للتكريم معنى جديد باشتراك المرأة فيه ، ووقوف فتاة عربية أول مرة في العصر الحديث على منبر الخطابة في حفلة رسمية عامة ، فهاها هذا التكليف ، وتهيبت هذا الموقف أمام

رجال الادب والعلم ، لكن أباهما شجعها ، وجاءت ساعة الخطابة ، فشعرت بالخوف يدب في نفسها ، ولكنها تمالكت أعصابها ، وألقت كلمة جبران بحساسة ، ثم اتبعتها بكلمتها ، فنجحت في الاثنتين معاً ، فقام الأمير محمد علي رئيس الحفلة فصافحها وهنأها .

عبر البحار :

توالت الرسائل بين جبران ومي ، وتبادلا فيها الآراء والاعجاب ، ولأن (النفس الحزينة المتأللة تجد راحة كبيرة بانضمامها إلى نفس أخرى تماثلها بالشعور ، وتشاركها في الاحساس ، كما أن الغريب يستأنس بالغريب) . وحين شكت له حالة لبنان السيئة ، وحثته على الكتابة في هذا المجال كتب جبران مقالة الماثور : (ويل لأمة تقابل كل فاتح بالتطيل والتزمير ، ويل لأمة تكره الضيم في منامها ، وتخضع له في يقظتها ويل لأمة لا ترفع صوتها إلا إذا سارت وراء النعش) .

غير أن الرسائل أخذت تنجح نحو تبادل العواطف ، فإذا كل واحد يهفو للآخر ويصارحه بحبه ، فلنسمعها تقول له : (ماذا جرى^(٥) للبريد ؟ كان يصل في ثلاثة أيام أو أقل أحياناً ، وها مكتوبك يصل الآن بعد أربعين يوماً . . . ما أبطأ الرسائل في انتقالها ! أترأها تنجيء من أقاصي الدنيا ، من أميركا . لتصرف كل هذه الأيام على الطريق ؟ لقد كنت يوم ٦ يناير بطوله موضوع تفكيري ، وكنت مائلاً أمامي بصورة طفل (نونو ، نونو) تتحرك يده الصغيرتان في الهواء ، بإشارة الباحث عن أدوات قدر له أن يحملها ويعالجها . . . كأنك تلومني لأنني أسألك عن صحتك ، وهل يمكن إلا أن أسأل ؟ لماذا لم تخبرني بشفائك قبل اليوم ، قبل أن أسالك ، قبل أن نعود إلى التراسل . . . ولكن كيف استطعت أن تهمل تطميني ، وأنت تعلم أن ليس من يطمني غيرك ؟ كيف استطعت ألا تفكر في كل هذه الشهور ولا مرة واحدة ؟ . ما أحلى رسالتك في قلبي يا مصطفى ! ما أحلى كلامك بين تافه الكلام وركيكه ! إن الفاضلك وسطورك جدول نور وندى تشعشع ، وحرارة ولطافة وانشاد . . . أتصدّق انني أشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنقشها ولا أراها ، فأستعيض عنها بالرسوم المنشورة لك في كتبك ؟ . . .

جبران . . . كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول إنك محبوبي ، لأتحايد كلمة الحب . إن الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه في السهرات

والمراقص والاجتماعات ينمو في أعماقهم قوة دينامية رهيبية . . . ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إنني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكنني أعرف أنك محبوبي ، واني أخاف ، اني أنتظر من الحب كثيراً . . . أخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر ، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ولكن القليل في الحب لا يرضيني ، الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير .

كيف اجسر على الافضاء بهذا ، وكيف أفرط به ؟ لا أدري . . . الحمد لله أنني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربتُ خجلاً بعد هذا الكلام ، ولاختفيتُ زمناً طويلاً من أن أدعك تراني إلا بعد أن تنسى . . . أتذكر قول الشرقيين القدماء إنه خير للبت ألا تقرأ ولا تكتب ! ها قد صح علي ارتياهم ، وصدق في سوء ظنهم . . .

إن قلبي يسير إليك ، وخير ما في يظلم جاثماً حوالياً يحرسك ويحنو عليك . . . غابت الشمس وراء الأفق ، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة ، نجمة واحدة هي الزهرة إلهة الحب . أتري يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي لها واحد «جبران» حلو بعيد بعيد ، هو القريب القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء ، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة ، قبل أن ترى الذي تحبه ، فتتسرب إليها كل وحشة الشفق ، وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانباً ، لتحتمي من الوحشة في اسم واحد هو (جبران) .

صالون مي :

كان لمي صالون في شارع مظلوم باشا ، تستقبل فيه الأدباء كل يوم ثلاثاء ، وتتولى إدارة الحديث فيه دون أن تظهر بمظهر المنزعجة ، وتمحور روح الخصام التي تنشأ عادة بين الأدباء ، وقد وسع صالونها مذاهب القول ، واشتات الفكر وفنون الأدب ، فكان مكاناً للحديث بكل لسان ، وملتمقى للطوائف دون تفريق ، فكم من مناقشة حادة جرت بين الشاعر اسماعيل صبري (المسلم) والمطران دوريان (المسيحي) وشبلي شميل (الدارويني) . - نسبة إلى دارون - فافترقوا جميعاً متأخين ، على الرغم من تباين عقائدهم واختلاف ميولهم . وكانت مي تضيفي على

هذه المجالس اشعاعاً من ذكائها النادر ، وأنوثتها الحارة مما جعل رواد صالونها يستعجلون انعقاده كل يوم ثلاثاء ، وقد عبر اسماعيل صبري عن هذه اللفتة حين قال :

روحي على بعض دور الحي حائمة كظامىء الطيرتواقياً إلى الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غداً أنكرتُ صبحك يا يومَ الثلاثاء
وكان من رواد صالون ميّ بنوع خاص ، ولي الدين يكن ، وطه حسين ،
وانطون الجميل ، وداود بركات ، وأحمد شوقي ، واسماعيل صبري ، وأحمد لطفي
السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، وخليل مطران ، وعباس محمود العقاد ، ومنصور
فهمي ، وشبلي شميل ، ومصطفى صادق الرافعي ، ويعقوب صروف ، وإيمي
خير ، وبركات بركات وغيرهم . . .

وقد وصف طه حسين صالونها وصفاً شائقاً ، وكان أقصى أمانيه أن يصل إلى
صالونها حين لم يكن سوى طالب في الجامعة المصرية كما يقول . . . وكان يرتاده إلى
جانب من ذكرتهم كثير من الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون بلغات مختلفة بالعربية
والفرنسية والانكليزية خاصة ، وربما استمعوا لقصيدة تنشد ، أو مقالة تقرأ ، أو
قطعة موسيقية تعزف ، أو أغنية تنفذ إلى القلوب ، ويقول طه حسين أيضاً : (انني
لن أنسى صوت مي حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة هي «يا حنينة» وتغنينا باللغات
المختلفة ، واللهجات العربية المختلفة) ويقرن هذا الصالون بأوتيل دي رمبوليه في
فرنسا ، ومجالس سكينه بنت الحسين المعروفة في التاريخ .

في المجتمع :

اعتنت مي بشكلها الخارجي ، كما اعتنت بأديها ، فكانت تهتم بالأزياء والتبرج ،
على غير تعمل حتى انها ارتدت كل ساعة فستاناً جديداً ذات سهرة كبيرة في لبنان ،
إذ أن ما يطلب من المرأة أن تخلق الجمال ، وتوزعه في جميع مناحي الحياة . وكانت
على تماسكها بالتقاليد الشرقية المصرية في تصرفها الاجتماعي ، تحذو حذو الغربيات
في حرية الرأي ، وفي السفر والمعاشرة . أما الرقص فلم تكن شديدة الولع به ،

وكثيرا ما كانت تعتذر عن الدعوات التي توجه إليها بهذا الخصوص مع أنها كانت تجيد الرقص .

في الجامعة المصرية :

جزعت مي حين اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، وانقطعت المواصلات بين العالمين القديم والجديد ، وترقبت انفراج الأزمة لتعود إلى مراسلة حبيبها جبران وراء البحار . في هذه الفترة رغبت في الالتحاق بالجامعة المصرية لدراسة الفلسفة والآداب ، فتم لها ذلك . ونجحت حتى أدهشت زملاءها ومعلميها ، وسموها (المدموزيل صهباء) ، وكان زميلها الدكتور زكي مبارك ينافسها ويضممر لها البغضاء .

بقيت مي في الجامعة المصرية ثلاث سنوات ، وكان الطلاب الجامعيون يختلفون عليها فيما بينهم ، فمنهم من يفضل (باحثة البادية) ومنهم من يقدم مي ، فعرض الخلاف على الأستاذ محمد المهدي فقال : (تلك أجزل ، وهذه أرشق) .

لم يكن في الجامعة المصرية آنذاك فتاة مصرية واحدة ، كان فيها الفرنسيات والانكليزيات والايطاليات واليونانيات والروسيات ، فكانت مي قبلة الأنظار لما تحلت به من توقد الذهن والجاذبية . . . وفي هذه الفترة كتبت مذكراتها تحت عنوان (مذكرات الجامعة المصرية) ، فكانت تقصدها قبل ابتداء الدروس ، وتدون انطباعاتها عنها ، وفي الجامعة تعرفت بالسيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر التي كانت تنظم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة ، وكان يختلف إلى هذه المحاضرات عدد من النساء الراغبات في العلم وتحرير المرأة . وبينما هي تغادر البهو مرة ، بعد أن ألفت محاضرتها ، وقع بصرها على فتاة (تميزها حركات رشيقة ، وروح خفيفة لطيفة ، وتنبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق والمعية حادة ، وفطنة نادرة) . فتقدمت منها مي واستوقفتها قائلة : (سيدتي هدى ! أنا معجبة بمشروعك ، مقدرة ما تبذلينه من جهد ، لذلك أضع نفسي تحت تصرفك . . أنا كاتبة وشاعرة . أكتب في الصحف وأنشر في المجلات . أنا «مي» ولا أظنك إلا قرأت شيئاً مما أكتبه) . . . فكان لكلماتها المفعمة بالثقة بالنفس ، ما حمل السيدة شعراوي على تقبيلها والترحيب بانضمامها إلى صفوف المجاهدات في سبيل تحرير المرأة العربية .

مي وتحرير المرأة :

وقفت مي معظم نشاطها على العمل لتحرير المرأة العربية من الجهل والاستعباد ، ورفع مستواها الاجتماعي ، وجعلها مساوية للرجل في الحقوق والواجبات ، وكانت مع قاسم أمين وهدى شعرواي وباحثة البادية في طليعة من ناصروها ، ووقفوا إلى جانبها ، فكتبت في الصحف ، وساهمت في الجمعيات النسائية ، وأقامت الحفلات ، وألقت الخطب قائلة : (يجب أن يُبدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلاً . يجب اصلاحها السريع ليتيسر اصلاح الرجل . يجب أن يُباشر بتحرير المرأة لثلا يكون المتغذون بلبنها عبيداً ، وهل تربي العبد إلا عبيداً ؟ . يجب أن يُحسر غشاء الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيهما من زوج وأخ وولد أن معنى الحياة عظيم) .

وتقول : (الرجل . . . هو الأب والأخ والصديق والخطيب والزوج ، فإذا سقط سقطنا معه . وإذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيماً . لذلك نريد له خيراً ، ونجتهد في تأييد دولته بشرط أن ينصب عرشنا بقرب عرشه . وأن نقف إلى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل ، نريد أن نكون متساوين في الحقوق الأدبية والعمرانية ، مادامنا متساوين في الواجبات والمسؤولية ، بل ان واجباتنا ومسؤوليتنا يفوقان ما عليه من مسؤولية وواجب !) .

نشاط أدبي :

نشطت مي نشاطاً أدبياً ملموساً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، فكتبت بالعربية والفرنسية والإنكليزية ، وأخذت تترجم وتخطب وتحاضر ، وأصدرت كتبها : (سوانح فتاة) و(كلمات وإشارات) و(ظلمات وأشعة) و(المساواة) و(الصحائف) و(بين الجزر والمد) ، فجاءت متميزة بالطابع الوجداني وكلما مرت الأيام تضاعف أملها بلقاء جبران ، لذلك اندفعت تتعمق في العلوم والفلسفة حاسبة أن شعورها قد يخف في جو القضايا الجافة ، فطالعت كانت ، وفرويد ، وسبينوزا ، ودرست علم مناجاة الأرواح ومشاكله المتنوعة ، ونشرت مبادئه في اجتماعاتها ، فذرت الاجهاد العقلي قرنه فيها .

مات الدكتور صروف صديقتها الحميم عام ١٩٢٧ ، ومات أبوها عام ١٩٢٩ ثم أمها وتبعهم موت جبران عام ١٩٣١ فأسودت الدنيا في عينيها ، وأرسلت صرخة

استسلام يائس لأنها أضحت كالقصبية الجوفاء في مهب الريح ، واعتزلت الحياة غير آسفة ، وقد وصف طه حسين عزلتها بقوله : (أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها ، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة ، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة ، وإنما قللت لقاءهم ، وتجنبت ما يدعو إلى هذا اللقاء . وأخذت لا تلقى إلى بموعده يطالبونه . . . حتى أصبح لقاء مي مقتصراً على أصدقائها الأذنين) . والذي زاد في نفورها من الناس طمع أقاربها بثروتها ، فصدتهم عنها ، فهددوها بالانتقام ، وأزعجوها في حين كانت تحتاج أكثر ما تحتاج إلى التعزية والراحة والحنان .

خطر لي أن تهجر وحدتها وكتابتها والقلم ، فسافرت إلى فرنسا وانكلترا عام ١٩٣٢ لكنها سرعان ما ملت السياحة ، وعادت إلى مصر ، وغيّرت منزلها . وراحت تترجم أعلام الفكر اليوناني ، ثم رحلت إلى إيطاليا ، ودرست في جامعة (بروجيه) آثار اللغة الإيطالية ، وعادت إلى القاهرة ، ثم سافرت إلى روما عام ١٩٣٤ ، وهنا بدأت عليها عوارض الإعياء ، وعجزت عن الكتابة ، فاستعانت بسيكرتيرة صديقة ، وترجمت بعض المآسي ، وفي غمرة هذا الاضطراب الشعوري قررت العودة إلى القاهرة ، حيث عاشت عيشة النساك بين أحلامها المريضة ، وتصوراتها الغريبة ، واشتدت عليها عوارض الهستيريا ، حتى إنها حاولت الانتحار ، وعند ذلك كتب أصدقاؤها إلى أهلها ، فأق ابن عمها د . جوزيف زيادة ، وأخذها إلى لبنان ، وأودعها مستشفى (العصفورية) حيث بقيت تسعة أشهر ، عانت خلالها الحالات النفسية والأزمات العصبية والاضراب عن الطعام ، فكانت تثور وتتحب وتمزق وتكسر ، ثم يعاودها الهدوء . فتدّون انطباعاتها وخواطرها الغربية قائلة : (أولم يجدوا لي سجنأ أشرف من هذا السجن ؟ ! ما أشد قسوة الانسان على أخيه الانسان ا) . ثم طلبت أن تكشف عليها لجنة من كبار الأطباء ، فاجتمعت وأصدرت تقريراً مطولاً ينفي إصابتها بأي مرض من الأمراض ، لكن إدارة المستشفى رأت أن تستمر في المستشفى شهراً آخر حتى تقوى بنيتها .

ويقول الدكتور جميل جبر مؤلف كتاب (مي في حياتها المضطربة) : (ان مي لم تكن مجنونة بالمعنى الصحيح ، لأن المجنون لا يعلل تعليلاً منطقياً ، ولا يكتب كتاباً منسجمة اللحمة حتى في أسمى درجات صحوه ، غير أنها كانت تصاب بنوبات ثورية دورية تقرب من الجنون ، هي نتيجة حزنها على أبويها وعلى جبران ، واعتلال

صحتها عقب ذلك ، واجهادها العقلي ، وكتبها الدائم ، وقد تقدمت بها السن ،
وخوفها من اضطهاد ذوي قرباها ، رغبة في مالها ، ناهيك عن وحدتها المعنوية
والمادية ومزاجها الحساس . . . ولما كانت البلاد تفتقر آنذاك إلى مشافي المهستيريا
والنوارستينيا ، كان لابد من إدخالها (العصفورية) إلا أن العصفورية ، وما يلبس
اسمها من فكرة الجنون ، زادت في نقمة مي ، وفي اضطراب أعصابها) .
ثم نقلت إلى مستشفى (ريبز) إثر احتجاج الصحافة العنيف ، وبعد أن غادرته
بعد عشرة أشهر ، وضعت في غرفة بالجامعة الأميركية ، وقُدِّم لها الطعام فتناولته
بيدها لأول مرة ، وأمسكت بالشوكة بعد عامين كاملين لم تتناول بيدها طعاما ، ولم
تمسك بها شوكة وسكيناً .

ولما زارها أمين الريحاني إثر عودته من أميركا ، قالت له : (لقد ظلموني يا أمين
وأذاقوني من الاضطهاد أمره) وراحت تروي قصتها وهي لا تتسالك نفسها من
الزفير . كما زارها بعد ذلك شارل مالك ، وقسطنطين زريق ، والأمير عبد القادر
الجزائري ، وجرجي نقولا باز ، فروحوا عنها وشغلوها عن آلامها المبرحة .

لقد عادت مي إلى حررتها بعد أن قرر الدكتور «مارتين» أنها سليمة الحس ،
صحيحة الجسم ، وفي ٢٢ آذار ١٩٣٨ أُلقت محاضرة في الجامعة الأميركية بعنوان :
(رسالة الأديب إلى الحياة العربية) ، ثم ذهبت مع الريحاني إلى وادي (الفريكة)
بعد تردد ، فنزلت يومين في بيت الريحاني ، ثم انتقلت إلى مسكن بسيط يشرف على
الوادي ، وفي عزلتها كانت تكتب وتطالع تارة ، وتحلم تارة أخرى ، وتذكر الماضي
تارات ، وهي مع هذا متحفظة جداً حتى مع أقرب الناس إليها ، وفي سهراتها
كانت تروي لأخصائها بعض أشعارها بالفرنسية ، أو تتحدث عن كتابها (ليالي
العصفورية) ، ثم تعود إلى فكرة الاضطهاد . وحاولت مرة السيدة (يمني) قرينة
الشيخ فؤاد حبيش أن تحدثها عن جبران ، فجمدت قلمات وجهها ، وراحت تحديق
في الفضاء . . . وفي الصباح كانت تنهض مع الفجر وتتجول في وادي الفريكة ثم
تعود ، لكنها لم تشأ يوماً أن تسير على دروب الضيعة ، أو تتعرف إلى الجيران .

بعد ثلاثة أشهر من إقامتها في (الفريكة) عادت إلى القاهرة ، لكنها ملت
الكتابة ، وإذا خطر لها أن تكتب تناولت ورقة وقلماً ، وخطت بعض الأسطر ، ثم
ألقت بالورقة والقلم جانباً . لقد عاشت في عزلة خانقة ، لولا زيارة بعض الأوفياء
أمثال أحمد لطفي السيد ، وفليكس فارس ، وإيمي خير ، وخلييل مطران ، وطه

حسين ، وبركات بركات ، وطاهر الطناحي الذي كان يزورها مساء كل يوم أحد .
في هذه العزلة الموحشة ، والأزمة النفسية الحادة ، وصلها نبأ وفاة فليكس
فارس ، فجذعت لفقده ولازمت فراشها وانتحبت ، وبينما هي تتوقع يوماً ورود
رسالة من الريحاني بلغها نعيه ، فأبرقت لأخيه ألبرت قائلة : (يا آل الريحاني
الكرام ، أفي وسعكم أن تعزوني في فقيدي وفقيدكم وفقيد الشرق العظيم ؟)
وكانت هذه البرقية آخر ما خطه قلمها .
الخففة الأخيرة :

على سرير أسود ، في غرفة موحشة ، تلوت امرأة هزيلة في خريف العمر
تصيح : (دعوني وحدي إنني عطشى إلى الانفراد) . نعم عطشت إلى
العزلة الموحشة في مرحلة النهاية .

عند منتصف الليل كان شهيق متقطع يحاكي تنهد الطفل وهو يخنق ، فإذا
المريضة جاحظة العينين لا تقوى بغير إشارة إلى جهة القلب ، حتى كانت الساعة
العاشرة من صباح التاسع عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٤١ ، فارتعش
السرير تحت المريضة الواهنة ، وكانت خففة القلب المعذب الأخيرة التي فارقت على
أثرها الحياة .

كان على الطاولة المحاذية لسريرها حين اسلمت الروح أربعة كتب هي :
«غرازيلا» للامارتين (بالفرنسية) و«دليل حلمي التائه» (بالايطالية) و«صورة
دوريان جراي» «لأوسكار وايلد» (بالإنكليزية) وكتابها باحثة البادية .

ماتت مي قبل موتها بعامين ونيّف ، وكانت هذه الفترة كافية لينساها الناس ، فلما
أسلمت الروح ، لم تجد حولها صديقاً أو نسيباً أوفيقاً ، بل رأت سقفاً مظلماً تدلت
منه خيوط العنكبوت .

كانت جنازتها بسيطة جداً : نعش قاتم سار وراءه لطفي السيد ، وانطون
الجميل ، وخلييل مطران ، وإيمي خير ، ونفر قليل من الأصدقاء ، فلما وصل
الموكب الصامت إلى الضريح وقف لطفي السيد يرثيها والدمع يترقق من عينيه ،
وكانت الشمس إذ ذاك قد أشرفت على المغيب ، وخيل للموكب الحزين في تلك
الساعة الرهيبة أنه يسمع مي تردد خلال الضريح قولها في كتابها (ظلمات واشعة) :
«هذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسات ، وفي قلبها الآلام والغصات ،
ولقد عاشت وأحبت ، وتعذبت وجاهدت ثم - ماتت » .

آثار مي زيادة

- ١ - أزاهير حلم - ديوان شعر بالفرنسية ١٩١١ - دار الهلال ١٩١١
- ٢ - رجوع الموجة - رواية مترجمة عن الفرنسية - ١٩١٢
- ٣ - الحب في العذاب - رواية مترجمة عن الإنكليزية .
- ٤ - ابتسامات ودموع أو الحب الألماني لماكس مولر - رواية مترجمة عن الألمانية ١٩١٣
- ٥ - باحثة البادية - منشورات مجلة المقتطف ١٩٢٠
- ٦ - سوانح فتاة - دار الهلال ١٩٢٢ - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٧٥
- ٧ - غاية الحياة - محاضرة ألقيت في الجامعة المصرية .
- ٨ - كلمات وإشارات ج ١ - دار الهلال ١٩٢٢ - دار الأندلس - بيروت ١٩٦٣ -
ج ٢ مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٣
- ٩ - المساواة - دار الهلال ١٩٢٢
- ١٠ - ظلمات وأشعة - ١٩٢٣ - دار بيروت ١٩٥٢
- ١١ - الصحائف - المطبعة السلفية ١٩٢٤
- ١٢ - بين الجزر والمد - دار الهلال ١٩٢٤
- ١٣ - عائشة تيمور شاعرة الطليعة - دار الهلال ١٩٢٤
- ١٤ - وردة اليازجي - مطبعة البلاغ ١٩٢٤
- ١٥ - رسائل مي : جمعها مادلين أركش ١٩٤٨ - ود . جميل جبر - دار بيروت
١٩٥٤ وسلمى الحفار الكزبري ١٩٨٢
- ١٦ - الخيال على الصخرة - رواية بالإنكليزية .
- ١٧ - رسالة الأديب إلى المجتمع - العروة الوثقى - بيروت ١٩٣٨

مراجع ومصادر عن مي زيادة

- ١ - مي في حياتها المضطربة : د . جميل جبر - دار بيروت ١٩٥٣
- ٢ - مي وجبران : د . جميل جبر - دار الجمال ١٩٥٠
- ٣ - مي أدبية الشرق والعروبة : محمد عبد الغني حسن - عالم الكتب ١٩٦٣
- ٤ - مي في حياتها وآثارها : وداد سكاكيني - دار المعارف بمصر ١٩٦٩
- ٥ - محاضرات عن مي : د . منصور فهمي - معهد الدراسات العربية العالية -
القاهرة ١٩٥٥

- ٦ - الذين أحبوا مي : كامل الشناوي - دار المعارف بمصر ١٩٧٢
 ٧ - الرافي ومي : عبد السلام هاشم حافظ - وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦٤
 ٨ - باقات من حداثتي مي : فاروق سعد - منشورات زهير بعلبكي - بيروت ١٩٧٣
 ٩ - مي وأعلام عصرها : سلمى الحفار الكزبري - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨٢
 ١٠ - مي أو مأساة النبوغ : سلمى الحفار الكزبري - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨٧
 ١١ - أطيف من حياة مي : طاهر الطناحي - كتاب الهلال رقم ٢٧٩ - مارس ١٩٧٤

- ١٢ - حياة مي : محمد عبد الغني حسن - مطابع المقتطف - القاهرة ١٩٤٢
 ١٣ - مي في سورية ولبنان - مطبعة طيارة - بيروت ١٩٢٤
 ١٤ - مي في مذكراتها : د . جميل جبر - دار الريحاني - بيروت
 ١٥ - قصتي مع مي : أمين الريحاني - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٠

- ١٦ - مي زيادة - التوهج والأفول : روز غريب - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨٧
 ١٧ - الشعلة الزرقاء : سلمى الحفار الكزبري والدكتور سهيل بشروئي - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٩

- ١٨ - مي زيادة : عبد اللطيف شرارة - دار صادر - بيروت ١٩٦٥
 ١٩ - فن المراسلة عند مي : أمل الداوق سعد - دار الآفاق - بيروت ١٩٨٢
 ٢٠ - تربية سلامة موسى : سلامة موسى - مؤسسة الخانجي - القاهرة ١٩٥٨
 ٢١ - جدد وقدماء : مارون عبود - دار الثقافة - بيروت ١٩٥٤
 ٢٢ - أدبيات لبنانيات : اميلي فارس ابراهيم - دار الريحاني - بيروت ١٩٧٠

الهوامش

- * محاضرة أقيمت في ١٩ / ١٠ / ١٩٩١ في مكتبة الأسد بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة مي بدعوة من النادي الأدبي النسائي . (١) : نقله إلى العربية الدكتور جميل جبر ، ونشر في دار بيروت ١٩٥٢ .
 (٢) : ايزيس هي : زوجة أوزيريس ترمز إلى العذراء (ماري) وكوبيا هي ترجمة (زيادة) في اللاتينية .
 (٣) : ذكرياتي مع جبران حررته ادفيك شيبوب ، وأصدرته دار الأحد في بيروت ١٩٥٧ .
 (٤) : هي السيدة الأميركية الأولى التي أرسلت جبران على نفقتها إلى باريس ليدرس الرسم .
 (٥) : جدد وقدماء لمارون عبود - صفحة ١٣١ - دار الثقافة - بيروت ١٩٥٤ .

بنادیا نجرار

(۱۹۹۴-۱۹۳۴)

قليلون هم الذين كتبوا عن الشاعرة ناديا نصار قبل رحيلها الأبدي في ١١ / ٤ / ١٩٩٤ عن ستين عاماً قضت ثلثها في الأمراض والأوجاع ، حتى غدت شبحاً يتحرك ويدب على رجلين خاويتين هزيلتين . هل يا ترى لأنها لم تكن شاعرة متمكنة وهي التي نشرت ديوانين صغيرين هما : «وجد تعرى» ١٩٦٩ ، و«زمن العشق» ١٩٨٣ ، وكتاباً نثرياً بعنوان «خطرات على ساحل المعرفة» ١٩٧٩ ضم شذرات من أفكارها وحكمها وآرائها في الحياة والناس . . . وكانت هذه الشذرات وليدة مطالعاتها في كتب الأدب والفكر والفلسفة التي كانت تستهويها ، ونتيجة لتجاربها غير الموفقة التي خاضتها ؟ . . .

لا أبالغ إذا قلت إنني أكثر الناس معرفة بناديا نصار وطفولتها ونشأتها في الكفرون ، ودراستها في طرابلس (لبنان) وظروف حياتها ، وحبها ، وخيبتها ، وزواجها القصير ، وأحلامها ، وتشردها ، وقهرها ، وانفضاض الناس من حولها ، وتخليهم عنها ، وكيف أضحت وحيدة كالشجرة العارية في بيداء الحياة ، أو كالقصب الجوفاء في مهب الريح ، لا يرأف بها أحد ، ولا يضمّد جراحها النازفة غير حفنة قليلة من الأصدقاء .

* * *

كان لوالدة ناديا تأثير كبير في تربيتها وتنشئتها وتعليمها ، كما كان للبحر في بانياس ، وللطبيعة الجميلة في الكفرون مثل هذا التأثير ، لكن ناديا لم تعش كثيراً في الكفرون بل في بانياس وطرابلس ودمشق ، حيث عملت وأحبت وتزوجت من الشاعر عزمي موره لي وفشلت في زواجها .

كانت السنوات التي عاشتها في بانياس الساحل (١٩٥٩ - ١٩٧٥) أخصب وأجود سنوات عطائها الشعري ، فقد تعرفت في هذه المدينة الهادئة الوادعة على الثالث الشعري المؤلف من الشعراء : حنا الطباع ، وأنور الإمام ، وأحمد علي حسن ، فشاركهم في أمسياتهم الشعرية ، وأضحت رفيقتهم أينما ذهبوا ، وكان الشاعر أحمد علي حسن أقربهم إلى نفسها ، وأكثرهم اهتماماً بها وبشعرها ، فكان ينقح لها قصائدها الكلاسيكية الموزونة ويهذبها ، ويرافقها إلى الأمسيات الشعرية التي تدعى إليها ، ويقدمها إلى الجمهور كشاعرة واعدة تبشر بعطاء شعري متميز ،

وكتب لها مقدمة ديوانها «وجد تعري» وقال عنها حين سمعها مرة تردد :
أنا لو كنت سماء كنت أعطيك الصفاء
أنا لو كنت بحاراً كنت أعطيك السخاء
أنا لو كنت نجوماً كنت أعطيك الضياء
«إن هذا النفس يبشر بشاعرة» وقال عن شعرها «إنه يبعث على النشوة والارتياح»
وعن كلماتها «إنها حبات سكر» .

* * *

تتجلى شاعرية ناديا نصار أكثر ما تتجلى ، في ديوانها «وجد تعري» الذي يعد في نظري قمة ما نظمت ، فقد حافظت فيه على أوزان وبحور الخليل ، وعلى الموسيقى والإيقاع ، وعلى العفوية والصدق كما في قصيدتها «وجد تعري» التي تقول فيها :

حبنا أجملُ من رابية تنفح عطرا
حبنا الملهوفُ للنشوة قد سلسل خمرا
وكلانا حائرُ القلب كمن يحمل سرا
ونذيب الحسُّ ألوان خيالاتٍ وسحرا
بين شعر ناديا نصار وشعر فدوى طوقان ونبيهة حداد وعزيزة هارون أكثر من وجه للشبه ، وأكثر من آصرة نسب وقربى . . . كلهن عبّرن فيه عن بوح مكتوم ، وحب عاصف ملجوم ، لم يتح له أن يتبلور ، وأن يترجم إلى واقع ملموس ، بل ظل حبا شفافاً أثيراً :

حبنا مستعرٌ في أضلع ينضحن جمرأ
وشعوراً هدهد الأحلام والآهات حرى
ووجوداً خطه وجدٌ وللشعر تعري
وتصل إلى قمة بوحها واحتراقها في لهيب الحب حين تعري نفسها ، وتكشف عن الغليان الذي يستعر في ذاتها قائلة :

طفلةٌ كنت ، ثم جئتُ فعمري قصةٌ من صبايةٍ ولهيب
أنت حبي يارفة الهدب في العينِ ويا ثورة الهوى في وجيبي
لك قلبي يفيض بالحب وبالنعمة وبالكوثر الشهوي السكوبِ

وتذوب إلى حد التلاشي في عشق حبيبها والحين إليه ، وإظهار ما تعانیه في حبها
المضني من ألم ووجد وحرقة ولهفة وتوق وشروء وذهول قائلة :
أنايا كوكبي جنحتُ لندياك ولحي يثن في صمت عودي
وحنيني ياشاعر الطيب مرسومُ بعيني مائلٌ في شروءي
ليلي الليل . . إنه لهفتي الحرى وتوقُ ليومنا الموعود
أنت ليلي ، وأنت ضوء صباحي وفنائني أنت ، وأنت وجودي

* * *

وكما أحببت وهامت في حبها ، وخابت في عشقها ، كذلك شقيت في حياتها ،
واضطرت إلى أن تقطع دراستها وتعمل في شركة نفط بانياس طوال ستة عشر عاماً
لتعيل والديها وإخوتها ، وقد عبرت عن شقائها ومتاعبها ومعاناتها وحرمانها
وصراعها في الحياة بصدق وصراحة قائلة :

كان عمري عذابَ عمر وجيع
وحياتي مرت بغير ربيع
وحياتي دموع قلب شجي
رب قلب بكى بغير دموع
يا أساة الجراح عمري صقيع
عللوني فقد يذوبُ صقيعي
كان دفء الحياة عندي سراياً
عطشي ظلُّ للسرابِ وجوعي .

ولكن حياتها في مدينة بانياس ، وعزلتها ، ووحدها في ذلك البيت الصغير المطل
على البحر ، قد أوحى لها أجمل القصائد العاطفية وأرقها ، وكثيراً ما ورد البحر في
ثنايا هذه القصائد ، حين تصغي لصوت أمواجه العاتية تقطع عليها هدأة الليل :
حبيبي أحسُّ ابتهاج الحياة كومضِ الشراير على مئزري
مع الشعر في دفقة الأغنيات مع الليل والحب والسمير
مع البحر أصغني لأواجهه وأجلوه بالحلم المسكر
وأحبت الحياة قرب البحر واستطابتها ، فقد كان سميرها في الليالي الطويلة ،

ومؤنس وحدتها الخرساء :

هذه جنتي على الساحل الأزرق دنيا بديعة الإشراف
أنالي عالمي غريب على الأرض كما ابتغي ولي آفاقي
أما الكفرون التي ولدت فيها ، وعاشت طفولتها بين بساينها وينابيعها المتدفقة
فلم توح لها إلا بقصيدة «عين العصفور» التي تغنت فيها بهذا المقصف الجميل الذي
يستقطب مئات المصطافين كل عام ليتمتعوا بسحر مناظره الخلابة وتدفق شلالاته
وسط غابات من الخضرة اليانعة :

ملعب الضوء مدرج الأطياب تلك «عين العصفور» مهد شبابي
بين ماء أصفى من الدمع جار جريان الخمر في الأعصاب
وغصون ملهى النسيم تغاوى يا احتفاء الأتراب بالأتراب
يلد الشعر هاهنا ، فهو خمر عتقتها الأيام ملء الخوابي
جنة بعض أهلها النور والسحر وكان الجمال في الحجاب
إن «عين العصفور» مهد شبابي هيكلي ، قبة الهوى ، محرابي

* * *

بعد أربع سنوات من صدور ديوانها (وجد تعري) أصدرت ناديا ديوانها الثاني
(زمن العشق) وهو ديوان صغير أيضاً يقع في إحدى وسبعين صفحة من
القطع الصغير ، قدم له الياس عشي ، وقد كتبت قصائده بين عامي ١٩٧٢
و١٩٨٢ .

يبدو من قراءة الديوان أن المرض قد أخذ يفتك في جسم ناديا النحيل ، والهجوم
تزداد ، والأعباء المادية والنفسية تشتد ، فسادت قصائدها روح تشاؤمية ، ونزعة
سوداوية ، وسيطرت عليها فكرة الموت بالحاح :

موتي زمن الوصل
موتي حيث أمد الذكرى
بين اللحظة واللحظة ،
موتي نوم دافئ
تحت سماء أملؤها شوقاً

لعناق اللحظة في الآتي . . .
فمثل هذا الايقاع الجنائزي يجعلنا ننقبض وننكمش ونحزن وندخل في متهات
الضياع . .

وتخاطب الحب والموت والجسد والعشق وطفل الموت قائلة :

يا طفل الرغبة في دمي

يا طفل الجسد المرتحل

يا طفل المسافة والموت

يا جسر النطفة للعبور . . .

قصائد ناديا في ديوانها (زمن العشق) بعضها من شعر التفعيلة وبعضها الآخر
منثور لا يلتزم بأي قيد من قيود الشعر ، بعكس قصائدها في ديوانها (وجد تعري)
التي جاءت كلاسيكية كلها ، ومشبعة بالغنائية والرومانسية ، وحافلة بالصور
والأخيلة .

وكثيراً ما تخرج في القصيدة الواحدة في «زمن العشق» عن إيقاع التفعيلة ، إلى

النثرية البحتة كما في قولها :

أصبح أحزاناً زمني

أكتب بحروف النار

وأعود لحروف الكوفيه

وأجعل عمري صلاةً لجيل

ينبع من شريان الأرض ماءً

كي يشرب أطفال

الفرح الآتي

من كفٍ عربي .

يكفي ناديا أنها أعطت قدر استطاعتها ، وجاهدت لتغدو شاعرة ، ومارست
الرسم ، وأنتجت بعض اللوحات ، وصادقت الأدباء والشعراء والفنانين ، ومشت
معهم في الدروب الصعبة ، وقاست ، وتحملت . وحملت صليها على درب
الجلجلة فوصلت ، لكنها لم تستطع أن ترتقي إلى القمة .

نازل العابد بيهم

(١٨٨٧-١٩٥٩)

حينما ألف المؤرخ محمد جميل بيهم كتابه «المرأة في التمدن الحديث» سنة ١٩٢٧ ، شاء أن يقدمه إلى الأنسة نازك العابد - التي أصبحت فيما بعد زوجته - بهذه الكلمة التي تشف عن اعجابه المبكر بها ، وبالأعمال المجيدة الرائعة التي كانت تبذلها في حقول السياسة ، والوطنية ، والأدب ، والاجتماع . . . قال الأستاذ بيهم :

«إن أنصار المرأة لتمتلىء قلوبهم جذلاً وإعجاباً ، بفئة من سيداتنا النابغات العاملات ، اللواتي صرن يضاھين نخبة الرجال بتعزيز الوطنية ، وبتحليل القضايا الاجتماعية ، وعربوناً لهذا الاعجاب ، آثرت إن أهدي كتابي هذا إلى الأنسة نازك العابد ، السائرة في طليعة تلك الفئة التي تستحق كل إجلال واحترام» .
فمن هي نازك العابد ؟ وما الأعمال الجليلة ، والمآثر الحميدة ، والخدمات العظيمة التي قامت بها خلال حياتها التي امتدت اثنين وسبعين عاماً ؟

* * *

ولدت نازك العابد في دمشق عام ١٨٨٧ ، في أسرة عريقة مترفة ، لكنها عزفت عن هذا الترف منذ نعومة أظفارها ، ولم يستهوها ما يستهوي المرأة عادة من التبرج الزائد والزينة المفرطة ، والعناية الخاصة بالمظهر .
تلقت مبادئ اللغتين العربية والتركية في المدرسة الرشدية بدمشق ، ثم في المدرسة الرشدية بالموصل ، حيث كان أبوها مصطفى العابد والياً عليها من قبل الأتراك ، لكنها كانت تتأبى على المعلمات التركيات ، حتى إنها ألقت حزباً من رفيقاتها الموصليات ، ليكن صفاً واحداً ضد المعلمات التركيات المتغطرات اللواتي كن يغضفن من إحساسهن القومي ، وينلن من لغة بلادهن بشيء من الهمز واللمز .
درست اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية في معاهد خاصة ، ثم رأت أن تتعمق في اللغة العربية ، فترددت على شيوخ زمانها ، وتلقت عليهم الصرف والنحو وأصول الكتابة .

اتصلت بأديبة الفيحاء الكبيرة ماري عجمي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) صاحبة مجلة «العروس» التي كانت أول مجلة نسائية صدرت في سورية سنة ١٩١٠ ، وانفقت معها على العمل المشترك ضد المستعمر التركي ثم الفرنسي ، واتخذت من مجلة

«العروس» ، ومجلة «الحارس» منبراً حراً لقلمها الجريء ، وكانت مجلة «الحارس»
تعنى بشؤون المرأة والمجتمع عناية خاصة .

حاولت سنة ١٩١٤ أن تؤلف أول جمعية نسائية عربية في دمشق ، لكن الحرب العالمية الأولى نشبت في شهر تموز من تلك السنة ، وتغيرت الأحوال ، ففضى ذلك على كل نشاط تقوم به المرأة ، بالإضافة إلى أن جمال باشا نفى أسرتها في السنة نفسها إلى مدينة أزمير في تركيا ، ولما طال عليها النفي ، الذي امتد حوالي أربع سنوات ، دخلت مدرسة «الفردوس» الأميركية للبنات ، وتعلمت فيها فنون التصوير والرسم والموسيقى ، كما اشتركت في أعمال التمريض والإسعاف ، حين رأت المستشفيات تغص بالجرحى ، وتعج بالمصابين من جراء الحرب .

لم تكد الحرب العالمية الأولى توضع أوزارها سنة ١٩١٨ وتوقع الهدنة ، حتى عادت مع أسرتها من المنفى ، واستقرت في دمشق ، حيث راحت تبذل كل جهودها لإحياء الحركة النسوية ، والمطالبة بحقوق المرأة ، وربط مصيرها بمصير الرجل ، لاعطائها حق الانتخاب السياسي ، وحثها على المقاومة والنضال ، ولما جاءت اللجنة الأميركية لاستفتاء السوريين في انتداب الدول ، تكلمت بلسان المرأة العربية السورية ، وأيدت الاستقلال .

في ميدان الخدمة الاجتماعية

كان قلب نازك العابد يتفطر ويفيض ألماً وحسرة على مصير بنات الشهداء اللواتي فقدن آباءهن في الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين سنة ١٩١٦ ، فانصرفت إلى العناية بهن وخدمتهن ورعاية شؤونهن ، وكان أول عمل قامت به هو تأسيس جمعية «نور الفيحاء» من سيدات دمشق وفتياتها النشيطات ، وانتخبت أول رئيسة لها ، ثم أنشأت باسم هذه الجمعية «مدرسة بنات الشهداء العربية» وتولت إدارتها بنفسها أيضاً ، ولم تلبث أن أصدرت في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ مجلة أسمتها «نور الفيحاء» ، وهي مجلة نسائية أخلاقية أدبية صدر منها تسعة أجزاء فقط ثم توقفت ، وكانت رسالتها إنهاض المرأة العربية السورية من كبوتها ، وإيقاظها من سباتها ، واستدراجها إلى إبداء الرأي ، ونشر الفكر ، لتطالب بحقوقها السياسية المهضومة ، ثم توجت ذلك كله بتأسيس «النادي الأدبي النسائي» حتى وصفتها صديقتها ماري عجمي بأنها «الفتاة الاشتراكية الطافحة القلب بالأمال الكبيرة» .

وما دمنا نتحدث عن خدماتها الاجتماعية والخيرية ، فيجدد بنا أن نشير إلى مساهمتها الفعالة في إنشاء فرع للصليب الأحمر الدولي في سورية باسم «جمعية النجمة الحمراء» التي أصبحت تدعى «الهلل الأحمر» ، وقد عينت أول رئيسة لها ، كما أسندت إليها إدارة «ملجأ اليتامى» ، وحين قضت الحاجة بإيجاد دار لجرحي الحرب ، كلفت بذلك العمل ، ووضعت حجر الأساس لمستشفى يضم مئة سرير ، ولما انتهت من بنائه ، اختارت بنفسها أطباء وممرضيه وموظفيه ، أفلا يحق لنا بعد أن نطلق عليها اسم «فلورانس نايتنجيل» العرب ؟ .

حاربت في طليعة الجيش العربي السوري ضد الفرنسيين ، وخرجت إلى ميسلون مع وزير الحرب آنذاك الشهيد يوسف العظمة ، وعندما جرح أسلم الروح بين يديها ، لذلك منحها حكومة الملك فيصل الأول رتبة نقيب فخرية في الجيش ، فكانت تتفقد الجنود بثوبها العسكري ، وكلها ثقة واعتداد وإيمان برسالتها .

آبان فترة الانتداب الفرنسي

حين احتل الفرنسيون سورية ، على أثر موقعة ميسلون ، وخروج الملك فيصل الأول منها ، بقيت نازك العابدة شوكة في أعينهم ، تناوئهم ، وتؤلب عليهم القلوب ، لذلك لم يجدوا بداً من إبعادها ونفيها ، وفعلاً نفيت ثلاث مرات بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٢ فذهبت في المرة الأولى إلى أزمير وفي المرة الثانية إلى استنبول واستفادت من فرصة وجودها فيها ، فدخلت الكلية الأميركية للبنات ، واستأنفت دراسة اللغة الأنكليزية ، ونفيت في المرة الثالثة إلى الأردن ، فاختارت عمان مقراً لها ، ولما سُمح لها بالعودة إلى دمشق عادت بشرط أن لا تقوم بأي نشاط سياسي معاد للفرنسيين ، فتظاهرت بالانصراف إلى العمل الزراعي وخدمة الأرض في إحدى ضواحي دمشق ، فاختلطت بالفلاحين ، وصارت القدوة الحسنة لهم ، تستفيق باكراً مع بزوغ الفجر ، وتعمل معهم جنباً إلى جنب ، ويداً بيد كأبي واحد منهم .

وما إن نشبت الثورة السورية الكبرى على الفرنسيين في كل مكان ، حتى وقفت إلى جانب ثوار غوطة دمشق ، وراحت تقوم بدور الجندي المجهول ، تنتقل تحت جناح الليل من جريح إلى جريح ، وتقدم المساعدات من أموالها الخاصة لأسر المنكوبين ، متكرة حتى لا ينكشف أمرها .

في بيروت

عندما اقترنت بالمؤرخ اللبناني محمد جميل بيهم ، انتقلت إلى بيروت ، حيث أسست جمعية «عصبة المرأة العاملة» ثم جمعية «أخوان الثقافة» بالاشتراك مع زوجها ، ثم جمعية «تأمين العمل للاجئي فلسطين» ، وقد أصبحت هذه الجمعية مؤسسة ثابتة لها موازنة سنوية تأتي من تبرعات المحسنين ، وكان من ثمارها أيضاً تأسيس ميتم لبنات الشهداء في لبنان ، ومدرسة لتلقيهن العلوم الابتدائية والخياطة والتطريز والضرب على الآلة الكاتبة ، بالإضافة إلى ناد أدبي ومكتبة . . . كما اشتركت في عدد من المؤتمرات النسائية الوطنية في سورية ولبنان ومصر ، والمؤتمرات النسائية العالمية .

لم تترك السيدة نازك العابد أي كتاب مطبوع يمكن الرجوع إليه ، لكنها تركت كثيراً من الخطب والمقالات المنشورة في مجلات العروس ، والحارس ، ونور الفيحاء وغيرها ، لو جمعت لألفت كتاباً كبيراً .

كذلك لم ترزق أي ولد ، لكنها احتضنت تربية عشر فتيات في بيتها ، وقامت بتهديب مئات الفتيات من بنات أمتها ، وقد ظلت مثالاً للمرأة العاملة النشيطة الدؤوبة حتى ختم الموت حياتها ، ووافتها المنية صيف عام ١٩٥٩ في بيروت .

نبیہة حداد

عرفت مدينة اللاذقية خمس شاعرات ، بعد فتاة غسان (فاطمة سليمان الأحمد) التي نظمت الشعر في مطلع حياتها ، ثم عزفت عنه وتركته لأخويها أحمد ومحمد (بدوي الجبل) وهؤلاء الشاعرات هن : عزيزة هارون ، وهند هارون ، ونبيهة حداد ، وفاطمة حداد ، ومها غريب ، أما عدد حداد فقد كتبت مقطوعات نثرية وجدانية ، ولم تشتهر كشاعرة .

* * *

ولدت نبيهة حداد في اللاذقية عام ١٩٢٠ ، في أسرة مثقفة معروفة ، وكانت منذ طفولتها تميل إلى الشعر ، لتبته همومها وأحزانها ، ولكنها بعد أن أخفقت في زواجها مرتين ، صارت في أمس الحاجة إليه ، لتفرغ فيه شحنات الشوق الدفين ، والوجد اللاهف التي تعصف بنفسها الشاعرة ، وتستودعه أحلامها السرابية الخائبة ، وشعورها باليأس والمرارة لعلها تنسى لوعة الأسى ، وشقاء الحرمان .

عملت نبيهة في التعليم ، مع أنها لم تكن تحب تلك المهنة الشاقة التي جففت ينابيع إلهامها ، وحدثت من إبداعها ، وبعثت فيها الملل والسأم كما تقول :

صرفت جهدي على التدريس فانصرفت عني عرائس شعري وانتهى حالي
فأين أنتِ حروفٌ كنتِ أبدعُها وأيسن أغنيتي ولت وموالي ؟
لكنها مع ذلك واصلت دراستها الجامعية ، حتى تخرجت في قسم الفلسفة بكلية الآداب عام ١٩٦٧ ، واستطاعت رغم المرض أن توفق بين الدراسة والوظيفة وتربية الأولاد ونظم الشعر ، فكان أن أرهقت قلبها الضعيف ، وحملته فوق ما يطيق ، فتوقف عن الخفقان في أيلول عام ١٩٧٧ ، وهي في ريعان الشباب ، وأم لعدة أطفال .

عرفت الشاعرة نبيهة حداد في اللاذقية في منتصف الستينات ، وهي مديرة لأعدادية «خولة بنت الأزور» ، واستمعت إليها وهي تنشد شعرها العاطفي والوصفي في «نادي الجمارك» باللاذقية أمام حشد كبير من محبي هذا الشعر ، فكان يقابل بالتصفيق والاستحسان ، لأنها كانت شاعرة موهوبة ، وفنانة أصيلة مبدعة .
زارتني يوماً في عملي بمجلة «المعلم العربي» بوزارة التربية ، وقدمت لي ديوانها «أزهار ليلك» الذي طبعته عام ١٩٧٠ في الإدارة السياسية ، وكانت يومئذ تسعى للانتقال

إلى دمشق التي استوطنتها أسرتها ولم يعد لها في اللاذقية أي ارتباط غير الوظيفة ، وما زلت أحفظ بنسخة من قصيدتها «استدعاء» التي قدمتها إلى وزارة التربية ، وقد كتبتها لي بخط يدها ، تقول فيها :

أتيتكم أرتجي نقلي إلى عملٍ يناسبُ الشعرَ والآدابَ في الحال
إذ تعلمون بأني خيرُ شاعرةٍ نذرتُ للناسِ أقوالي وأفعالي
ففي «الثقافة» و«الإعلام» نافذةٌ يطلُّ منها على الآفاق أمثالي
ولكن «استدعاءها» لم يلق أذنا صاغية ، وماتت بعد ذلك فريسة لليأس والقهر
واللامبالاة ، وفي قلبها أكثر من غصة ، وفي عينيها أكثر من دمعة حارة .

* * *

ضم ديوان «أزهار ليلك» أربعاً وثلاثين قصيدة من الشعر الوجداني الرقيق الذي عبرت فيه عن معاناتها وهمومها وحرمانها وأشواقها بصدق وعفوية ، فقد كانت تصبو إلى «يوتوبيا» من نسج أحلامها المجنحة ، وتتطلع إلى عالم يسوده الحب والتفاهم والحرية وتسعى إلى التفلت والانطلاق من القيود التي وضعها المجتمع في طريقها ، فلا تواجه إلا بالصد ونخبة الأمل :

كل ما أملك أحلامٌ وواحاتٌ تمنٍ . .
أشربُ الدفءَ على الظنِّ ، فقد يدفيء ظني
أغزلُ الشوقَ أحاسيساً ، وأبكي وأغني
أتناسي لوعةَ الحرمانِ في طفرةٍ لحنٍ
أحملُ الصحراءَ في قلبي ، وفي مقلةٍ عيني

لقد كان هناك حلقة ضائعة تبحث عنها بلهفة ، شيء مفقود من حياتها ، لعله الحبيب الذي يمكن أن يملأ دنياها بالحب ، ويغمرها بفيض من العطف والدفء والحنان فلا تجده ، فترتد بأسى وانكسار إلى كهوف ذاتها ، وهي تشعر بالقنوط والحرقرة والمرارة :

حملت وجددي وحرمانني بملء يدي واللهُ يعلمُ ما ألقى من الغبن
غنيتُ : يا ليلُ ، يا عيني على شجني لمن أغني ، لمن أشكوك يا زمني ؟
نامت جفوني ، وظلُّ الوجد في هدبي وحوار قلبي بين الصحورِ والوسن

وعشت أزجي الليالي الداجيات أسيَّ وهان عمري على دهري ولم يهن
عليّ أرى في متاه الغيب لي أملاً ضلت خطاهُ على دربي فلم يبين
لعل أجمل قصائدها الغنائية التي سمعتها منها ، وكانت تترنم بها ، وتعتر
بانشادها في الأمسيات الشعرية التي تدعى إليها ، قصيدة «واحة» ، وما هذه الواحة
في الحقيقة إلا نفسها القلقة عندما يجفوها الحبيب ، ويستعر في أحشائها الوجد
والألم ، وتتمرد الجفون على النوم ، ويجرن القلب ، فلا يقر لها قرار ، في حين أوى
جميع الناس إلى مخادعهم ، وغطت الطيور رؤوسها بأجنحتها لتنام :

يا نديمي نشر الليل على الكون وشاحه
وحنا النوم على كل خلي فأراحه
هدأ الناس ، ولفّ الطير في العش جناحه
ويح قلبي ، ما لآمي لا تبغي براحه
يكتّم الوجد عن الناس ويجترّ جراحه
إيه يا صحراء عمري ، ليس في مسراك واحة
يجد الظامى في الماء والمتعب راحة

وإذا ما وصفت البحر ، وهو على مرمى حجر منها ، فلكي تعكس صورة
اتساعه ، وصخبه ، وعمقه ، على نفسها ، إنه ضائع في الكون كضياعها ، وشارد
كشرودها ، وسطحه المرتعش كارتعاش وجهها الملتاع :

أنت نفسي ، أيها البحر ، إلى أعماق قاع
سطحك الراعش وجهي ، شفّ عن بعض التياح
ضعت في تيهك يا بحر ، وأحببت ضياعي

وإذا ما أتعبها السرى وحدها في الدروب الموحشة بلا صديق ، وشعرت بأنها
ضائعة تائهة كتلك السفن التي تمزقت أشرعتها ، وراحت تتقاذفها الرياح الطائشة
وسط الأعاصير ، وقد هجر الأحبة دارها وتفرقوا عنها ، عادت إلى جوارها البحر
لتستمد منه صورها الجميلة وأخيلتها الفاتنة قائلة :

وحدي أطوف على الدروب بلا صديق
من أنت يا بنت الضياع ؟
سفنًا ممزقة الشراع
والبحر إعصار قوي هادر

لا تبخني عما أضاع الخاطرُ

عودي إليّ ولا تغيبني

وليحترق قلبي وقلبك باللهيب .

وهي جريئة ، في غزلها ، لا تعرف فيه الخوف والتردد والوجل ، تحب حبيبها حتى العبادة ، تريده قوياً ، في ساعديه نضال الحياة ، وعنق المعاول :

أحب حبيبي

أغني له

وينصت لي

وتحنويدي

كحللم ندي

على شعره الأجدد

أحب حبيبي وحببي له كالعباده

وتؤقي له لا يُحدّ

وفي شفثيه عبيرُ السنابلُ

وفي ساعديه نضالُ الحياةِ وعنقُ المعاولُ .

كذلك تنشد الحرية المطلقة والصراحة الكلية في الحب ، تتمنى لو تهرب من أسر العادات والتقاليد الاجتماعية البالية ، وتقتلع جذورها من تربة هذه الأرض التي تشدها إليها بعنف ، وتحيا طليقة من كل قيد ، كما الزهر الطافي على سطوح الجداول والأشجار :

أتمنى يا حبيبي

لو كنتَ إلى قربي

ترتاح إلى صدري

وتنام على زندي

وأداعب شعرك في ودّ .

أتمنى ، ماذا ؟ لا أدري

أتمنى بعضاً من عمري

لو أهرُبُ فيه من أسري

قدماي ، جذوري في الأرض

لو يُقتلُ الجذْرُ
لو يَيسفُحُ الفِكرُ
لو أحيَا كالزهرِ الطافي
في سطحِ النهرِ الشفافِ
وهي أيضاً لا تعرف الكتمان في الحب ، فإذا غدر بها الحبيب ، سهرت الليالي ،
وعشيت عيناها من طول البكاء ، وشعرت بأن عمرها صار عقيماً لا معنى له ، تحاول
أن تنسى ولكن عبثاً ، لأن الحب ترك في قلبها جراحاً دامية لا تندمل :

وقالوا : أحببت ، ولا أنكرُ

وقالوا : تهيمُ ولا تصبرُ

وفي نفسها أملٌ أخضرُ

وتمضي السنون ولا أشعرُ

ويغدر بي الجاحدُ الأسمرُ

أمنُ أجلِ هذا أنا أسهرُ ؟

وتعشى عيوني ، فلا أبصرُ

وأغرسُ عمري ولا يثمرُ

وقالوا : ستنسى ، ولا أقدرُ

وفي داخلي عاصفٌ يهدرُ

وجرحٌ يثورُ ولا يفتُرُ .

وكثيراً ما يعصف بقلبها الوجد فتثور ، وتحس بالوحدة الموحشة ، والعزلة الخائفة
فتنتفض ، وبالأغلال تقيدها فتصرخ بالحبيب من فرط الألم :

لا تقتربُ

أحسُ أني ألتهبُ

مغلولةً اليدين والشفاه

وليس لي اله !

الحب في قاموسها إذن حرية وانطلاق لاحدود لهما ، دنيا من الود والتفاهم
والصفاء لا أثر فيها للحقد والبغض . الحب أن يعانق الحبيبان الأزهار في الحقول ،
ويجريا في الغابات بلا قيود ، ويعيشا لحظات العمر بلا سهد أو أرق :
الحب ؟ أتدري ما الحب ؟

أن تجري في الغابات بلا قيدٍ
تتسلق أشجاراً
وتعانق أزهاراً
أن تحيا لحظاتِ العمر
وتنام بلا سهدٍ .
الحب إلهٌ موجودٌ في أعماقِ القلب
في ضمةِ أيدينا
في آفاقِ الدربِ .

* * *

إذا تركنا الجانب الرومانسي في شعرها الوجداني - وهو الجانب الأكبر والأهم -
طالعنا بعض القصائد التي تدعو فيها إلى السلام والمحبة والعدالة بين بني البشر :

أيها الانسان قم
وازرع الأرض سلاماً وعدالة
ما السلام ؟
ما العدالة ؟

وتشفق على انسان القرن العشرين ، الذي يتخيل أحلاماً أسطورية ، ويبحث
عن الحرية في كل مكان فلا يجدها ، ويتحدث عن الحب ، وهو لا يملك قلباً ليحب
به :

إنسانُ العصرِ شقيٌّ مسكينٌ
يتخيل أحلاماً أسطوريةً
ويفتشُ عن حرية
ويتحدث في الحبِ
ويعيش بلا قلب
إنسانُ العصرِ شقيٌّ مسكينٌ
إنسانُ القرنِ العشرينِ .

لقد آمنت نبيهة حداد بمبدأ النضال الوطني ، وضرورة الكفاح والالتزام بقضايا

الشعب لتحقيق الاشتراكية الانسانية ، فهي تنتظر ذلك اليوم الذي ينال فيه
الكادحون حقوقهم ، ويجنون ثمرة أتعابهم ، ويحصلون على مكاسبهم :

أيها اليوم الحبيب
أنا في دربك نشوى
مع شعبي أنتظر
في فمي أنشودة مشرقة
وبنفسي أمل
ودمي منفعل
بيدي حطمت قيدي ومشيت
ومعي تمشي الملايين إليك . . .
حينذاك سوف تحيا
أمتي
في سلام ، حرة من كل قيد
أيها اليوم الحبيب .

وهي لا تقف شعرها كله على حبيها ، وحده بل تكرس جزءاً منه للملايين المعذنين
والمسحوقين والمضطهدين ممن تكوي الشمس جباههم وجلودهم في المرافئ والمصانع
والحقول ، ويهلكون جوعاً ، ويقتلون كل يوم في المنافي والسجون ، ليس في بلادها
فحسب ، بل في العالم كله :

وأنا أيضاً أحب
ليس أنت
أنت وحدك
بل ملايين الذين يعملون
في المرافئ
والمصانع
والحقول
ليتني أطعم قلبي للملايين الذين
يهلكون جائعين
في بلادي وفي غير بلادي

ليتني أمتحُ أنفاسي أنا
للذين
يُقتلون
كل يوم في المنافي والسجون .

* * *

كانت نبيهة حداد شاعرة مرهفة الشعور ، صادقة في التعبير عن أحاسيسها
الذاتية والاجتماعية ، سعت إلى التجديد في كل ما كتبت من قصائد ، وقد أمدتها
حياتها القلقة بفيض لا ينضب من المعاني الجريئة التي لم نألفها في شعر المرأة من
قبل .

كان شعرها مرآة دقيقة لكل ما عانته في حياتها القصيرة من ألوان العذاب والصد
والتنكر ، ومن المؤسف أن شعرها لم يجمع حتى الآن ، ولا تزال قصائدها موزعة في
الصحف والمجلات ، كالأديب ، والأدب ، والثقافة ، ودنيا المرأة ،
والنصر . . . وبعضها لم ينشر في أي مكان ، وما زال محفوظاً عند أسرته .

* * *

نجلو أبل اللمع معلوف

(١٨٩٥ - ١٩٦٧)

ولدت الأديبة السيدة نجلا أبي اللمع في بلدة برمانا (لبنان) عام ١٨٩٥ ،
وتتلذت على يدي الخوري بطرس البستاني مدة سنتين ، بعدما أغلقت المدارس
أبوابها على أثر نشوب الحرب العالمية الأولى ، ولما وضعت هذه الحرب أوزارها ،
أشار عليها أستاذها البستاني بإصدار مجلة تشع نور العلم والمعرفة ، بعد الظلمة
الفكرية التي اجتاحت البلاد ، فأصدرت عام ١٩١٩ مجلة «الفجر» التي عاشت
ست سنوات ، إلى أن سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية ، حيث تزوجت
الأديب يوسف نعمان المعلوف صاحب جريدة «الأيام» التي كانت ثالث جريدة
صدرت في أميركا الشمالية ، ومؤلف كتابي «خزانة الأيام» و«أسرار يلدن» .

* * *

ظل هاجس الصحافة يؤرق الأميرة نجلا وهي في المهجر ، فأعدت إصدار مجلة
«الفجر» في كندا باللغتين العربية والإنكليزية ، لكن الجولم يكن ملائماً فأوقفت
المجلة بإشارة من الدكتور يوسف حتى ، وانضمت إلى أسرة تحرير جريدة «الهدى»
لنعوم مكرزل ، وراحت تكتب تعليقاتها الأسبوعية تحت عنوان «أفضل ما قرأت
وتعالج مشكلات الوطن الذي أحبته وحملت همومه إلى نيويورك ، وقد ظلت تمد
الهدى بمقالاتها وتعليقاتها الأدبية والسياسية حتى عودتها إلى لبنان عام ١٩٤٥ .

* * *

لم تكن مجلة الفجر مجلة نسائية بحثة شأن مجلات : «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة
دمشقية ، و«العروس» لماري عجمي ، و«الحذر» لعفيفة صعب ، و«منيرفا» لماري
بني ، بل كانت مجلة أدبية جامعة ، تهتم بالأدب والشعر ، وكانت مي زيادة توافيها
شهرياً في باب «بريد القاهرة» برسائل أدبية تتميز بأسلوبها النقدي وحسها الناعم ،
وكان هناك باب للتدبير المنزلي تكتبه شقيقته أسما ، وقصة مترجمة متسلسلة ينقلها
عن الفرنسية أخوها توفيق أبي اللمع ، ومقتطفات وأخبار عالمية . . . وكان نصير
المرأة جرجي نقولا باز ، ومحمد جميل بيهم يقفان إلى جانبها دائماً ، ويمدانا بمقالاتهما
التي تدور حول كفاح المرأة العربية ونضالها وإنصافها ونيل حقوقها .

حين عادت الأميرة نجلا أبي اللمع إلى لبنان أقامت لها جامعة الهيئات النسائية حفلة تكريمية قلدها فيها رئيس الوزراء الأستاذ الداعوق وسام الاستحقاق برتبة فارس ، فألقت أميرة المنابر يومئذٍ خطبة شكرت فيها الحكومة على إنعامها الرفيع ، كما شكرت صديقتها ابتهاج قدورة على بادرتهما الطيبة وقالت : «إن الثقة التي أولتني إياها الحكومة اللبنانية ، هي في عيني فوق رموز الأوسمة ، ومعاني الشارات ، ويكفيني فخراً أن هذه البادرة النبيلة قد صدرت بمساعي أختي المرأة التي لها في كفاحها المستمر حياة مثالية يُقتدى بها في مقاييس الهمم والنفوس ، تتلاقى عندها ثقة الرجل ومناصرته لها لتأدية رسالة وطنية ، وإنها لرسالة غالية» .

كانت نجلا أبي اللمع مع رفيقاتها جوليا طعمة دمشقية ، وسلمى صائغ ، ونازك العابد بيهم ، ولبيسة ثابت ، ولودي سرسق ، وأمينة الخوري المقدسي ، وهدى ضومط ، وابتهاج قدورة ، وماري يني ، وعنبرة سلام الخالدي في طليعة نساء لبنان اللواتي وقفن جبهة واحدة لتشجيع المنسوجات الوطنية ، وأقسمن ألا يضعن على أجسادهن إلا الثياب المنسوجة في لبنان والبلاد العربية ، وألا يقدمن لزوارهن إلا السكاكر الوطنية .

* * *

في عام ١٩٢٠ أقيم في الجامعة الأميركية ببيروت حفلة تذكارية بمناسبة مرور مئة عام على وفاة المعلم بطرس البستاني ، وكانت الحفلة تحت رعاية وزير الحربية السورية يوسف العظمة تكلم فيها ستون خطيباً كانت نجلا واحدة منهم ، وبعد انتهاء الحفلة تقدم منها الوزير وهنأها وقال لها : «أنا فخور بأن يكون في بلادي سيدة على هذا المستوى من الفصاحة والبيان ! هل أستطيع القيام بأي خدمة ؟ وكان أخوها رثيف يومذاك أسيراً في دير الزور ، فانتهزت الفرصة وطلبت منه الاستعلام عن أحوال أخيها ، فقال لها باهتمام : «عودي إلى بيتك ، وسأوافيك بالجواب بعد أربع وعشرين ساعة ، وقبل مرور ثمان وأربعين ساعة كان أخوها يطرق باب المنزل ، دون أن يدري كيف ومن أطلق سراحه . . .

بعد شهرين من تلك الحادثة استشهد يوسف العظمة في موقعة ميسلون ، فحملت مع شقيقها إكليلاً من الورد ووضعت على قبره في ميسلون باسم مجلة «الفجر» ، وفاء للشهيد العظيم الذي قدّم روحه فداءً للوطن .

ندوة المنقاري

(١٩٩٢-١٩٠٤)

إذا كانت الأنسة ماري عجمي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) تعد رائدة الصحافة النسائية الأولى في سورية ، لاصدارها مجلة «العروس» عام ١٩١٠ ، فإن السيدة ندى المنقاري تعد الرائدة الثانية بلا شك ، إذ أصدرت مجلة «المرأة» عام ١٩٣٠ ، بعد أن توقفت مجلة العروس بخمس سنوات ، وقد كانت مجلة المرأة امتداداً لمجلة العروس في حمل رسالة المرأة العربية لتحريرها من ظلم الجهل والتخلف ، وقيود العزلة والعبودية التي فرضت عليها قروناً طويلة .

* * *

ولدت السيدة ندى عمر المنقاري في حلب عام ١٩٠٤ ، وتلقت تعليمها في مدرسة الأرمن الكاثوليك ، فأتقنت فيها اللغة الفرنسية ، ولما تخرجت من دار المعلميات عام ١٩٢٦ عينت في حماة ، حيث أصدرت مجلة المرأة ، ثم انتقلت بها إلى حلب ، ولكنها لم تعش طويلاً ، فتوقفت عن الصدور حتى عام ١٩٤٧ ، حين صدرت من جديد في دمشق «شهرية مصورة للثقافة والأدب والفن» ، بالاشتراك مع الأستاذ حمدي طربين ، صاحب مطبعة «الهلال» بسوق الحميدية ، واستطاعت أن تشق طريقها رغم الصعوبات الجمة التي واجهتها .

تقول السيدة المنقاري في افتتاحية العدد الأول الذي صدر في شهر نيسان عام ١٩٤٧ تحت عنوان «المجلة بين ماضيها وحاضرها» : «وإذا قُدِّر لهذا الصوت أن يخفت حيناً ، فلأنه كان غريباً وجديداً ، والغريب الجديد في نظر الناس هدف للخصومة والمقاومة» .

«لقد كانت مجلة المرأة بارقة فكر لمعت في جو خاص ، وأشرقت في وسط خاص ، فلما أتبع لنورها أن يمتد إلى أفق أوسع ، لقي من المصاعب ما حد من سيره فارتد وانحسر ، لا ليخفت إلى النهاية ، بل ليتركز ويقوى ، وها قد توفرت له العوامل الآن ، فأخذ ينبثق من جديد بادي الأثر ، قوي الاشراق ، ذلك لأن رسالة المرأة في الحياة قد أخذت تتميز بطابع جديد» .

ويبدو من كلام المنقاري التالي أن ضيق نظرة المجتمع إلى المرأة ، كانت أحد الأسباب الجوهرية التي أدت إلى توقفها في الفترة الأولى إذ تقول : «لقد كانت السنوات التي مضت كفيلة بأن تغير نظر الناس إلى المرأة ، ونظر المرأة إلى نفسها ،

ونظر الناس والمرأة إلى الحياة» .

وتنهي افتتاحيتها بمخاطبة المرأة قائلة : «وبعد ، فهذه مجلتك أيتها المرأة الفاضلة ، فيها صوتك الذي لا ينجف ، واتجاهك الذي لا يخذل ، وطريقك الذي لا ينقطع ، وانك ستتخذين منها منبراً حراً للفكر والمفكرين ، وغذاءً ثقافياً يرمم نقصنا الأدبي ، وفقرنا إلى المعرفة» .

يفهم من هذه الافتتاحية أن السيدة ندى المنقاري كانت تسعى جاهدة إلى زج المرأة في مضمار النهضة الحديثة ، ودعوتها إلى رفع صوتها ، وتمسكها بالفضيلة والخلق القويم لتأمين الطفرة ، ولا تنزل في مهاوي المدنية الغربية التي أخذت تذر قرنها في المجتمع العربي ، ولذلك آلت على نفسها أن تتناول في صفحات المجلة الأربعين مشاكل المرأة ومهمة تثقيفها ووضعها في الحياة الاجتماعية ، وتضمنها دروساً عملية وأبحاثاً متعددة في فن تدبير المنزل وإدارته مما تتطلبه كل امرأة .

ولكي تزداد خطوتها وثوقاً ، أخذت تستفتي في العدد الثاني من المجلة كبار رجال الأدب والفكر حول ضرورة أن تكون هناك مجلة للمرأة ، وتدعم موقفها بأرائهم مثل : الأمير عادل أرسلان ، وخلييل مردم بك ، وشاكر الحنبلي ، وسعيد حيدر ، وتسألهم ما إذا كان للمرأة العربية حق مغموب يجب أن تطالب به ، وأي طريق يجب أن تسلك في فجر نهضتها ، المدنية الغربية المعاصرة ، أو طريق المدنية الشرقية ، لتصل إلى ما يناسب طبيعتها ، ويحقق مثلها ؟

وقد أجمع كل من استفتتهم على أنه يحسن أن يكون للمرأة السورية مجلة ، لأن المجلة هي المدرسة الثانية التي تعين على تقدم النهضة الفكرية ، بما تنشره من مقالات ، وتبثه من آراء تثيرها الرأي العام ، وتوجهه توجيهاً صالحاً .

لقد سدت ندى المنقاري فراغاً كبيراً بإصدارها مجلة المرأة ، إذ فسحت المجال أمام المرأة لظهور مشاعرها ، ومعالجة مشاكلها ، والمطالبة بحقوقها ، واستطاعت بفضل هذه المجلة الرائدة بعث نهضة نسائية تقوم على أسس من العلم الصحيح والخلق المتين ، وحفزت عدداً من الكاتبات إلى أن يشرعن أقلامهن ، فكان منهن آنذاك : نجاح العطار ، ومنيرة علي المحايري ، ونعيمة المغربي ، وعفيفة الحصني ، وثرية الحافظ ، وفاطمة الجيوشي ، وليلى البكري ، وحرورية الخطيب ، ونوال سعيد ، وعناية رمزي ، وثرية كرد علي ، وبراعة القوتلي ، وزائدة جانا ، وسميحة المصري ، ومعزز البيانوني ، ورثيفة الناشد ، ونوجهان الحسيني ، وجمانة العطار ،

وسهيلة زكية ، وبلقيس عوض ، وخديجة شقير ، وسهام عربي كاتبي ، ووفيقية العسلي ، وأسما الشهابي ، وعصام صبري وغيرهن ، فأكمل بعضهن طريق الأدب ، كنجاح العطار ، وعفيفة الحصني ، وثريا الحافظ ، ونعيمة المغربي ، وعصام صبري ، وتوقف بعضهن الآخر في أولها ، وهذا الحشد من الأسماء ، إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن مجلة المرأة تبنت إبداع هؤلاء الكاتبات ، وأخذت بأيديهن ، وفتحت لهن الأبواب ، لينطلقن إلى مجالات أرحب وأوسع .

وكما اهتمت في مجلتها بحث المرأة على التعلم ، ونيل حريتها ، والمطالبة بحقوقها ، وتشجيعها على القيام بأعباء الحياة العملية ، وفتح مجال الأعمال الحرة أمامها ، لتمكنها من ملكة الاعتماد على النفس ، كذلك اهتمت فيها بالصحة والجمال ، والأزياء ، والتفصيل والخياطة ، ومشاكل الأسرة والبيت ، وفن الطبخ ، وأشغال الإبرة ، والتسلية . . .

لقد كتبت السيدة نديمة المنقاري في مجلة المرأة عام ١٩٤٧ ست مقالات تحت عنوان «المرأة في قافة الحضارة» تناولت فيها مكانة المرأة في الحياة ، وسيرها في قافلة الحضارة ، وبينت الأسباب التي أدت بها إلى شلل فعاليتها في الماضي ، وأثر المدنية الحديثة في نهضتها وحياتها ، وصولاً إلى الحديث عن مكانة المرأة السورية في المجتمع .

تعتقد الكاتبة أن المرأة لم تستكن عن استخذاء ، ولم تنم عن خور ، وإنما وجدت في ظروف خاصة مثقلة بالقيود ، وأحيطت بمشاكل صرفتها عن الوعي والتفكير في الواقع . . . وقد أوتيت من نعمة العقل ، ورهافة الحس ، وحدة التفكير ما أوتي الرجل . . . وهي في تكوينها الجسمي لا تختلف عنه إلا بمقدار اختلاف وظيفتها في الحياة .

كانت المرأة ضئيلة الأثر في تكوين الحياة قديماً ، لأنها كانت قابعة في زاوية تتولى الحضان والنسل ، في حين كان الرجل يعمل للعيش والكفاح ، فيغزو ويتناول . . .

وكان لانتشار الطباعة والصحافة أثر بارز في نهضة المرأة الجديدة ، فقد غزت الصحف والمجلات كل بيت ، و«فهمت المرأة من حقيقة نفسها ما كانت تحتاج في فهمه إلى الوقت الطويل» .

ولما أخذت المرأة مكانها في المجتمع ، نهضت إلى الاهتمام بشؤون الوطن ،

فصارت «ترصد أحواله ، وتلمس مشاكله ، وتتقرى آلامه . . . وأصبحت تجد من واجبه أن تُوَازِرَ الوطن حين تجب المؤازرة ، وأن تعمل لأسرتها الكبيرة الواسعة ، مثل الخير الذي عمله لأسرتها الضيقة المحدودة» .

وتنهي نديمة المنقاري مقالاتها بمقالة «المرأة السورية في المجتمع» التي تؤكد فيها «أن المرأة السورية أهل للتفكير والبحث ودراسة المشاكل ، وأنها تبني محاکمتها على العقل ، وهي حين تنصّب نفسها للبحث ، تبقى بعيدة عن جنو العواطف الخاصة . . . ولئن زعم نفر أن المرأة أسيرة عواطفها ، وأنها تسخر المنطق لهذه العواطف ، ففي زعمهم الكثير من الغلو . . .

لقد أصبحت المرأة السورية تمتلك من الوعي القومي ، ومن تفهّم المسؤولية ، ما يجعلها جديرة بتحمل أعباء مقدراتها ، ومشاركة الرجل في مصير البلاد» .

* * *

إذا كانت السيدة نديمة المنقاري لم تواصل الكتابة بعد أن توقفت مجلتها نهائياً ، فقد عوضت عن ذلك بالنشاط المدرسي الذي كانت تبذله في المدارس التي كانت تديرها أو تعلّم فيها ، مثل إقامة المعارض الفنية ، وإدخال رقص السباح كلون من ألوان النشاط الفني ، وإلقاء المحاضرات والأحاديث الأدبية والاجتماعية في إذاعة دمشق .

كما كانت تعقد الندوات الأدبية والفكرية في منزلها بحلب ، فأحيت بذلك ذكر صالون مواطنتها الشاعرة مريانا مرّاش (١٨٤٨ - ١٩١٩) التي سبقتها إلى هذا العمل ، وقد انتخبت الأم المثالية في الستينات ، وكرمت في حفلات تكريم المبدعين في محافظة حلب عام ١٩٨٢ .

ہدیٰ شعراوی

(۱۸۸۲-۱۹۴۷)

ولدت في «المنيا» بمصر عام ١٨٨٢ ، وتربت في القاهرة ، حيث استطاعت أن تحظى بأرقى أنواع التربية في ذلك العصر ، ولما لم يكن هنالك مدارس نظامية للفتيات المسلمات ، فقد جاء لها أهلها بمعلمات خصوصيات تلقت عليهن العلوم المعروفة والموسيقى ، واللغتين التركية والفرنسية .

تزوجت وهي صغيرة من علي شعراوي ، فرزقت ولدين هما «محمد» و«بثينة» ، لكنها لم تنعم طويلاً بحياتها الزوجية ، فقد توفي زوجها في ١٤ آذار سنة ١٩٢٢ ، وكان أول رئيس للوفد المصري الذي سافر إلى فرنسا سنة ١٩١٩ للمطالبة بالاستقلال بعد الثورة المصرية المعروفة ، كما كانت هي أول امرأة خرجت في القاهرة في تظاهرة نسائية بالمئات ، احتجاجاً على وجود الإنكليز في مصر ، وقد وصف الشاعر حافظ إبراهيم هذه التظاهرة يومئذ بقوله :

خرج الغواني يحتجج ن ورحت أرقب جمعهنه
وأخذن يجتزن الطرب ق ودار «سعد» قصدهنّه
وإذا بجيشٍ مقبل والخيل مطلقه الأعنه
وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه
اهتمت بالقاء المحاضرات على النساء المصريات ، فدعت الأنسة «كليان» سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٤ لتلقي محاضرات في بيتها ، ثم في الجامعة ، فاستطاعت هذه المحاضرات التي استمرت فترة من الزمن ، أن تمهد لظهور الحركة النسائية في مصر والوطن العربي التي قادتها السيدة شعراوي .

عندما دعا الاتحاد النسائي الدولي جماعة السيدات المصريات إلى تمثيل مصر في مؤتمر جنيف سنة ١٩٢٠ ، لم تستطع هدى شعراوي أن تشارك فيه لأسباب عائلية ، ولما أعيد عقده في روما سنة ١٩٢٣ سافرت إليه على رأس وفد مؤلف من سيزا نبراوي ، ونبوية موسى ، فكان لخطاب الوفد تأثير كبير في تغيير نظرة الأجانب إلى المرأة العربية التي كانوا يظنون أنها ما تزال تعيش حياة مجتمع «الحريم» . وبعد أن عاد الوفد إلى مصر ، سافرت هدى إلى باريس وأخذت تنشر في صحفها المقالات الطويلة عن رقي المرأة المصرية بخاصة والمرأة العربية بعامة .

وكانت بالاضافة إلى هذا كله من أبرز العاملات على ترويج الصناعات النافعة ، والمشروعات الهامة معتقدة «أن الاستقلال السياسي لا يقوم إلا على أساس من الاستقلال الاقتصادي» .

طالبت في المؤتمر الدولي السادس لنساء العالم الذي عقد في مدينة الجزائر سنة ١٩٢٤ بالغاء الاتجار بالنساء والأطفال ، واغلاق دور البغاء في جميع بلدان العالم اغلاقاً تاماً ، لأن بقاءها اهانة للشرف الانساني ، واعتداء على الفضيلة ، وتشجيع على الرذيلة كما تقول . . .

وطالبت المؤتمر أن يأخذ هذه المسألة بعين الاعتبار ليمحو هذه البؤر الفاسدة ، كما محتها كل من بريطانيا وسويسرة وهولندة وغيرها ، معتقدة أن عملاً انسانياً مثل هذا قضية عامة لا تفريق فيها بين الجنس والوطن .

ثارت هدى شعرواي على التقاليد الموروثة التي كانت تضطر بنات الصعيد إلى التزام الحجاب ، والانصراف عن العمل في السياسة ، ودعت المرأة المصرية إلى المساهمة في الحياة الوطنية ، كالاتشارك في التظاهرات ، والاسعاف ، والتبرع بالمال . . . وكانت اليد اليمنى للسيدة «صفية» زوجة الزعيم الوطني سعد زغلول ، ورائدة الطليعة الواعية في مصر والبلاد العربية .

وبعد عودتها من مؤتمر روما عام ١٩٢٣ ، فكرت في انشاء مجلة للمرأة المصرية ، لتعريف العالم الغربي بالمرأة العربية ، فظهرت المجلة باللغتين العربية والفرنسية ، واستطاعت من خلالها أن تعبر أصدق تعبير عن مطالب الاتحاد النسائي الذي أنشأته مع زميلاتنا في الحركة الوطنية والخدمة الاجتماعية .

طالبت في مؤتمر «كوبنهاغن» عام ١٩٢٩ بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ودافعت عن حقوق الفلسطينيين ، وفي آخر مؤتمر حضرته عام ١٩٤٦ - أي قبل وفاتها بعام واحد - رفعت صوتها محذرة من استعمال الأسلحة الذرية ، وسعت في مصر لتحديد السن لزواج الفتيات ، ومساواة الجنسين في التعليم والوظائف الحكومية ، وأنشأت ملجأً للأيتام ، ومشغلاً لصناعة الخزف وباقي الفنون النسائية . . . كما أسست في دار الاتحاد النسائي ندوة ثقافية لالقاء المحاضرات وعقد المؤتمرات . وعندما عادت من أول زيارة لها إلى الغرب ، ثارت على تقاليد الحجاب الصارمة ، فخلعت حجابها ودخلت مع صديقتها سيزا نبروي من مرفأ الاسكندرية دون نقاب ، فلقينا عنتاً ومحاربة من المتعصبين والمترمتين ، لكنها أصرت على ذلك ، ودعت إلى نبذ بقوة ، حتى استطاعت أن تحرر المرأة من هذا القيد الثقيل الذي فرضته عليها قسوة المجتمع ، ولم يكن ذلك خروجاً على الحشمة والوقار - كما تقول السيدة وداد سكاكيني - بل سلوكاً مثالياً في السفور السليم ، وقد

ظلت تجاهد وتكافح في ميدان تحرير المرأة والخدمات الاجتماعية والوطنية إلى أن
توفيت عام ١٩٤٧ .

* * *

هناكسباني كوراني

(۱۸۹۸ - ۱۸۷۰)

كاتبة وخطيبة باللغتين العربية والانكليزية . ولدت في «كفرشيما» سنة ١٨٧٠ ، وتلقت مبادئ القراءة والكتابة في مدرسة أنشأتها حكومة لبنان في كفرشيما ، فاكتملت منها الغيرة الوطنية ، لكنها لم تمكث فيها أكثر من شهرين ، حتى غادرتها إلى مدرسة الأميركيين ، ثم إلى مدرسة شمالان الانكليزية ، فظلت فيها سنتين كاملتين ، التحقت بعدها بمدرسة البنات الأميركية (كلية بيروت للبنات) حيث أمضت أربع سنوات ، أتقنت خلالها قواعد اللغتين العربية والانكليزية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلك ، والنبات ، والفيزيولوجيا ، وكان أستاذها في العربية العلامة الشيخ ابراهيم الحوراني (١٨٤٤ - ١٩١٥) .

دعيت بعد تخرجها للتعليم في مدرسة البنات الأميركية في طرابلس ، فعملت سنة واحدة ، رجعت في نهايتها إلى كفرشيما حيث اقترنت بالسيد أمين كوراني ، ثم أقامت سنة في الشويفات وستين في بيروت ، وكانت خلال ذلك الحين تزود الجرائد والمجلات بمقالاتها ، وترجم الكتب ، وتخطب بالعربية والانكليزية .

سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية أوائل عام ١٨٩٢ لتمثل نساء سورية ولبنان في المؤتمر الدولي الذي عقد في مدينة شيكاغو ، فألقت أروع الخطب في الدفاع عن المرأة العربية ، وبعد انتهاء المؤتمر طافت مدن نيويورك وبروكلن وبوسطن وغيرها تحاضر وتكتب وتخطب ، حتى ذاع صيتها في جميع أنحاء أميركا ، وراحت الجرائد تتسابق إلى استطلاعها أخبار الشرق وعادات أهله ، ومقام المرأة العربية فيه ، وكثيراً ما كانت تخطب أمام الجماهير في زيارتها للشرق .

ظلت في أميركا ثلاث سنوات تسعى إلى طلب الرزق بالاعتماد على النفس ، ذلك لأنها لم تسعد في حياتها الزوجية ، ولم ترزق أولاداً ، فطلقها زوجها ، وقد ربحت من خطبها مادياً ومعنوياً ، إلا أن صحتها ساءت نتيجة تعرضها للبرد الشديد ، والتعب المتواصل ، وأصببت بمرض السل ، فعادت إلى لبنان طلباً للاستشفاء ، وراحت تنتقل بين لبنان ومصر دون جدوى ، حتى توفيت في كفرشيما في السادس من أيار سنة ١٨٩٨ ، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها .

نالت السيدة هنا كسباني كوراني من الشهرة ما لم تنله أي امرأة في مثل سنها ، حتى بلغت شهرتها برلين ، فدعيت لتكون عضواً في الجمعية النسائية الإمبراطورية ، كما اتخذتها إحدى كبريات الصحف التركية حجة على حسن استعداد المرأة العربية واستشهدت بها .

كان أول عمل بدأت به بعد تركها المدرسة تأليف رواية لم تتمها ، لأنها أخذت تراسل المجلات والجرائد مثل «لسان الحال» لخليل سركيس (١٨٤٢ - ١٩١٥) ، و«الفتاة» لهند نوفل ، ثم ألقت بعدها رسالة في الأخلاق والعادات طبعتها وأرسلت نسخة منها إلى السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليها بوسام الشفقة . ومن رواياتها المترجمة والمطبوعة أيضاً (فارس وحمارة) و(زقاق المقلاة) و(الخطاب وكلبه بارود) وهي روايات للكبار والصغار معاً . كانت تهدف في كتاباتها إلى تنوير الأذهان ، واقتباس العادات الحميدة ، والتخلق بالأخلاق الحسنة ، وإلى ترقية بنات جنسها ، ورفع شأن المرأة العربية في عيون الغربيين ، والحث على طلب العلم وخدمة الوطن ، وتعزيز كل ما هو وطني ، وقد صدرت رسالتها في الأخلاق والعادات بقولها :

خطت يدي ما جال في خاطري
تعاون الأفراد يفضي إلى
أنفقت مالي فان تنفقوا
ثم ختمت قصيدتها بهذه الأبيات :

وغاييتي خدمة هذا الوطن
تجمع القوة وهو الحسن
مما لكم نلنا المنى والمنن
بنو وطني يا عمدي وعماديا
وها أنذا أبدي لكم ما بدا ليا
لأشفقت أن أرمي بنفسي المراميا
وأملت فيكم أن أنال الأمانيا

كانت هنا كسباني رقيقة العبارة ، جميلة الألفاظ ، طلية الأسلوب ، خطبت كثيراً ، وكتبت أكثر ، إلا أنه لم يصلنا إلا القليل القليل مما خطبت وكتبت وترجمت ، لأن أبويها أحرقا كل ما خلقت من مخطوطات ، خوفاً من تسرب جراثيم مرض السل الذي أصيبت به . وقيل العكس فقد روت أختها للسيدة إميليا فارس ابراهيم صاحبة كتاب (أدبيات لبنانيات) أنها عندما توفيت أقبل يوماً إلى البيت الأستاذ جرجي نقولا باز ، وطلب من والدها أن يسمح له بالاطلاع على أوراقها هنا وكتبتها ، لأنه يود أن يجمع آثارها ويطبعتها . . . فخيل له أن في الأمر منفعة مادية يود نصير المرأة أن يجعلها في متناوله ، فعز على والديها المفجوعين أن يكون موت صبيتهما سبباً في منفعة تطالهما ، فوثبا بعد ذهاب الزائر ، وأحرقا كل ما تركت هنا من مخطوطات وأوراق ، رافضين أن يتفعا من موت ابنتهما .

جرت بينها وبين الأدبية زينب فواز مناظرات ومناقشات حول المرأة والسياسة على صفحات جريدة (النيل) في الاسكندرية ، أبدت فيها جانب التحفظ من دخول المرأة معترك الحياة العامة ، فردت عليها زينب فواز بقولها : « . . . فما المانع إذاً من اشتراك المرأة في أعمال الرجال وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها ؟ وإلا فما فائدة تعليم المرأة الغربية جميع العلوم ؟ » .

إلا أن آراءها في المرأة قد تغيرت بعد عودتها من الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٩٥ ، فقد قالت في خطاب لها عنوانه «التمدن الحديث وتأثيره في الشرق» : «إن تأثير المرأة في التمدن الحديث مشابه لمآثر الرجل . . . فقد تحررت من نير ظلمته السابق ، وأكدت له أن جهادها واحتمالها للمصاعب لم يكن حياً بالسيادة ، بل طمعاً في تحصيل العدل والمساواة به ، فسعى الاثنان معاً ، يداً بيد ، في العمل المرقى لبني الانسان ، والمقرب لسعادتهم» .

«فعلنا بعظم ما فعلته وتفعله المرأة في الغرب ، يجب أن يثير فينا الغيرة والاقدام على مثله في الشرق ، فالوطن والرجال أيضاً في حاجة شديدة إلى معونتنا ، نحن النساء ، فلنقدم لهما من فرائض آدابنا وعلومنا وتهدينا ما يقدرنا عليه الله ، ولتكن المرأة الشرقية عماداً في بناء مدنيتنا على أساس من العلم والفضيلة ، ولها بهذا فخر لا يزول» .

* * *

هيام نويلاوتي

(۱۹۷۷-۱۹۳۲)

تحفل سورية بعدد لا يستهان به من الأديبات اللواتي لمعن في ميادين القصة والرواية والشعر ، ومن أبرزهن : وداد سكاكيني ، والفة الادلبي ، وسلمى الحفار الكزبري ، وكوليت الخوري ، وغادة السيان ، وعزيزة هارون ، وهيام نويلاتي التي رحلت إلى العالم الآخر قبل الأوان ، وهي لا تزال في ريعان الشباب وقمة العطاء ، تاركة تسعة دواوين شعرية وروايتين هما «في الليل» التي صدرت في كانون الثاني ١٩٥٩ ، و«أرصفة السأم» التي صدرت عام ١٩٧٧ بالاشتراك مع أم عصام (خديجة الجراح النشواتي) ، بالإضافة إلى أطروحتها الجامعية عن «الغزالي» ، ومجموعة لا بأس بها من المقالات والخواطر والمذكرات التي لم تجمع حتى الآن في كتاب ، وعدد من الصور واللوحات التي قامت برسمها .

لم يمهلها القدر أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، فقد طواها الموت في الثاني عشر من آب (أغسطس) عام ١٩٧٧ بعد صراع طويل مع المرض ، ورحلة شاققة مع الحروف والكلمات التي سقتها ذوب نفسها وعصارة وجدانها ، وحملت شحنت من عواطفها الحارة ، وثورتها المتأججة ، وتمردتها العاصف .

عرفتها عام ١٩٥٨ في رحاب جامعة دمشق ، وكانت يومئذ طالبة في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، تنظم الشعر الرقيق الذي تعبر فيه عن أهوائها الدفينة ، وأحاسيسها المرهفة ، وتكب في الوقت نفسه على دراسة الفلسفة التي كانت تستهويها إلى حد بعيد ، وتشارك باستحياء في الحركة الأدبية والأمسيات الشعرية ، فضلاً عن وظيفتها في إحدى مؤسسات الدولة .

كانت الشاعرة هيام نويلاتي لا تزال في بداية عطائها حين كتبت عنها مقالاً في مجلة «المعارف» اللبنانية ، حللت فيه شعرها ، وتعمقت بدراسة أطروحتها الفلسفية عن «الغزالي» وروايتها الأولى «في الليل» ، وتوقفت بشكل خاص عند قصيدتها التي لحنها وغناها المطرب السوري نجيب السراج وتقول فيها :

كيف غابَ الأمس بالأحر بابٍ وانفض الندامى
وذوى زهرُ الهوى النا مي وأطيبابُ الخزامى
وأثنيث يومئذ على شفافية هذه القصيدة ورقة ألفاظها ، وجمال معانيها ، فزادها ذلك التشجيع ثقة بنفسها ، ودفعها إلى المزيد من العطاء ، لكنها توقفت مع الأسف عن النشر أربع عشرة سنة بعد صدور روايتها «في الليل» ، سُغلت خلالها بمهام الزواج والأسرة والأولاد ، لتطلع علينا فجأة عام ١٩٧٣ بثلاثة دواوين هي «الهرب»

و«القضية» و«تشرين» ، وتتبعها عام ١٩٧٤ بأربعة دواوين أخرى هي «كيف تمّحي الأبعاد» و«مدينة السلام» و«زوابع الأشواق» و«وَشْم على الهواء» ، وبعد هذا الفيض الشعري المتدفق تقلص إنتاجها عام ١٩٧٥ إلى ديوان واحد هو «المعبر الخطر» ، وبعمر عام ١٩٧٦ فلا يحمل لنا منها شيئاً ، لتعود عام ١٩٧٧ إلى إصدار ديوان واحد وأخير من الشعر الكلاسيكي العمودي بعنوان «يا شام» ، ورواية كتبها بالاشتراك مع صديقتها القاصة أم عصام (خديجة الجراح النشواتي) أطلقت عليها اسم «أرصفة السأم» ، ثم ختم الموت في العام نفسه هذا العطاء السخي والانتاج الثر ، ولو قدر لها أن تحيا أكثر من خمسة وأربعين عاماً لأغنت المكتبة العربية بمزيد من الأعمال الشعرية والروائية الأخرى .

كأني بالشاعرة هيام نويلاتي كانت تحس في قرارة نفسها بأنها لن تعمر ولن تعيش طويلاً ، ولذلك ألحت على النشر بهذه الكثافة المدهشة التي جاءت على حساب الفن والجودة والعمق ، ولا تزال عند أسرتها مذكرات وأوراق وأشياء لم تنشر بعد ، تنتظر من يخرجها إلى النور .

* * *

كتبت السيدة هيام نويلاتي الشعر وهي طالبة على مقاعد الدراسة الثانوية بلونيه الكلاسيكي والحديث ، وقد جمعت في ديوانها الأخير «يا شام» كل القصائد العمودية التي نظمته خلال مراحل حياتها القصيرة ، ومعظمها يدور حول الحب ، والشوق ، والألم ، والاحترق ، والاعتراب ، والوجد ، والوداع ، وتصوير العذابات النفسية التي تعانيها فتاة متوثبة الشعور ، نابضة القلب ، تريد أن تحطم قمقم سجنها الضيق ، لتنتقل وتمرد على عقلية مجتمعها الجامدة المقيدة ، وتتخطى القيود الصارمة التي فرضها ، فقد امتازت هيام نويلاتي بأسلوبها الجريء ، ونبراتها الحادة منذ أن بدأت الكتابة ، كما عرفت بصدقها وصراحتها وعفويتها ، فقد كانت - كما تقول عن نفسها - «وراء كل معنى تمرد ، ووراء كل تمرد انطلاق نحو مجهول بعيد» ، ويبدو هذا التمرد والاباء في قصيدتها «كبرياء» التي تخاطب فيها الحبيب قائلة :

لا تهجّ لاعجَ أشواقِي التي تتنزى في فؤادي بالإباء

لا تثر آهتي الحرى فما في فؤادي غير آهات الشقاء
ياللبؤس النفس في حيرتها ملأت دربي بشوكٍ ودماء
آه دعني ، غاب أمسي وكبت ذكرياتي مثل أنوار المساء
كبريائي كل زادي بعد أن مات حبي في سبيل الكبرياء
ان من يدق في معاني الأبيات السابقة ، يلمس الحيرة النفسية التي كانت تجتاحها
«ياللبؤس النفس في حيرتها» ، ربما لتأثرها بدراسة الفلسفة ، أو لخبية أملها في ضياع
حبها الأول ، أو لباثها وشموخها وعنفوانها وتمردا ، فقد كانت هيام نويلاتي
أبية ، معتدة بالنفس ، عميقة الفهم ، واسعة الإدراك ، طموحة ، لم ترخص
نفسها ، ولم تسفح عواطفها وتتهالك إلا بقدر ما يبقى لها كرامتها ، ويحفظ لها
عزتها .

جربت الشاعرة هيام نويلاتي الحب العاصف ، وأحست بخفقان القلب ، وهي
لا تزال طالبة في الجامعة بين عامي ١٩٥٤ - ١٩٥٨ ، لكنها لم تبح به إلا لأوراقها
الخاصة التي كانت تودعها أسرارها واعترافاتها ، وتخط عليها قصائد البكر ، ومن
أوائل شعرها العاطفي قصيدتها «كوخنا» التي تصور فيها نفسها وحيدة مع حبيبها ،
في كوخ قصي ، بعيدة عن أعين الرقباء ، تعب من الرغبات ما شاء لها أن تعب :

أترى أراك هناك خلف المنحنى ؟

في المفرق

في كوخنا المترقب

لنعب من أيامنا

ومن الرغائب ما بقي

فأنا لغيرك يا شقي

لم أخلق . . .

لنضل خلف المنحنى

في الواحة الظمأى لنا

نفنى على لفح الهوى

في زورق من وجدنا

ونغيب في سكراتنا

نحكي المنى

أسطورة عن حبنا . . .

لكنها في الفترة الأخيرة من حياتها هجرت رومانسيتها ، وخرجت من عزلة أحلامها الطيارة الوردية ، لتعيش في دنيا الواقع السياسي والاجتماعي ، فأصبحت أكثر احتفالاً بهوم الناس والمجتمع والوطن الذي امتدت إليه أصابع الغزو من كل مكان ، ووقفت أكثر من وقفة مشرفة لتدافع عنه بشعرها الحماسي الذي كرسه للاثادة ببطولات حرب تشرين التي خاضتها القوات السورية في الجولان ضد اسرائيل . تقول في قصيدة «سلوا الجولان» :

سلوا الجولان

كم صاغت روايه

عيونا باللظى تصحو

لمن زف الهوى تشرين . . .

وتتحدث في قصيدتها «مدينة السلام» عن القدس التي لم تعرف السلام منذ أن دخلها الغزاة ، فلبست ثوب الحداد ، ومات كل جار مصلوباً على الجدار :

ولدت في مدينة السلام

لكنها مدينة لم تعرف السلام

واستعمرت مدينتي

واجتاحها الطاعون

حتى أصبحت ركام

وانتشر الغبار

ومات في عيونها النهار

ومات كل جار

مصلوباً على الجدار . . .

* * *

وداد سسکاکينی

(۱۹۹۱-۱۹۱۳)

لابد لنا من مغامرة فكرية وراء الملهمين ، لنلحق ولو قريباً بأجنحتهم التي حلقتوا بها ، ونسلك إلى الأغوار ، ونطيف بالبدائع التي استلهموها ، أو المعاني التي صوروها ، ولا بدع إذا تدارسنا آثارهم وخلدنا ذكركم ، وكرمناهم في الحياة وبعد أن يطويهم الموت ، فلولا هؤلاء الذين جلوا لنا صفحات الوجود ، وفتحوا أمامنا مغالق النفس والشعور ، لما أحسسنا بقيمة الفن والجمال ، والحياة بدونهم صحراء قاحلة . . .

وإذا كان للعالم أن يفخر بكتاباته الشهيرات من أمثال : جورج صاند ، وكوليت ، وسيمون دي بوفوار ، وفرانسواز ساغان ، وسلمى لاجرلوف ، وجورج إليوت ، وغبريلا ميسترال ، وشارلوت ، وإميلي ، وآن برونتي ، وجين أوستن وغيرهن . فإن للأمة العربية أن تعترف بأدبياتها وشاعراتها اللاتي تفوقن بالمواهب والتأليف من أمثال : سهير القلماوي ، وبنيت الشاطيء ، وأمينة السعيد ، وصوفي عبدالله ، وملك عبد العزيز ، ونازك الملائكة ، وفدوى طوقان ، وغادة السمان ، وكوليت خوري ، وسلمى الحفار الكزبري ، والفة الادلبي ، ووداد سكاكيني وغيرهن . . .

* * *

ولدت السيدة وداد سكاكيني في صيدا عام ١٩١٣ ، وتخرجت في «كلية المقاصد» في بيروت ، وكان أستاذها العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٥ - ١٩٤٤) يشجعها ويسدد خطاها بعد أن لمس نبوغها المبكر . وبعد أن تخرجت فيها عملت في التعليم عدة سنوات ، ثم مارست بعض الأعمال الإدارية في المعهد العالي للبنات .

وحين تزوجت الشاعر الدكتور زكي المحاسني (١٩٠٩ - ١٩٧٢) عام ١٩٣٤ انتقلت معه إلى دمشق ، ثم رافقته إلى القاهرة عام ١٩٤٦ حيث عين ملحقة ثقافياً في السفارة السورية ، وتابع دراسته العالية في جامعة القاهرة التي نال منها شهادة الدكتوراه في الآداب بأطروحة عنوانها «شعر الحرب في أدب العرب» .
لقد أتيح لها وهي في مصر أن تتصل بكبار الأدباء وأعلام المفكرين ، وأن تحضر الندوات والمؤتمرات ، وتسهم في الحركة الأدبية بشكل فعال ، وتشر العديد من

كتبها في دار الفكر العربي ، ودار المعارف ، ولجنة النشر للجامعيين ، وتغذي العديد من الصحف والمجلات بمقالاتها النقدية ، ومراجعاتها للكتب الجديدة .

القصة في أدب وداد سكايني

أصدرت وداد سكايني خمس مجموعات قصصية هي : «بين النيل والنخيل» و«مرايا الناس» والستار المرفوع» و«نفوس تتكلم» و«أقوى من السنين» وتتميز قصصها بالتحليل البارع لنفسيات أبطالها ، ولاسيما إذا كانوا من النساء ، وهذا دليل على أن المرأة أقدر على فهم نفسية المرأة من الرجل ، بحكم صلتها الوثيقة بها كأم وأخت وزوجة وجارة ومعلمة ومربية ، ومن هنا ندرك لماذا أثرت الكاتبة اختيار أبطال قصصها من النساء ، ولعل هذا النجاح في تحليل غواطف المرأة هو الذي جعلها تبلغ الذروة في قصة «هاجر العانس» التي صدرت بها مجموعة «مرايا الناس» وقصص : «الضرتين» و«رشيد المولوي» و«أبوتراب» وغيرها من الأقاصيص التي تصور بعض تقاليد المجتمع السوري .

لقد كان لجريدة المكشوف التي كان يصدرها فؤاد حبيش (١٩٠٤ - ١٩٧٣) في بيروت الفضل في إبراز وداد سكايني حين أقامت مسابقة للقصة القصيرة عام ١٩٣٨ اشترك فيها تسعة وخمسون كاتباً من سورية ولبنان ، ففازت بالجائزة الأولى ، وكان عنوان قصتها الفائزة «الشيخ حمدي» . وقد نُقلت بعض قصصها إلى اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنكليزية والروسية وغيرها .

أما في مجال الرواية فقد أصدرت روايتين شاميتي الموضوع والمحتوى واللون هما «أروى بنت الخطوب» التي نسجت في مستهلها صورة رائعة للشام في قديمها الذي لم تتغير طبيعته ، وللمرأة العربية في حفاظها ووفائها ، و«الحب المحرم» التي صورت فيها النقلة الشامية بين القديم والحديث ، واضطراب الفتاة في دراستها ، وتطلعها إلى الحياة الزوجية .

لقد غمست وداد سكايني قلمها في مداد الحياة فتناولت سير الناس وصورهم ، وحللت طبائعهم ونفوسهم ، منقبة عن زيوف الطوايا ، من أجل جنسها الذي تريده أن يكون في حرز من أهل التفرير ، مرتكزة على أرضية من دقة الملاحظة ، ونفاذ البصيرة ، فقلما تفلت منها شاردة لا تنال نصيبها من التحليل والتمحيص ، ولا شك أن دقة الملاحظة من أهم الصفات التي يجب أن تتوافر في القاص الجيد .

وداد سكايني وأدب المقالة

اهتمت وداد سكايني بأدب المقالة منذ أن أصدرت كتابها الأول «الخطرات» عام ١٩٣٢ ، وكانت في نهاية العقد الثاني من عمرها ، ولم تكتب مقالاتها خصيصاً للكتب التي تنشرها ، بل كانت تجمع مقالاتها المنشورة في الصحف والمجلات ، في كتب ، كما فعلت في كتبها «سواد في بياض» و«نقاط على الحروف» و«شوك في الحصيد» و«سطور تتجاوب» و«إنصاف المرأة» ، وكانت هذه المقالات تتميز بالجرأة والصراحة ، وحرصانة العبارة ، وقوة السبك ، ومتانة الأسلوب ، وإشراق الألفاظ ، ودقة الحبكة ، فلا نعثر في مقالاتها على لفظ عامي ، أو عبارة ركيكة ، أو كلام حوشي ، فهي تنتقي ألفاظها المعبرة بذوق الأديب البارع ، وتختارها اختيار الفنان الأصيل ، كما لو أنها غرست غرساً ، وهيئت لهذا الموضوع دون سواه .

إن الرصف الجيد والبناء المتين والتلاحم الدقيق في ناخي الكلمة والكلمة ، هو الذي أضفى على أسلوبها هذا الرداء العربي المشرق ، فلا التواء ، ولا رخاوة ، ولا تقعر ، وكل ذلك في قالب من البيان المحبب ، نطالعها فكاننا نطالع عبد الحميد الكاتب أو الجاحظ أو أبا حيان التوحيدي في أجل ما كتبوا . . . ويزيد أسلوبها قوة هذا التوكؤ على ألفاظ القرآن الكريم ، تنثرها في مطاوي قصصها ومقالاتها من حين لآخر .

وبالإجمال فأسلوب وداد سكايني يتميز بالقلم الرفيع ، والنسيج المكين ، مما خلع على أدبها رونقاً جميلاً ، فأعادت للمرأة العربية القديمة بذلك قيمة الأسلوب العربي الرصين ، حتى لتضاهي به كبار الكتاب ، وقد قدره أعلام الأدب والفكر في مصر والبلاد العربية أمثال : عباس محمود العقاد ، وطه حسين ، ومحمود تيمور ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد كرد علي ، والأمير مصطفى الشهابي . . . وشهدوا لها جميعاً بصفاء الأسلوب وعمق الفكر والثقافة .

إن كاتبة هذا شأنها من الطبيعي أن تنتصف لشرف اللغة من دعاة العامية فتهب لترد عليهم بجرأة صاحب الحق المهضوم ، ودفاع المحامي الفطن ، لأن ضياع اللغة معناه ضياع الوطن والقومية والأمة . . . وهي لا ترضن على المجددين والموهوبين المقتدرين بالتأييد والتشجيع شريطة «ألا يكون انطلاقهم في التجديد على حساب اللغة هي الدعامة الأولى في قوميتنا وثقافتنا ، فإذا فرطوا بهذه القضية فكانهم

فرطوا في حق العروبة والوطن ، وكم ضاعت أمة بضياح لغتها» .
وتتعرض لأولئك الذين يبحثون عن الشهرة ، ويريدون اختصار طريق
الأدب ويجنحون إلى استخدام العامية في كتاباتهم ، أو يروجون لها فتقول : «وما
كانت العامية من هؤلاء الثائرين إلا تبريراً لضعفهم في التعبير ، وإيثارهم السهولة
والسرعة كأن القارئ على نار ، يلح بمطالبتهم بأي منتج ، وما أشبههم بخباز ،
لا يكاد يدخل أقراص العجين إلى الفرن حتى يخرجها غير ناضجة ، متوسلاً
بالسرعة لكثرة الإنتاج والرواج ، وهذا الأدب المتخفف . المرئيل ، ظاهرة اجتماعية
من ظواهر عصرنا المتسم بعصر العلم وابتلاع الأقراص ، وهي ليست في أدبنا
وحده ، بل في الآداب العالمية أيضاً ، وقد تناولها بالنقد والاستهزاء ، وأكثر ما تتجلى
في الأدب الشفهي الذي يذاع ويُلقى ، وقد لا تنقله الإذاعة إلى القارئ» .

وحين تنعى على دُعاة العامية ضعفهم وركاكتهم ، لا تنسى أن تشرك معهم جماعة
الأدب السطحي الذين قعدوا عن طلب الفكرة العميقة ، لثلا يزعمجوا أنفسهم
بالدرس الحثيث والجهد المضني ، واستجابوا بكليتهم للإذاعة تقتل وقتهم
بالأحاديث السخيفة ، والتمثيلات الباردة الغثة ، والأغاني التافهة الرخيصة ، أما
السينما والصحافة فهما - في رأيها - العدوان اللدودان للأديب ، تستنزفان وقته ،
وتشوهران ما تماسك من أدبه .

ولا يروق سكاكيني أكثر هذا الذي تنتجه مطابعا من القصة الحديثة لأنه «جاء
حفيماً بالعامية والفكرة السطحية ، متسماً بالأناقة الشكلية لا الموضوع فيه معمق
النظرة والخطوط ، ولا التعبير خال من الركالة والتكلف والابتذال» .

ولا تقل نقمتها على الشعر الحديث عن نقمتها على القصة الحديثة ، «لأنه لم يحظ
بالطاقة والثقافة الكافيتين ، وكل ما يصل إلى أيدينا منه ، لا يتعدى منظومات
ومقطوعات ، لا هي بالنثر ولا هي بالشعر ولا بين ذلك ، نقرؤها فنجدها مفككة
الوزن ، متداعية الصور ، سطحية المعنى ، وقد حسب أصحابها أن في رصف
الكلمات المكرورة ، وتزويق حروفها تجديداً لا يعرفه الشعر العمودي بقوالبه
التقليدية التي أعجزت النظامين الناقلين» .

وعلى هذا المنوال من النقد الصارم تستمر وداد سكاكيني في شن غاراتها على
الكسالى من الكتاب والمتأديبين قائلة : «أين تلك الجلسات الطويلة التي كان يقضيها
القارئ عاكفاً على كتاب يجب أدبه ويتدارسه بشوق وتأمل ؟ لقد فارق الكتب

أحبابها ، وعلاها الغبار على الرفوف ، ونصبت فوقها للزينة ، وقنع العشاق المحدثون بنزوات عابرة ، ونظرات خاطفة ، فليس للمثقف اليوم أو المتأدب إلا أن يطيف بعينيه في جريدة أو مجلة ، راضياً بالمقال الخفيف ، والنبأ المثير ، والصورة المغرية ، أو يدير مفتاح المدياع ، فيسمع حديثاً مستعجلاً ، أو تمثيلية هزلية خفيفة» .

إن المقالة النقدية هي جزء هام لا يتجزأ من أدب السيدة وداد سكاكيني ، تنتقد بصراحة تامة ، دون محاباة أو تحيز ، حريصة على أن تبقى كلمة الأدب هي العليا .

وداد سكاكيني وأدب السيرة

اهتمت وداد سكاكيني بأدب السيرة الذاتية ، فأصدرت عام ١٩٤٥ كتاب «أمهات المؤمنين وبنات الرسول» الذي ضم أربع عشرة سيرة لسيدات لمعت أسماؤهن في التاريخ العربي كأم الزهراء ، وأم الحسين ، وأم المؤمنين وغيرهن من اللواتي كن فضليات العرب ، وحجة على الرجال .

لقد تطلعت إلى سماء العرب في أزهى عصورهم ، فأبصرت فيها كواكب نسوة ساطعات بهرما تألق نورهن ، وغمرها شعاع من إيمانهن واحسانهن فطفقت تقلب في البحث عن سيرهن وأخبارهن بطون التراجم ، ومتون التاريخ ، تجمع من هنا خبراً ، ومن هناك سيرة حتى جلت ذلك كله في صور فنية تأنس بها النفس ، ويهفو إليها الخاطر .

لقد قصدت من كتابها هذا أن يكون نبراساً للفتاة العربية ، تهتدي به ، ومشعلاً ينير الطريق أمام كل أم ، لتعرف كيف تربي أطفالها على النبل والايثار والوفاء والتضحية .

في عام ١٩٥٩ أصدرت كتابها «نساء شهيرات من الشرق والغرب» الذي اشتركت في تأليفه مع السيدة تماضر توفيق ، وضم عشرين سيرة لأشهر النساء اللواتي نفعن العالم ووهبته قسطاً كبيراً من جهودهن في الحياة التي عشنها في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وقد قامت وداد باختيار النساء العشر من بنات الشرق العربي اللاتي كن من الرائدات المجاهدات في نهضتنا الحديثة أمثال : أم كلثوم ابراهيم ، وماري عجمي ، ونازك العابد ، وليلى دوس ، وهدى شعراوي ، ومي زيادة ، والأميرة بدرية سالم الصباح ، والأميرة عائشة المراكشية ، وسهير القلماوي ،

وفدوى طوقان .

لكن بقي هنالك نجم نسوي متألق لم يشرق في دنيا ترجماتها القصيرة حتى الآن ، هو نجم «رابعة العدوية» العاشقة المتصوفة الذي تلاً في سماء البصرة العراقية أواخر القرن الهجري الأول ، وتسلسل نوره إلى المجالس والبيوت ، وسطح فيها كالثرثريات ، وظل مرموق الضياء ، حتى هوى في أعقاب القرن الثاني للهجرة ، متحولاً إلى أحدوثه لا تنسى ، خلدها السطور ، ولهجت بها الألسنة ، وتداولتها بالذكر والتأليف أقلام طائفة من الباحثين في القديم والحديث .

لقد جلت وداد سكاكيني في هذا الكتاب ما علق بسيرتها من حيرة وتناقض وغموض ، فكانت هذه السيرة من أحسن الدراسات ، ولذلك نقلت إلى اللغة الإنكليزية ، ونشرت في لندن .

إلا أن كتابها «مي زيادة في حياتها وآثارها» الذي نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ يحتل مكان الصدارة بين كتب السيرة الأخرى التي أصدرتها عن «قاسم أمين» ١٩٦٥ و«عمر فاخوري أديب الابداع والجهامير» ١٩٧٠ ، وسابقات العصر ١٩٨٦ لأنها عانت كثيراً في تأليفه وجمع أصوله ، وتحقيق وثائقه التي حصلت عليها من مظانها ومصادر الوثيقة ، وعاشت طويلاً مع الصحف والمجلات والمؤلفات التي احتوت أدب مي (١٨٨٦ - ١٩٤١) منذ نشأتها حتى نهايتها ، وقد أقامت هذا الموضوع الشائك على الحجة الدامغة ، وخلاصة اللقاء والإصغاء لذوي الصفحات الحية الصادقة من ثقات المفكرين والأدباء الذين عرفوا ميّاً على سجيتها ، وفي مختلف أطوارها وآثارها ، غايتها التحري والتقصي والبحث عن الحقيقة للوصول إلى جوهر أدبية ظلمت نفسها وظلمها الناس فيما تقولوا عليها زعماً ووهماً دون تثبت ولا يقين .

لقد تضمن هذا الكتاب أصدق ما كتب عن حياة مي زيادة وآثارها ، تلك الأدبية اللامعة التي واكبت الرعيل الأول من الأدباء ، بناء الوعي الفكري والقومي في بلادنا العربية في أوئل هذا القرن .

وداد سكاكيني والنقد الأدبي

إذا كان قراء العربية قد عرفوا وداد سكاكيني كاتبة قصصية وروائية ملتزمة بالقيم الانسانية الرفيعة . وباحثة وكاتبة للمقال والسيرة ، فإنهم قد عرفوها أيضاً ناقدة ملتزمة ورسينة ، تكتب مسوقة بطبعها الجريء المخلص الذي لا يخشى مسؤولية إبداء الرأي .

لقد مالت وداد سكاكيني إلى النقد منذ أن وعت وتلمست طريق الأدب ، وكانت تقرأ لناقد فرنسي مشهور اسمه «أندريه تيريف» فتأثرت به ، وسارت على خطاه وهي على ثقة بأن «حامل النقد أشد تعباً وأشقى . . . وأكثر أعداء وأقل أصدقاء» . وكان من حظها أنها أدركت عهداً من ازدهار النقد الأدبي أثناء إقامتها في مصر ، فأحبت المطارحات النقدية ، وتتبعها بشوق واهتمام ، حتى استهوتها هذه الممارسة ، وخاضت غمارها بجرأة واقتحام ، تهاجم وترد الصاع صاعين ، سعيدة بشهود الأعلام من نقاد الأدب المعاصر ، دون أن تتأثر بموقف محدد ، أو هدف مرسوم ، وفي مقدمة هؤلاء : طه حسين ، والعقاد ، ومارون عبود ، وغيرهم ممن لمعوا بعدهم كمحمد مندور ، وعمر فاخوري ، وكرم ملحم كرم ، ومحمد روجي الفيصل وسواهم ممن لم يطرحوا أقلام النقد الأدبي جانباً إلا بعد الخمسين أو الستين من هذا القرن .

لقد بدأت وداد سكاكيني حياتها النقدية بنقد ذاتها وسطورها أولاً ، قبل أن يقرأها غيرها ، وأخذت تستعد لهذه المهمة الصعبة بزاد ثقافي واسع ، وتتسلح بمعايير دقيقة ، لأن النقد وإن كان علماً يقوم على قواعد ثابتة متفق عليها ، فإن على الناقد أن يكون واعياً ، نافذ البصر والبصيرة ، صحيح المعيار ، غير جوار في القسطاس - كما تقول - ولا يجوز أن يتصدى له من شدا من الثقافة أطرافاً ، إذ لا بد من التمرس بسيرة الأدب والتمكن من اللغة والبيان ، ومعرفة أسرار البلاغة والتعبير والتركيب ، والاطلاع على تاريخ النقد ، والاستفادة من الفلسفة وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، ولا ينبغي مع كل هذه العدة من الاعتماد عليها وحدها ، إذ لا بد من التذوق الفني للناقد ، مع الالتزام بالتجرد قدر المستطاع ، وإرساء القيم على أساس صحيح .

كل هذه الشروط والصفات والمعايير التي يجب أن تتوافر في الناقد الأدبي ، اجتمعت في السيدة وداد سكاكيني ، بالإضافة إلى الجرأة الأدبية ، والثقة بالنفس ، والتمكن من الأداة ، وعدم التهيب من التصدي لكبار الكتاب والمفكرين العرب الذين تتبعت آثارهم ، وتناولت مؤلفاتهم بالنقد النزيه والدرس الهادى ، والمناقشة المطمئنة ، ليقينها بأنها لا تقول غير الحق ، ولا تتعامل مع الباطل ، ولا تتجنى على أحد .

لقد كان يؤلمها ويحز في نفسها أن ترى مئات المنشورات الرديئة التي تملأ واجهات

المكتبات ، «وتهدد إلحاح المستعجلين في الظهور ، ولا يتناولها النقد الأدبي إلا لماماً ، وأن ترى مغالطات وغفلات من ألفوا واستهانوا بوعي المثقفين والنقاد ، ولا ينبري من يدل على القيم والردىء منها» .

من هذا المنطلق حملت وداد سكاكيني على عاتقها مهمة النقد الشاقة ، وكانت واحدة من الأدبيات العربيات القليلات اللواتي اضطلعن بها كسهير القلماوي ، وبنت الشاطيء ، ونازك الملائكة ، وبمى العيد ، غير متحرجة ولا خائفة لأنه «ليس من حرج على من أخلصوا للكلمة أن يقدموها في النقد مع الحججة والدليل وجلاء الإبداع ، دون استغراق في التحليل والتفسير» .

لم تكتفِ السيدة وداد سكاكيني ، بالنقد التطبيقي كبقية المؤلفات كل من : ميخائيل نعيمة ، وجميل صليبا ، وصدقي اسماعيل ، وطه الوالي ، وخلييل رامز سرقيس ، وغادة السمان ، وعزة النص ، وعزيزة مريدن ، ونورا نويهض حلواني ، وثروة أباطة ، وكرم ملحوم كرم ، ولطفي حيدر ، وتوفيق يوسف عواد ، وعزيز أباطة ، وعدنان مردم بك ، ومحمد يوسف نجم ، وعلي أحمد باكثير ، ومحمد المبارك ، وسهام ترجمان ، وكعدي فرهود كعدي ، وأديب فرحات وغيرهم ممن تناولتهم في كتبها النقدية مثل «نقاط على الحروف» ١٩٦٠ ، و«شوك في الحصيد» ١٩٨١ ، و«سطور تتجارب» ١٩٨٨ بل جمعت بالاضافة لذلك تعقيبات ومناقشات لأراء تتناول قضايا عامة تتعلق بالمفاهيم الفكرية والقومية والأدبية المعاصرة ، أو بترائنا العربي القديم والحديث ، لأن الخطأ يؤلمها أينما كان ، ولا يمكنها السكوت أو التغاضي عنه ، ومن هذا المنطلق ناقشت بجرأة وشجاعة كلاً من : عزة النص ، وحسام الخطيب ، وفريد جحا ، ومريانا دعبول فاخوري ، وخير الدين الزركلي ، وسامي الكيال ، وسلمى الحفار الكزبري وغيرهم ، وتدلل هذه المناقشات على ثقافتها الواسعة ، ومتابعتها الدائمة ، وفهمها العميق ، واطلاعها اللامحدود على الأدب وتاريخه ، وسير أعلامه ، وعلى ما تصدره المطابع ودور النشر في سورية ولبنان ومصر وسائر الأقطار العربية .

يقوم منهجها في النقد على التعريف الواسع بالانتاج العام للأديب صاحب الكتاب المنقود ، والإلمام بتاريخ حياته ، وما كان له من مواقف في تاريخنا الحديث ، ترفد ذلك كله ثقافة موسوعية أدبية وفنية وفكرية واجتماعية وإنسانية عامة ، ولغة رصينة ، وأسلوب متين .

لقد تركت وداد سكاكيني عشرين كتاباً في مختلف الأجناس الأدبية ، ولا يزال لدى أولادها عدة مخطوطات تنتظر من يتولى نشرها في المستقبل .

* * *

مؤلفات وداد سكاكيني

- ١ - الخطرات ، بيروت ١٩٣٢
- ٢ - مرايا الناس - لجنة النشر للجامعيين - القاهرة ١٩٤٥
- ٣ - أمهات المؤمنين وبنات الرسول - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٥
- ٤ - بين النيل والنخيل - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٦
- ٥ - أروى بنت الخطوب - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٩
- ٦ - إنصاف المرأة - مطبعة الثبات - دمشق ١٩٥٠
- ٧ - الحب المحرم - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٤
- ٨ - العاشقة المقصوفة - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٥
- ٩ - الستار المرفوع - نادي القصة - القاهرة ١٩٥٥
- ١٠ - سواد في بياض - مطبعة الثبات - دمشق ١٩٥٩
- ١١ - نساء شهيرات من الشرق - مؤسسة فرانكلين - القاهرة ١٩٥٩
- ١٢ - نقاط على الحروف - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٠
- ١٣ - نفوس تتكلم - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٢
- ١٤ - قاسم أمين - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٥
- ١٥ - مي زيادة في حياتها وأثارها - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٩
- ١٦ - عمر فانحوري أديب الابداع والجهاهير - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٧٠
- ١٧ - أقوى من السنين - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٨
- ١٨ - شوك في الحصيد - مطبعة سورية - دمشق ١٩٨١
- ١٩ - سابقات العصر - الندوة الثقافية النسائية - دمشق ١٩٨٦
- ٢٠ - سطور تتجاوب - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٧

وردة الـيازجي

(١٨٣٨ - ١٩٢٤)

هي ابنة العلامة الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) ، وشقيقة
الشيخين ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) و خليل اليازجي . ولدت في قرية
كفرشيبا ببلبنان في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٣٨ ، ولما بلغت الثانية من عمرها انتقل
بها والدها إلى بيروت ، ثم أدخلها مدرسة البنات التي أنشأها المرسلون الأميركيون ،
حيث تلقت مبادئ القراءة والكتابة ، وما إن بلغت الثانية عشرة ، وبدت عليها
علامات النجابة والذكاء ، حتى أخذ والدها يلقيها أصول الصرف والنحو والبيان ،
ويدرسها علمي العروض والقافية ، ويقرأها بعض قصائده ، فتولدت عندها
الرغبة في النظم ، وهكذا لم تكد تناهز الرابعة عشرة ، حتى كانت تنظم القصائد
البديعة ، وتتفنن في المعاني والأساليب الشعرية ، كالوصف والمدح والرثاء ، وكتابة
الرسائل الاخوانية ، في زمن لم تكن فيه المرأة قادرة على فك الحروف ، ولكن الرثاء
غلب عليها لكثرة المصائب والأحزان التي ألمت بها ، كفقدها والدها ، وأخيها
ابراهيم ، وزوجها ، وولدها أمين ، وصديقها مارون النقاش (١٨١٧ - ١٨٥٥)
وغيرهم .

تزوجت عام ١٨٦٦ من الأستاذ فرنسيس شمعون ، أحد خريجي الجامعة
الأميركية في بيروت ، ثم انتقلت بعد وفاته إلى مصر ، وراحت تكتب في مجلة
(الضياء) التي أنشأها أخوها ابراهيم في القاهرة في ١٥ أيلول عام ١٨٩٨ ، ومن
آثارها فيها مقالة في تعريف المرأة الشرقية ، وقد طبع ديوانها الصغير «حديقة السورد»
في بيروت عام ١٨٦٧ وافتتحته بهذه الأبيات التي وجهتها إلى سميتها وزميلتها في
الأدب وردة نقولا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨) شاعر الأمير بشير الشهابي :

يا وردة التركِ إني وردةُ العربِ فيينا قد وجدنا أقربَ النسبِ
أعطاكِ والدكِ الفن الذي اشتهرت لطفهُ بين أهل العلم والأدبِ
فكنتِ بين نساءِ العصرِ راقيةً أعلى المنازلِ في الأقدارِ والرتبِ
وعندما أصدرتِ الشاعرةُ المصريةُ عائشةُ التيموريةُ (١٨٤٠ - ١٩٠٢) ديوانها
«حلية الطراز» بعثت بنسخة منه إلى الشاعرة وردة اليازجي فشكرتها عليه بهذه
الأبيات :

يا نسمةً من أرضِ وادي النيلِ وَرَدَّتْ فأطفتْ بالسلامِ غليلي
أنتِ الفريدةُ في النساءِ فكيفَ لا أهوى حبيباً باتَ دونَ مثيلِ
علمتني قولَ النسيبِ وهجتِ بي ما هاجَ حبُّ بثينةٍ بجميلِ

لقد نظمت ورده اليازجي أكثر شعرها في المناسبات ، لذلك غلب عليه طابع التكلف والتقليد والصنعة اللفظية ، كقولها في وداع سليمان البستاني ، عندما انتخب عضواً في مجلس «المبعوثان» التركي عن ولاية بيروت ، وقد عمدت إلى التورية باسمه :

أخلق ببيروت دار العلم من قدم أن تصطفيك على الأيام معوانا
فالله لما ارتأى إعلان حكمته ما اختار من شعبته إلا سليمانا
ولم يفتها أن تنظم في التاريخ الشعري الذي كان شائعاً في زمانها ، ولا نكاد
نعرف شاعراً عاش في تلك الفترة الزمنية إلا روض ذهنه في هذا الفن التقليدي ،
وشارك فيه بنصيب كقولها مؤرخة إحدى الجمعيات الخيرية في بيروت سنة ١٨٧٦ :
جمعية خيرية بُنيَتْ على حب الفقير لكي تخفف كربهُ
وكذلك قال الله في تاريخه من يرحم المسكين يقرض ربه
ومن مدائحها هذه الأبيات التي قالتها في «نائلة» شقيقة السلطان عبد الحميد
عندما زارت بيروت :

يا ثغر بيروت البهيج تبسم وبمحمد خالقك الكريم ترتم
اليوم زارتك المليكَة فاكتست شرفاً ربوعك بالطراز المعلم
هي أخت سلطان الأنام مليكنا وسليلة الملك الهمام الأعظم
إلا أن الرثاء يكاد يستقطب جل شعرها ، لكثرة النكبات التي حلت بها ، وكان
الله قد أطال عمرها ، ومد في أجلها فبلغت السادسة والثمانين ، لكي تفجع بفقد
أقربائها وأحبائها جميعاً وترثيهم بعين دامعة ، وقلب يقطر دماً ، وينزأسى ولوعة ،
وكثيراً ما كانت تشبه نفسها بالخنساء التي فقدت أبناءها الأربعة ، وأخوها صخرأ
ومعاوية . تقول في رثاء أخيها ابراهيم :

بكت وحيداً ، وأبكي ستة ذهبوا لكل محمديّة بين السورى وجدوا
وتعود لتشبه نفسها بالخنساء مرة أخرى في القصيدة التي رثت بها والدها الشيخ
ناصر ، وتجعل مصابها به أجل وأدهى من مصاب الخنساء بأخيها صخر فتقول :
تكاثرت الأحزان في كبدي الحرى وزادت دموع العين في عيني السكرى
وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت بطي فؤادي من نوائبها جمرا
وقد آلتني الحادثات برعها كما آلت خنساء إذ فقدت صخرأ
فقدت أبي مالي وللعيش بعده فموت من عيشي غدا بعده أخرى

وتلجأ إلى الحكمة لأنها في مثل هذه الأحوال ، خير بلسم للقلوب الحزينة ،
وأفضل عزاء للنفوس التي عصرها الألم ، وهدتها المصائب :

حياة الحزين القلب موت وموته حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى

وتحدث في الرثاء عن فلسفة الموت ، فتبين عجز الانسان عن مصارعته ،
ووقوفه أمامه مكتوف اليدين ، لا يستطيع تحريك ساكن فتقول :
كأسُ المنيةِ دائرُ بينِ الوري يسقي الكبيرَ ولا يفوتُ الأصغرا
ما هذه الدنيا بدارِ إقامةٍ إلا كطيفِ الحلمِ في سِنَّةِ الكرى
ونختم الحديث عن رثائها بما قالته في ابنها «أمين» الذي توفي عام ١٨٩٢ وهو في
ريعان الشباب ، باكية أدبه الرفيع ، وأخلاقه العالية ، وحسنه الوضاء ، بعباطفة
صادقة ، وشعور ملتهب ، وان غلب عليها التقليد ، والاكثار من التشبيهات
المرصوفة رصفاً :

السَّحَّ علي الحزنُ من كلِّ جانبٍ فشنَّ على صبر الحشا غارةً شعوا
فلو أن ما بي في الجبالِ لأوشكتُ تميد لما تلقأه من مضض البلوى
ولو أن «رضوى» ذاقَ بعضَ مصائبي لَدُكُ ولم يقوَ على حملها رضوى
لفقد أنيسي ، بل حبيبي ومهجتي وريحانِ روعي مَنْ غدوتُ به نشوى
أديبُ جميلِ الخلقِ والخلقِ طاهرُ رفيعُ الصفاتِ قلبُهُ طيبُ النجوى
كصدرِ النقا ، كالنصلِ كالغصنِ في القنا كزهري الربى كالبدري كالرشا الأحوى
وبالاجمال فشعر وردة اليازجي تقليدي بسيط سادج ، يتميز بالرقه والوضوح
والسهولة كقولها :

الأروحو عني برائحة الورد فقد جاءنا فصلُ الربيعِ من البعدِ
ألا متعوني مرةً من شميمة فيذهب عني بعضُ ما بي من الوجدِ

للمؤلف :

آ - في أدب الأطفال

- ١ - عندما جاءت عصافير الدوري - شعر مترجم - ليدا ميليفا - وزارة الثقافة ١٩٧٥ .
- ٢ - مدرسة اللقلق - قصص وحكايات مترجمة - عدد من الكتاب - وزارة الثقافة ١٩٧٦ .
- ٣ - الفأس الذهبية - قصص وحكايات مترجمة - عدد من الكتاب - وزارة الثقافة ١٩٧٧ .
- ٤ - دنيا الحكايات - قصص وحكايات مترجمة - أنجل كاراليتشف - وزارة الثقافة ١٩٧٨ .
- ٥ - النمس الوفي - قصص وحكايات مترجمة - عدد من الكتاب - وزارة الثقافة ١٩٧٩ .
- ٦ - عشر قصص - قصص وحكايات مترجمة - ران بوسيلك - وزارة الثقافة والاعلام - بغداد ١٩٨٠ .
- ٧ - المزمارة العجيب - قصص وحكايات مترجمة - ران بوسيلك - مكتبة ميسلون - دمشق ١٩٨٢ .

ب - في الدراسات والنقد

- ١ - أديب اسحق باعث النهضة القومية - اتحاد الكتاب العرب ومجلة العرفان - دمشق وبيروت ١٩٧٦ .
- ٢ - دراسات في الأدب والنقد - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٩١ .
- ٣ - شموع في الضباب (من أعلام الأدب الحديث في سورية) - دار المنارة - بيروت ودمشق ١٩٩٢ .
- ٤ - أدبيات عربيات - الندوة الثقافية النسائية - دمشق ١٩٩٤ .
- ٥ - نصري الجوزي - رائد المسرح الفلسطيني - دار المبتدأ - بيروت ١٩٩٤ .
- ٦ - من أعلام الأدب العربي الحديث (الجزء الثاني) - دار الفاضل - دمشق ١٩٩٤ .

المصادر

- ١ - أدبيات لبنانيات - إميلي فارس ابراهيم - دار الريحاني - بيروت .
- ٢ - نساء من بلادي - ناديا الجردي نويض - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٦ .
- ٣ - مي في حياتها المضطربة - الدكتور جميل جبر - دار بيروت - بيروت ١٩٥٣ .
- ٤ - مي وجبران - الدكتور جميل جبر - دار الجمال - بيروت ١٩٥٠ .
- ٥ - وحي الأبرمة - روز عطاالله شحفة - دار صادر - الريحاني - بيروت ١٩٥٠ .
- ٦ - النسبات - سلمى صائغ - المطبعة الأدبية - بيروت ١٩٢٣ .
- ٧ - النسائيات - ملك حفي ناصف - مطبعة التقدم - القاهرة ١٩١٠ .
- ٨ - بلاغة النساء في القرن العشرين - فتحة محمد - مطبعة مصر - القاهرة .
- ٩ - نعمبات عطر - أنمي طوي - مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٥ .
- ١٠ - عبيرو مجد - أنمي طوي - مطبعة قلفاط - بيروت .
- ١١ - شعراء مجددون - مصطفى عبد اللطيف السحرتي - رابطة الأدب الحديث - القاهرة - ١٩٥٩ .
- ١٢ - الشعر المصري بعد شوقي (الحلقة الثالثة) الدكتور محمد مندور - دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٤ .
- ١٣ - ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر - المطبعة الأهلية - دمشق ١٩٤٥ .
- ١٤ - نساء من التاريخ - الاتحاد العام النسائي - دمشق ١٩٧٣ .
- ١٥ - نساء شهيرات من الشرق والغرب - وداد سكاكيني وتمام توفيق - مؤسسة فرانكلين - القاهرة ١٩٥٩ .

منشورات جمعية الندوة الثقافية النسائية بدمشق

- ١ - سابقات العصر : تأليف وداد سكاكيني .
- ٢ - ديوان عزيزة هارون : إعداد عفيفة الحصني .
- ٣ - قلها وامش : تأليف شوقي بغداددي .
- ٤ - الأم : ترجمة سعد صائب .
- ٥ - الحب بين المسلمين والنصارى في التاريخ : لعبد المعين الملوحي .
- ٦ - الشجرة التي غرستها أمي (سيرة ذاتية) : للدكتور بديع حقي .
- ٧ - دمشق ذاكرة الانسان والحجر : تأليف الدكتورة ناديا خوست .
- ٨ - شخصيات أدبية : تأليف الدكتور ابراهيم الكيلاني .
- ٩ - رسالة المرأة : تأليف عفيفة الحصني .
- ١٠ - أدبيات عربيات : تأليف عيسى فتوح .

طبع هذا الكتاب باشراف جمعية الندوة الثقافية النسائية استجابة لرغبة المتبرعين لها لطباعة كتب لأدباء مرموقين اعترافاً بهم ، وتقديراً لهم ولأدباء شباب تشجيعاً لهم وتقديراً لمواهبهم ، وهي تشكر جميع من أزروها بمشروعها الثقافي هذا وخاصة :

السيدة الكريمة خيرية رضا سعيد المحترمة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
تقديم	٩
أسمى طويي	١٣
ألكسندرة الخوري (أفرينوه)	٢١
جليلة رضا	٢٧
جميلة العلايلي	٣٣
جهان غزاوي عوني	٣٩
جوليا طعمة دمشقية	٤٥
روحية القليني	٥١
روز عطا الله شحفة	٦١
زهور ونيسي	٦٧
زينب فواز	٧٣
سلمى صائغ	٧٩
سلوى سلامة	٨٥
سلوى محمصاني مومنة	٩١
عادلة بيهم الجزائري	٩٥
عزيزة هارون	١٠١
كلثوم عودة فاسيليفا	١١٣
لبية هاشم	١١٩
ماري عجمي	١٢٥
ماري يني عطاالله	١٣٩

١٤٥	مريانا مراش
١٥٣	مقبولة الشلق
١٦٣	ملك حفني ناصف
١٦٩	مي زيادة
١٨٥	ناديا نصار
١٩٣	نازك العابد بيهم
١٩٩	نبيهة حداد
٢٠٩	نجلا أبي اللمع معلوف
٢١٣	نديمة المنقاري
٢١٩	هدى شعراوي
٢٢٥	هنا كسباني كوراني
٢٣١	هيام نويلاقي
٢٣٧	وداد سكاكيني
٢٤٩	وردة اليازجي
٢٥٥	للمؤلف
٢٥٧	المصادر



المؤلف في سطور

- ولد في ١٩٣٥/٦/٣ في قرية بقرعونة (مشتى الحلو) محافظة طرطوس .
- تلقى دراسته الابتدائية في الكفرون والاعدادية في مشتى الحلو، والثانوية في دمشق .
- انتسب إلى كلية الآداب (قسم اللغة العربية) بجامعة دمشق عام ١٩٥٦ ونال منها الليسانس عام ١٩٦٠ .
- انتسب بعد ذلك إلى كلية التربية ونال منها شهادة الدبلوم العامة في التربية عام ١٩٦١ .
- عمل في التدريس بين عامي ١٩٦١ و١٩٨٢ في محافظات إدلب واللاذقية ودمشق .
- مارس الصحافة الأدبية في العديد من الصحف والمجلات السورية والعربية، وكتب مئات الدراسات الأدبية والنقدية .
- عمل رئيساً لتحرير مجلة «صوت المعلمين»، ثم أميناً لتحرير مجلة «بناة الأجيال» في نقابة المعلمين .
- اصدر ثلاثة عشر كتاباً في أدب الأطفال والنقد الأدبي .
- انتسب إلى اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٠ (جمعية النقد الأدبي) .
- نال وسام الشاعر «نيكولاي فابتراروف» من بلغاريا ، ووسام «الصدائقة بين الشعوب» من ألمانيا .

To: www.al-mostafa.com